

هكذا خلقت!

قصّة طويلة

محمد حسين هيكل

الدكتور محمد حسين هيكل

هَكَذَا خُلِقْتُ!

قصة طويلة

الطبعة الثالثة



دار المعارف

تقديم

كانت أسراؤى فى المصيف ، وكنت أتردد بين المصيف والقاهرة لبعض شئونى . وقد اعتدت فى ذلك العهد أن أنزل فندق « مينا هاوس » ، أستمتع من نوافذه بمنظر الهرم والصحراء ، ذلك المنظر البديع فى كل حين ، وهو الروعة والسحر فى الليالى القمرية ! . . ويزيده سحراً ما يسرى إلى نفسك معه من نسيم عذب ينسبك قيظ النهار ، ويتبعث خيالك إلى تصور القرون الخالية ، حين كان أجدادنا يشيدون هذه الأهرام الضخمة ، لتكون مقراً للفرعون الذى أمر بتشييدها ، سكناً له فى حياته الآخرة ! . .

وكنت أستيقظ يكرة الصبح فأنزل إلى حديقة الفندق أجوس خلالها ، ثم أتناول طعام فطورى تحت شجرة من أشجارها الباسقة ، وكثيراً ما كنت أقضى فى هذه الحديقة سويكات الغروب ، ولم يكن نادراً أن ألقى بعض الأصدقاء الذين يجيئون إليها من العاصمة يتغنون فى رقة نسيمها وبعدها عن ضجة المدينة ما يعوضهم عن جهد نهارهم وقيظه ! . .

وإنتى يوماً لجالس قبل الغروب ، أتوقع أن أرى بعض هؤلاء الأصدقاء ، إذ رأيت فتاة شابة تقبل على متأبطة حافظة أوراقها ، ثم تقف عندى وتسلم على باسى . ولم يدهشنى أن عرفتنى ، وأنا لا أعرفها ؛ فكثيراً ما يقع ذلك لى ولأمثالى ، وكثيراً ما يقدم إلى بعض الشبان والشابات كراسات صغيرة ،

ويطلبون أن أوقع باسمي على صفحة من صفحاتها ، أو أن أكتب فيها عبارة ما .

ولقد خيل إلي أن هذه الفتاة تقبل عليّ لمثل هذا الأمر ، وأنها ستخرج من حافظة أوراقها كراسها ، وتطلب إلي أن أوقع باسمي عليها ، أو أكتب لها عبارة تعتر بها بين صديقاتها ، لكنها لم تفعل من ذلك شيئاً ؛ بل رأيتها ما لبثت حين وقفت أمامي أن استأذنت في الجلوس . فلما هممت بعد جلوسها أن أدعو الخادم ؛ ليقدم لها ما تطلب اعتذرت وشكرت وقالت إنها لا تريد شيئاً ، ولكنها قدمت في مهمة كلفت بها ، وكل الذي ترجوني فيه ألا أسألها عن شخصيتها ولا عمن كلفها هذه المهمة .

وبعد هنية فتحت حافظة أوراقها ، وأخرجت منها ملفاً أنيقاً وقالت :
هذه يا سيدى قصة كتبها صاحبها ، ورغبت إليّ في أن أضعها بين يديك .
وقد تركت لك الحرية المطلقة في شأنها . لك أن تقرأها أو تهملها ، فإذا تفضلت وأضعت وقتك في قراءتها ، فلك أن تلقى بها في النار ، أو تحتفظ بها بين المهملات من أوراقك ، ولك إن شئت أن تنشرها على الناس . فإذا كان لها من الحظ أن راقتك فنشرتها ، فستكون هي إحدى قارئاتها ، ولن تعرف أنت ولن يعرف غيرك عن صاحبها شيئاً ! . . هذه يا سيدى رسالتي ، وهذه هي القصة في ملفها ، أدعها بين يديك ، وأستأذنك في الانصراف ! . .
تولتني الدهشة لهذه المفاجأة ، فحدقت بالفتاة الشابة وقلت : قد أفهم أن تحرص صاحبة القصة على ألا أعرف أنا ، أو يعرف غيري من هي ، وأن يدفعها هذا الحرص على أن تجعل منك رسولا يحمل إليّ قصتها . لكنني

لا أفهم سبباً يدعوك أنت لإخفاء اسمك وكل ما يتعلق بشخصك ، إلا أن تكوني أنت صاحبة القصة ! . .

قالت : كلا يا سيدى ، لست أنا صاحبة القصة ولا كاتبها ، وسرى حين تتلوها أنها قصة سيدة فى سن والدتى ، إن لم ترد على ذلك ! . .

قلت : فما يمنعك إذن من أن تذكرى لى اسمك ؟ ! . . إنك شابة رقيقة يلمع فى عينيك الجميلتين ذكاء ، قل أن تعبر عينا أنثى عن مثله . ولعل إن سعدت بمعرفتك أن أكون أكثر سعادة بمعرفة من تمتين إليهم بصلة ، ممن تربطنى بهم صداقة أو معرفة ! . .

قالت : ذلك أدعى ألا تعرف غنى شيئاً ، وقد استحلقتنى صاحبة القصة ألا أذكر لك شيئاً عن شخصى ، وقطعت لها العهد والميثاق أن أكون عند رغبتها ! . . وأحببك يا سيدى تشجعنى على أن أحفظ عهدي ، وتسمح لى بالانصراف .

قالت ذلك وهمت بالوقوف ، وأيقنت أن ما أبذل من جهد لمعرفة اسمها أو شخصيتها سيذهب سدى ، فوقفت وودعتها قائلاً :
لعلى أراك من بعد .

وأجابت : علم ذلك عند ربى . . وانفلتت فى رشاقة ، وسرعان ما اختفت عن ناظرى ، تاركة لى هذا الملف الأنيق الذى أخرجه من حافظة أوراقها ؟ . .
وكان الملف مربوطاً بشريط من الحرير الأزرق زرقة السماء ، فككت رباطه وأجلت بصرى فى صحف القصة الأولى ، ثم إننى تخطيطت هذه الصحف إلى فصل يتوسط القصة فإذا هو يثير طلعتى ، بل يثير دهشتى ، وتكاد

تهتز لقراءته أعصابي . عند ذلك آثرت أن أصعد إلى غرفتي وأن أبدأ قراءة القصة من أولها ، وفعلت ، وإنني لأتابع القراءة إذ دق الخادم باب الغرفة وقال : ألا ينزل سيدى ليتناول عشاءه ، فقد جاوزت الساعة التاسعة ١٢ . . . وأجبتة : بل أؤثر الليلة أن أتناول طعاماً خفيفاً . فأحضر لي ها هنا خبزاً وجبناً وأكثر من الفاكهة .

وخرج الخادم بعد ما طلبت ، وعدت أنا أتابع قراءة القصة ، وكنت كلما انتقلت فيها من فصل إلى فصل تولتني الدهشة . فصاحبها تروى حكاية حياتها في بساطة ويسر ، يكاد يخيل إليك معهما أنها حياة عادية لأية امرأة تعرفها ، ولكنك تقف بعد قليل دهشاً تتساءل : ما هذه المرأة ؟ . . . ومن هي ؟ . . . إنها فريدة في طرازها ، بل هي نسيج وحدها . . . إنها تحب الحياة ، ولا تريد مع ذلك أن تسلم للحياة أمرها ، بل تريد أن تصوغ الحياة كما تشاء هي ، فإذا صدمها الواقع لم تدعن لصدمته ، بل حاولت أن تواجهه في كبرياء المعتز بنفسه ، المؤمن بقوته ، لتبلغ آخر الأمر إلى الإسلام للحياة ومقاديرها ، وللطبيعة وحكمها .

والعجيب في أمر هذه البطلة أنها لم تقف إزاء معركة من المعارك الكثيرة ، التي خاضتها ، لتحلل نفسياتها ، ولتجاهد كي تصلح ما يكاد الدهريفسده . بل هي تنتقل في قصصها من معركة إلى معركة ، وقد كان في مقدورها أن تجد في حمى السلام ملجأً يجنبها هذا النضال ، ويظللها بوارف من الطمأنينة بل السعادة ، لكنها لم تكن تعرف للطمأنينة معنى ، ولم تكن تفهم السعادة إلا أن تكون هي المتحركة في أقدارها وأقدار غيرها . فلما طال بها أمد النضال

وشعرت أنها أصبحت كالكرة تتقاذفها الأهواء التي ابتدعتها هي ، من صنع يدها ، لجأت إلى الحصن الذي يلجأ إليه كل من عبث به أنواء الحياة ، لكنها ما لبثت أن اضطرت للخروج من هذا الحصن ، لتدعن آخر الأمر لحكم القضاء ، ولسلطان الطبيعة .

لم أنم تلك الليلة حتى فرغت من قراءة القصة ، فلما أصبحت فكرت : من تكون بطلتها؟ ومن تكون الفتاة التي حملتها إلى؟ ولماذا اختارتني صاحبتي لتدفعها إلى ، وترك لي مطلق الرأي في مصيرها ؟ . . وماذا عساي أن أفعل بها ؟ . .

ألقيتها في سلة المهملات ، أم أدفعها طعاماً للنار؟ . . كلا ! . . فهي تستحق غير هذا المصير لا ريب ، وإن أنا فكرت في نشرها ، فأى عنوان أختار لها ؟ . . لقد تركتها صاحبتي بغير عنوان ، أفأجعل عنوانها : قصة امرأة ؟ . . لكن قصص النساء كثيرة ، وليست هذه البطلة في غمارها تيك النسوة اللاتي أحبين أو أبغضن ، كما تحب كل امرأة وتبغض ، بل إن لحبها وبغضها لطابعا خاصا بها ، لا يتسق هذا العنوان معه ! . .

ومالي لا آتخذ عنوانها من طريقة تحريرها ؟ . . فلم يرد فيها اسم بطلتها ، أو اسم شخص من أشخاصها برغم وضوح شخصياتهم جميعاً وبرزوا . . ما لي لأجعل عنوانها : قصة بلا أسماء ؟ . . ثم ما لي لأجعل عنوانها صفة اختارتها البطلة لنفسها في آخر قصتها : المذنبه الثابتة ، أو صفة أخرى اختارها لها زوجها الأول : غيرة وغرور ؟ . . وترويت في اختيار العنوان طويلا ، ثم ألهمتني شخصية البطلة بشذوذها وذكائها وجاذبيتها ، وبغرورها وغيرتها ،

كما ألهمتني الخاتمة التي أضافتها ذيلاً لروايتها ، فجعلت عنوانها : « هكذا خلقت » ، مقتنعاً بأن هذا العنوان يصف البطلة وطريقة تفكيرها أصداً الوصف ! . .

ولا أريد أن أحكم لهذه القصة أو عليها ، وحسى أن أذكر أن حديث البطلة عن نفسها جعل القصة أكثر واقعية في تصوير عواطفها وإحساسها ، وتطور هذه العواطف والمشاعر في دخيلة وجودها وهي في غمرة المضطرب الذي تعاني العيش فيه .

والواقع أن ما صورته هذه القصة لا يزيد على أنه أثر من آثار التطور الاجتماعي الذي شهدته مصر ، ولا تزال تشهده . وإذا كان في البطلة شذوذ غير مألوف فهو بصور واقعاً قل أن يجتمع كله في نفس واحدة في فترة واحدة من الزمن . . فهو يرسم لا ريب صورة من صور تطورنا المتصل ، في هذا الدور الحاضر من أدوار المجتمع المصري ، وبعض البلاد الشرقية معرضة لأن تمر بهذا الدور مثلنا ! . .

ولعل من القراء من شهد مناظر في الحياة تشبه ما صورته هذه القصة ، وإن اتصلت هذه المناظر بأكثر من شخص واحد في الطبقة المصرية المستنيرة ، في هذا الزمن الذي نعيش فيه ، وتلك ألوان من الحياة لم تكن تمر بخاطر جيلنا أو الجيل الذي سبقه .

ومن الخير تصوير الجوانب المختلفة من أطوارنا في هذا الوطن إذا أردنا أن نواجه التطور الحاضر لفائدة المجتمع ، وحرصنا على ألا تسوء آثاره في بعض الطبقات زمناً طويلاً ، ولن يستطيع كاتب فرد أن ينهض بهذا العبء

الجسم ، سواء اختار القصص أو الرسالة أو البحث العلمي أو الفلسفي ،
فحياة المجتمع تزداد تعقيداً كلما ازداد المجتمع ارتقاء . وقد أصبح التخصص
ضرورة في الكتابة كما أنه ضرورة في الطب أو الهندسة أو غيرها من المعارف
والأعمال الإنسانية . وغاية ما أرجو أن تتضافر جهود الكتاب على اختلاف
نزعاتهم ، ليوجه هذا التضافر مجتمعنا الوجهة الصحيحة في تطوره ، وليكفل
له سرعة السير في معارج الرقي إلى أسمى درجات الحضارة ! . .

هدانا الله جميعاً سواء السبيل .

محمد حسين هيكل

الفصل الأول

ما أكبر الفرق بين القاهرة اليوم ، فى هذه العشرة السادسة من القرن العشرين ، وبينها أيام طفولتى وصباى فى العشرة الأولى من القرن نفسه ! . .
وما أكبر الفرق بين الحياة فى هذه المدينة العاصمة اليوم ، والحياة فيها إذ ذاك ! . .

أنا اليوم أسكن شارع الهرم على مقربة من نهايته عند فندق « مينا هاوس » وتقلنى السيارة إلى قلب المدينة فى عشر دقائق أو نحوها ، وذلك ما لم يكن يحلم به أحد فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . . لم يكن أحد يومئذ يسكن شارع الهرم ، بل كان النيل يفصل بين « القاهرة » وما على شاطئه المقابل لها من مزارع ممتدة إلى مدى النظر ، ولم تكن السيارات يومئذ وسيلة المواصلات ، بل لم تكن موجودة بالنسبة لسواد الناس ، ولست أذكر متى جاءت أول سيارة إلى مصر ! . . لكن السيارات بقيت بعض مظاهر الترف إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، أى إلى سنة ١٩٢٠ ، فكان طبيعياً أن تظل رقعة المدينة ضيقة مع وسائل مواصلاتها ، وأسرعها عربات الخيل (الحناطير) والحمير ! . . أما الترام الذى بدأ يسير فى السنوات الخمس الأخيرة من القرن الماضى ، فلم تكن شبكته قد امتدت الى ما وراء حدود المدينة كما صورتها ! . .

ثم إني لأذكر يوماً من سنة ١٩٠٩ ذهبت فيه مع أبي إلى ضاحية « مصر الجديدة » . وكانت في بدء إنشائها ، فلم يكن بها غير عدد قليل من المنازل . على مقربة من فندق « هليوبوليس بالاس » ويومئذ سمعت أبي يبدى عجبه : كيف تغامر الشركة البلجيكية القائمة بهذا المشروع ، باختيار تلك البقعة من الصحراء لبناء ضاحية فيها . لكن المصريين كانوا يومئذ يؤمنون بعبقورية الأجانب حتى ليكادون يضعونهم في مصاف الملائكة أو في مصاف الشياطين . ولذلك كانوا يحتاطون في الحكم على تصرفاتهم لاقتناعهم بأن هؤلاء الأجانب يدركون ما لا ندرك .

ولقد آمنت يومئذ بما أبداه أبي من عجب ؛ لأنه أبي ، ولأنتى رأيت الترام الأبيض الذي يصل « القاهرة » « بمصر الجديدة » ينساب بعد العباسية في صحراء خالية لا حياة فيها ، فلا ترى العين على جانبيه إلا الرمال الممتدة لتلامس السماء عند الأفق .

وكانت العباسية نهاية القاهرة من هذا الجانب . وكانت أشبه بضاحية يقطنها العسكريون الذين ألفوها في أثناء خدمتهم في الجيش ، لأنها تجاور ثكناته ، فلما انتهت خدمتهم فيه أقاموا مساكنهم هناك ، على أرض رخيصة الثمن ، لبعدها عن المدينة وعن مواصلاتها .

أما سرة المدينة فكان ميدان « العتبة الخضراء » ، منه كانت خطوط الترام تبدأ سيرها ، وفيه كانت تقوم المحكمة المختلطة ميدان النشاط القضائي بين الأجانب والمصريين في العاصمة وما حولها ، وعلى مقربة منه كانت تقوم حديقة الأزبكية ، التي كانت قبل مائة عام بركة ، ثم انقلبت حديقة

باسقة الشجر محاطة بأسوارها المنيعه . ومن ميدان العتبة الخضراء يمتد شارع عابدين المعروف إلى قصر الحكم عن شمالك ، وتقوم متاجر فخمة عن يمينك ، وينحدر شارع الموسيقى ذو الشهرة العالمية لأنه كان شريان النشاط التجارى بالمدينة .

وكان ميدان « العتبة الخضراء » والشوارع المتفرعة منه يفصل بين الأحياء المصرية والأحياء الأجنبية فى القاهرة ، فما امتد منه غرباً إلى النيل كان مستقر الأجانب . وما امتد شرقاً متجهاً إلى جبل المقطم كان مستقر المصريين والشرقيين وميدان نشاطهم ، لذلك كان شارع « الموسيقى » تختلط فيه العناصر الثلاثة : الشرقيون والأجانب والمصريون ، يزداد الأجانب فى جانبه القريب من العتبة، والمصريون فى جانبه المتصل بالسكة الجديدة المؤدية إلى أحياء سيدنا الحسين والأزهر وما وراءها إلى الجبل من أحياء وطنية صميمة ! . . . وكان سكان القاهرة يومئذ لا يبلغ عددهم الثلث بل الربع من سكانها اليوم .

كان طبيعياً ، وتلك حال القاهرة فى العشرة الأولى من هذا القرن ، ألا ترى فيها عمارات شاهقة كالصروح التى تراها اليوم ، وأن تتألف منازلها من طابقين أو ثلاثة على الأكثر ، وكانت منازل الذوات وأهل اليسار أشبه بالحصون ، ترتفع جدرانها الخارجية لتستر كل ما فيها وكل من فيها ، ولتستر السيدات المخدرات صاحبات العصمة بنوع خاص ، وبين هذه الجدران كان المنزل يتألف من (سلامك) متصل بالباب الخارجى خاص بالرجال ، ومن (حرمك) منفصل عنه هو مستقر السيدات ، ويغلب أن

تقوم أمام (الحرملك) حديقة صغيرة تنسم السيدات فيها الهواء ، بعيدات عن أعين الرجال .

وكان والدى من المصريين ذوى الجاه واليسار ، فكان البيت الذى ولدت به ونشأت فيه من هذا الطراز الذى وصفت ، وكان يقع على الميدان الذى يقوم فيه تمثال (لاطوغلى) ، وكان سلاملكه يقع إلى يمين الداخل من بوابته الكبيرة ، مكوناً من غرفة واسعة للجلوس ومن غرفة أصغر منها ، يدخل الإنسان إليهما من بهو فسيح أمامهما ، ويرتفع الكل عن الأرض بضع درجات ، وكان يفصل بين (السلاملك) و (الحرملك) جدار يزيد ارتفاعه على قامة الرجل ، ومن ورائه حديقة غرس فيها الجازون ، وقامت على جوانبها أحواض من أشجار الورد والأزهار المختلفة ، كما قامت فى أحد أركانها «جبلالية» صغيرة تجرى فيها المياه . كنت إبان طفولتى أقضى معظم وقتى فى هذه الحديقة ألعب مع اثنتين من بنات الجوارى اللاتى يعملن فى خدمة المنزل ، وكانت والدتى إذا أرادت دعوتى إلى داخل الدار بعثت إلى بإحدى هاتين الطفلتين أو بجمارية من الجوارى ، ولم تكن تنادىنى مخافة أن يسمع صوتها خادم من الرجال ، أو أحد معارف أى الجالسين معه فى (السلاملك) ، فصوت المرأة كان يومئذ عورة لا يجوز أن تداعب آذان الرجال .

وكانت والدتى من قريبات أوى ، وكان أهلها من الأعيان الذين يرون تعليم البنات القراءة والكتابة أمراً نكراً ، ولكنها كانت بارعة فى إدارة المنزل ، تحذق كل شئونه ، وكانت لذلك مدبرة فى غير شئ ، لا ترمى قرشاً فى غير موضعه ، ولا تضن على خادم ، رجلاً كان أو امرأة ، بما يحتاج إليه برغم

أنها لم تكن ترى الخدم الرجال أو مخاطبهم .

وكانت والدتي تستقبل السيدات من صديقاتها مساء الثلاثاء من كل أسبوع ، وفي هذا اليوم كان الخدم الرجال يتمتعون بإجازة من بعد الظهر ؛ وكان والدي يغادر المنزل فلا يبقى به رجل إلا بوابنا العجوز المتهدم ليستقبل السيدات عند دخولهن من البوابة وخروجهن منها ، وكنت أغتبط بمقدم يوم الثلاثاء لأنه كان أشبه بأيام العيد ، ولأن بعض المغنيات والراقصات من معارف والدتي كن يحضرن فيحين هذا الاجتماع النسائي ، وكنت قلما أحضر هذه الاجتماعات إلى نهايتها ، فقد كانت والدتي تبعث نى إلى الحديقة ألعب فيها ، أو إلى صديقة لى من الأطفال كان منزل أهلها قريباً منا ، لأن هذه الاجتماعات النسائية كان يدور فيها من الحديث مالا يحوز أن يسمعه الأطفال ، ذلك ما تيقنته من بعد حين كبرت وحين عرفت ما تتبادله النساء من أحاديث تافهة ، أساسها الغيبة التى لا تخلو من قصص ، يألّفها النساء ، ويرين عيباً أن يسمعها الأطفال أو يسمعها الفتيان .

وكنت أغتبط بالذهاب إلى منزل صديقتى الصغيرة التى تجاورنا لأن والدها كان رجلاً رقيقاً غاية الرقة ، وكان يحبها أعظم الحب ، وكان يحبنى لأننى صديقتها ، وكان ينتظرنى يوم الثلاثاء وقد أعد لى هدية من اللعب التى يغتبط بها أمتالى ، فكنت لتوقعى الهدية أسارع إلى تلبية والدتي والذهاب مع خادم من الجوارى أقضى مع صديقتى ووالدها سويعات هنيئة سعيدة .

ولما بلغت السابعة بعث نى والدى إلى المدرسة السنية ، ولم يكن بينها وبين دارنا ما يدعو إلى ركوب عربتنا ، لذلك كنت أذهب مع للبواب العجوز كل

تقديم

كانت أسرائى فى المصيف ، وكنت أتردد بين المصيف والقاهرة لبعض شئونى . وقد اعتدت فى ذلك العهد أن أنزل فندق « مينا هاوس » ، أستمتع من نوافذه بمنظر الهرم والصحراء ، ذلك المنظر البديع فى كل حين ، وهو الروعة والسكر فى الليالى القمرية ! . . ويزيده سحراً ما يسرى إلى نفسك معه من نسيم عذب ينسبك قىظ النهار ، ويتعث خيالك إلى تصور القرون الخالية ، حين كان أجدادنا يشيدون هذه الأهرام الضخمة ، لتكون مقراً للفرعون الذى أمر بتشيدها ، سكناً له فى حياته الآخرة ! . .

وكنت أستيقظ بكرة الصبح فأنزل إلى حديقة الفندق أجوس خلالها ، ثم أتناول طعام فطورى تحت شجرة من أشجارها الباسقة ، وكثيراً ما كنت أقضى فى هذه الحديقة سويحات الغروب ، ولم يكن نادراً أن ألقى بعض الأصدقاء الذين يجيئون إليها من العاصمة يتبنون فى رقة نسيمها وبعدها عن ضجة المدينة ما يعوضهم عن جهد نهارهم وقىظه ! . .

وإننى يوماً جالس قبل الغروب ، أتوقع أن أرى بعض هؤلاء الأصدقاء ، إذ رأيت فتاة شابة تقبل على متابطة حافظة أوراقها ، ثم تقف عندى وتسلم على باسمى . ولم يدهشنى أن عرفتنى ، وأنا لا أعرفها ؛ فكثيراً ما يقع ذلك لى ولأمثالى ، وكثيراً ما يقدم إلى بعض الشبان والشابات كراسات صغيرة ،

وفواكه ، وكان كثيرون من أهلنا الأعيان يترددون علينا هناك فيجدون من والدى مودة ولطفاً ، وتجد والدتى فى أحاديث قريباتنا الريفيات عن الزراعة وأحوالها لوناً من الحياة غير الذى ألفته فى العاصمة ، فتتسلى بهاتيك القريبات الودودات وبقصصهن ، وكنت أنا أجد فى الحديقة وفى الحقول القريبة ما يبعث إلى نفسى المسرة . فلما بلغت الثالثة عشرة من عمري ذكرت لى والدتى أن التقاليد تمنع خروجى نهائياً إلى ما وراء أسوار الحديقة ، وتمنع نزولى بها ساعة وجود العمال من الرجال فيها ، عند ذلك شعرت بأننى بدأت أدخل ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأننى موشكة متى عدت إلى القاهرة أن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع ، وألا أخرج إلى الطريق وحدى . كانت عمى تكثر التردد علينا فى أثناء مقامنا بالعزبة ، وكانت سيدة من أعيان الريف المحترمات فى وسطها ، المحافظات على كرامة الأسرة ومكانتها ، المتصدقات على الفقراء والمساكين من أهل قريتها . وكانت تكبر والدى عدة سنوات ، وكانت ورعة تقية قوية الإيمان بالله ورسوله ، شديدة المحافظة على فروض دينها ، تصلى الخمس فرضاً وستة ، وتصوم ثلاثة الأشهر : رجب وشعبان ورمضان . وكان والدى يحبها ويحترمها ، وكانت تغدق على من عطفها وحبها ما كنت أغتبط به ، وكان حبها الشديد إياى يرجع إلى أننى كنت ، برغم أننى تلميذة بالمدارس ، شديدة المحافظة على فروض دينى ، وكنت أتلو عليها من سور القرآن ما يثلج صدرها ، سواء أفهمته أم لم تفهمه . وكانت عمى تقضى معنا أحياناً أسابيع متعاقبة ، وكان لها غرام بأن تقص عليا صوراً من ماضى الحياة فى الريف ، هذا الماضى الذى تطور فى نظرها

تطوراً لا تطمئن إليه نفسها . وكانت تقص على من تلك الصور ما يثير عجبها كانت تذكر أن أسرتنا التي استأثرت بعمدية البلد ومشيختها ، ولا تزال تستأثر بهما ، كانت تعد بالعشرات وتقيم في منازل عدة ، وأن الفلاحين الذين كانوا يعملون في أراضينا كانوا يجتمعون كل مساء بعد صلاة المغرب في صحن الدار الكبيرة. يتناولون طعام العشاء الذي يطهى لعشراتهم في هذه الدار ، ثم لا يصد عن الطعام فقير وإن لم يكن يشتغل معهم في المزارع ، وأنهم جميعاً كانوا ينظرون إلى جدى لأبى على أنه والدهم جميعاً ، فلا يتزوج أحدهم إلا بعد مشورته ، ولا يختلف اثنان إلا احتكما إليه وقبله حكمه ، ولا تطلق امرأة من زوجها إلا بعد أن يقتنع بأن الصلح بين الزوجين غير مستطاع .

وكانت تذكر أن هذه الأبوة لم تكن مقصورة على أبناء الأسرة والعمال في مزارعنا ، بل كان أهل القرية جميعاً ينزلون على حكم جدى اقتناعاً منهم بعدالته ، وبأنه رجل صالح يخاف الله ولا يرضى بما يغضبه ، وأنه إلى ذلك رجل خير يعين البائس والمحتاج ويأنف أن يتدخل في شئون البلد غريب أو أن يستبد بأهله حاكم ظالم .

وإن نسيت الكثير مما قصت على إذ ذاك فلن أنسى تصويرها للقرية المصرية في النصف الثاني من القرن الماضي . فهذه الصورة لا تزال عالقة بذاكرتي ، وهي تجعلني أرى أهل تلك القرية يعيشون عيش القبائل في البادية برغم أنهم أهل زراعة ، ولم يكن هذا النوع من العيش عجيبياً في ذلك العهد . فقد كانت كل قرية تعيش في عزلة عن غيرها من سائر القرى ، لأن المواصلات السريعة لم تكن قد ابتكرت ، وكان أهلها لا يكادون يسمعون شيئاً عن حياة

المدن ، إلا ما اتصل منها بعقائدهم وإيمانهم الراسخ بالمشايخ والأسياذ ،
وتطلّعهم لزيارة هؤلاء الأسياذ للتبرك بهم ، ولم يكن ذلك مستطاعاً لغير
ذوى اليسار ومن يلودون بهم ، أما سائر أهل القرية فكانوا يمضون حياتهم
كادحين في غير ملل ، مؤمنين بأن الله قسم الحظوظ ، وأنا لن يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا ، هو مولانا عليه توكلنا وعليه فليتوكل المؤمنون .

كنت أطيل الاستماع لعمتي وأطرب لحديثها ، وكنت أشد اغتباطاً بما تقع
عليه عيني من مناظر هذا الريف الممتعة حين أتردد عليه غير مرة خلال السنة ،
ولم يكن جمال الريف هو وحده الذى يأخذ بناظرى ، بل كان لى من الطمانينة
إلى أهله حظ عظيم ، وكيف لا أطمئن إليهم وأنا أرى من مظاهروهم وتقواهم
ما يثير إعجابى . لقد كنت أخرج مع والدى أحياناً بعد الغروب فأرى أحدهم
يقوم لصلاة العشاء فى مصلى ساذج مفروش بالحلفاء على حافة التربة بعيداً
عن الأعين فيهترئ لذلك قلبي ، وتتأثر بهذا المنظر كل مشاعرى . فهذا الرجل
المنفرد وسط لا نهايات المزارع فى هذه الساعة من المساء يدعوربه ويستغفره ،
كان مثال الورع فى نظرى ، ولم يدر بخلدى فى تلك الأيام من طفولتى وبدء
صباى ما عساه يدور برأسه فى أثناء صلاته أو بعدها من أفكار قد لا يرضى الله
عنها ، بل كنت أومن بأنه فى وحدته قريب من ربه ، وأن حرصه على فروض
دينه خير شاهد على نقاء قلبه وصفاء سريرته .

وعدنا إلى القاهرة فى أخريات الصيف من تلك السنة وأنا موشكة أن أدخل
ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع .
وإني لأذكر اليوم فى ابتسامة لاتخلو من مرارة ما كان يدور برأسى الطفل إذ ذاك

من غبطة لهذا الانتقال من حرية الطفولة إلى قيود المرأة ، هذه الغبطة التي لا تفسير لها إلا التطلع إلى المستقبل الذي كتب على جنسنا ، والذي لا نعرف غيره ولا مفر لنا منه ، والذي تنتظره كل فتاة ، أو على الأقل كانت تنتظره فتاة ذلك العهد وترى فيه أحلام السعادة ، ويرى أهلها فيه أحلام الطمأنينة إلى الحياة ، أقصد الزواج . أوّاه لو علمت كل فتاة ، وآه لو علم أهلها ما يخفي الغيب !! . . .

لا أريد أن أسبق الحوادث أو أعبر عما شعرت به في لحظة غير اللحظة التي أكتب عنها ، لقد كنت يوم دخلنا القاهرة في ذلك العام سعيدة تفيض عنى المسرة . . لقد كنت أحب من الطفولة إلى الصبا في صحة ونضارة ، وكانت تحيط بي كل أسباب النعمة على ما كان يتصورها ذلك الجيل . كان أبواي يسبقاني إلى رغباتي . وكنت أجد من حنانهما وعطفهما وبرهما ما يسبغ على الحياة خير ألوانها ، وما يجعلني أشعر كأني في جنة الخلد ، وكان تقدير أساتذتي في المدرسة وتقدمي فيها يزيدني نعيماً وغبطة .

وكان الأمل الباسم الذي يفتح أجنحته الأثيرية للشباب الموشك أن يفتح كما تفتح الأزهار ينشر أمام خيالي الساذج ألواناً من الهناء لم أعرف لها في الحقيقة مثالا ، وكان مرجع رضاي يومئذ عن نفسي إلى ما عرفت به بين زميلاتي في المدرسة من حسن الخلق لشدة محافظتي على صلواتي ، حتى كان بعض معلماتي يسميني « رضوان الجنة » نسبة إلى حارس جنة الخلد ، وذلك لشدة عنايتي بمصلي المدرسة .

وبعد أسابيع من استقرارنا في العاصمة فكرت والدتي في أن تفصل لي حبرة

ألبسها وألبس البرقع معها ، ولهذا المناسبة جعلت أذهب معها إلى المحال التجارية لتختار القماش المناسب وإلى الخياطة لأفصل الحبرة ، ويومئذ أحسست أن شعوراً جديداً يخالط نفسى ، شعور الأنوثة التى تسرى فى عروقى وأعصابى ، كما يسرى ماء الحياة فى الشجر فيزيده رواء ، ويزيد خضرة أغصانه بهجة وأكمام أزهاره تفتحاً .

ولقد كنت إذ ذاك اعنى بملاحظة السيدات المبرعات وما يسبغه عليهن الحجاب من جمال يزيد عيونهن النجل روعة وبراعة ، وكنت نحيفة القوام معتدلة ، وكانت والدتى لا تفتأ تلفتنى إلى هاتيك السيدات الممثلات يتحدث جسمهن البض عن معانى النعمة وتكاد تؤنبنى لنحافتى ، بل لقد كانت تذكرلى أن من هاتيك السيدات من تشعر بنحافة جانب من جسمها فتطالب « الخياطة » بأن تضع تحت الحبرة أسلاكاً أو تحشوها فتستر هذه النحافة ، مع ذلك بدأت أشعر أن فى عيني من الجاذبية ما يغنينى عن هذا الجمال المصطنع ، وإن لم أجروء على أن أذكر شيئاً من ذلك لوالدى .

ولبست حبرتى وبرقعى وانتعلت حذاءً عالى الكعب وأخذت أخرج مع والدتى إلى الأسواق وفى بعض زياراتها لصديقاتها فإذا هذا الشعور بالأنوثة يزداد فى نفسى ، وإذا حيويته تسرع إلى النماء أضعاف نموها قبل أن ألبس الحبرة والبرقع ، ولعل ما شعرت به من اختلاف نظرة الرجال إلى فى أثناء سيرى مع والدتى عما كانت عليه قبل هذا الحجاب قد كان سبباً فى هذا التزايد السريع فى نمو شعورى .

وأدى ذلك بى إلى مزيد من عنايتى بهندامى ، فكنت أقضى أمام المراة

زمناً أصلح في أثائه من شأني وألاحظ في أثائه أدق التفاصيل في مظهرى .
فكنت أعنى حتى بالشعرات التي تخرج من تحت رأس الملاية ونظامها .
عنايتى بموضع البرقع من أنفى حتى يزيد في جاذبية نظراتى ، ثم أعنى بانسدال
الملاية على جسمى حتى تم في دقة عن ميول قوامى وبارع اعتداله .

ولم يزعجنى حديث والدتى عن نحافتى . فقد كنت أقرأ بعض المجلات
والقصص الإنجليزية ، فأرى فيها تصويراً للسيدات والأوانس النحيفات يشهد
بجمالهن ويشير الإعجاب بهن ، وكنت أقرأ مثل ذلك فيما ترجمه هذه المجلات
عن الأدب الفرنسى . ليست النحافة إذن عيباً لذاتها ، وإن أثار الجسم الناعم
البض من المعانى المألوفة في مصر ما لم يكن يدور إذ ذاك بخاطرى . ثم إننى رأيت
في هذه المجلات والقصص حديثاً عن جاذبية المرأة وأنها ترجع إلى رقها ودمائة
طبعها وحسن حديثها ، فأغراني ذلك بالعناية بهذه النواحي من أنوثتى أكثر من
عنايتى بما أقاوم به نحافتى .

على أن شيئاً من ذلك كله لم يصرفنى عن صلواتى احتفاظاً بمكانتى بين
زميلاتى وأساتذتى في المدرسة ، وإرضاء لشعور داخلى كان يتردد في أعماق
وجدانى بأن الزينة لا تخالف التقوى ، وكم اغتبطت حين سمعت الشيخ الذى
يتلو القرآن كل صباح جالساً في غرفة الانتظار بالطابق الأسفل من منزلنا
يرتل : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، فقد ثبتت هذه الآية شعورى
الداخلى واطمأن لسماعتها وجدانى فازددت عناية بزيئى كما ازددت حرصاً
على أداء فروض الله ! . .

وازددت على الزمن شعوراً بأن القراءة تتم الزينة ، صحيح أنها ليست

الزينة المادية التي تلفت النظر إلى أشخاصنا حين مسيرنا في الأسواق ودخولنا على صديقات والدتي ، بل هي الزينة المعنوية التي تزيد نظراتنا ذكاء وجاذبيتنا فعلا في النفوس ، لذلك أكيبت على الكتب والمجلات التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة ، أو أشتريها من المكتبات ، وشعرت لهذا الإكباب بلذة قوية كانت تأخذني عن نفسي وتصرفني عن كل ما سواها ، وإن جلبت عليّ في كثير من الأحيان لوم والدتي خوفاً على عيني ، وإشفاقاً منها أن تصرفني القراءة عن الاضطلاع بواجبات الفتاة والمرأة في العناية بأمور المنزل وحسن تديره .

وخشي والدي حين رأى إكبابي على قراءة الكتب والمجلات الإنجليزية أن يضر ذلك بلغتي العربية وثقافتي الدينية ، فاختار لي مدرساً شيخاً كانت له به ثقة ، وكثيراً ما رأيته يصحبه ، بل لقد حضر إلى العزبة في أثناء مقامنا بها في الصيف مما دلني على أن له على أبي دالة تزيد في ثقته به .

وكان هذا الشيخ على حظ غير قليل من الذكاء ، درس أول أمره في الأزهر ، ثم انتقل إلى دار العلوم فوجد اللغة العربية بها ، وجعل همه أن يطلع على ما يظهر من كتب مؤلفة أو مترجمة إلى العربية ليجارى العصر ولا يقبع في زوايا الماضي على حد تعبيره . فلما بدأ تدريسه لي لم يلبث حين وقف على مبلغ علمي أن اختار لي كتاب « عيسى بن هشام » للمويلحي ، وكتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، وكتاب « التربية » الذي ترجمه محمد السباعي عن هيربرت سبنسر .

وقرأت جانباً من هذه الكتب الثلاثة معه وسمعت إليه يفسر ما رآه

غامضاً على من ألفاظها وعباراتها فأغراني ذلك بالمضى في قراءتها في أثناء
وحدتي ، وتفتحت لذلك أمامي آفاق جديدة يقصر دونها الكثيرات من
أمثالي . بل يقصر دونها كثيرون من رجال ذلك الوقت ونسائه ، وقد كنت
أقف وجلة أحياناً أمام ما أقرأ ، لأنه يخالف مألوف الحياة في مصر إذ ذاك ،
وهو مع ذلك مكتوب بلغتنا العربية ، فيجب أن نفكر فيه ، وألا نعتبر
قراءته مجرد تسلية لقتل الوقت ، ويجب أن ننتهي من هذا التفكير إلى رأى .
وكنت أسأل أستاذي الشيخ أحياناً فيما يستوقفني ، فلا يزيد على أن يتسم
ثم يقول :

الزمن يا فتاتي كفيل بإنضاج رأبك في كل ما تقرئين .

ولقد أخذني العجب يوماً لحوار جرى بين والدي وأستاذي حسبت حين
سمعته أن الشيخ يبالغ فيما يسميه « عصريته » . فقد ذكر والدي أن شاباً من
أبناء أحد أصدقائه تزوج من أجنبية يهودية فكان جواب الشيخ : وماذا
في ذاك ؟ ثم تطور الحوار إلى جدل ديني كان الشيخ فيه دون والدي تعصباً
لعقيدته ، فقد رأى والدي أن زواج اليهودية من المسلم يتيح لها الفرصة لتقف
من زوجها أو من أهله أو من خلطائه على حقيقة الإسلام ، فإذا هي لم
تعتنقه من بعد كانت مكابرة ، وكان مصيرها إلى الجحيم . أما الشيخ فرأى
أما إذا لم تقتنع بحجة زوجها أو أهله أو خلطائه وعملت صالحاً فلا جناح
عليها أن تقيم على دينها ، وأن يغفر الله لها . ويدخلها الجنة .

كانت تدور أحاديث من هذا القبيل بين الرجلين . وكان الجدل
بيهما يبلغ الحدة . ثم لا يغير ذلك من ثقة والدي بالشيخ ، واطمئنانه

لحسن إيمانه ، فإذا نودى للصلاة من مثذنة المسجد القريب من دارنا ، وقام الشيخ للصلاة ، اتم به والدى وقضى فرضه وراءه .
كنت أسمع وأرى ما يحدث من مثل ذلك فلا أقف طويلا عنده .
ومن كان في مثل سنى يومذاك لا يقف طويلا عند شيء ، بل تمر أمامه الأحداث والآراء ، فيلم بها إلمامات سريعة تبقىها في ذاكرته لتنضم على الأيام لأشباهها ثم تكون موضع تفكير وعبرة من بعد ، حين نصبح قادرين على أن نبدى حكماً ذاتياً على ما نرى ونسمع ، وكذلك بقيت ذاكرتى تختزن ما استطاعت اختزانه ، حتى إذا آن الأوان تفاعل ذلك كله في نفسى ، وكوّن وجودى الذاتى وكيانى المعنوى .

تعاقبت الأيام والأسابيع والشهور ، وانقضت السنة الدراسية ، واحتملنا قيظ العاصمة أسابيع من أوائل الصيف ، ثم ذهبنا إلى العزبة وبدأ أقاربنا يزوروننا ، وأقبلت عمى وعلى رأسها طرحة بيضاء على خلاف ما ألفت من لباس رأسها فى الأعوام الماضية ، إذ كانت طرحتها سوداء ؛ ذلك لأنها سافرت إلى الحجاز وأدت فريضة الحج واستبقت الطرحة البيضاء من لباس إحرامها ، ولم يكن حديثها ذلك الصيف عن ماضى الحياة فى قرينتنا العزيزة ، بل كان كله عن الحج والحجاز والكعبة ومسجد المدينة والمقصورة النبوية . وكانت تقص ذلك فى تفصيل يشهد بطمأنينة نفسها إليه واستراحة قلبها له ، وكنت أشعر فى بعض ما تقصه بأنه أدنى إلى الأساطير ، لكنها كانت ترويه فى حرارة إيمان تنقل صداه إلى قلب والدتى فلا تفتأ تكرر :

يا بخت من زار النبى ! . .

ولو أتتني استطعت يومئذ أن أنقل كل ما روتني عن حجتها لتألف
منه كتاب شائق ، فقد كان حديثها عن هذا الحج يتصل يوماً بعد يوم
وكأنها شهر زاد في ألف ليلة وليلة . لكنني كنت في شغل بقراءة مجلاتي
وقصصى الإنجليزية ومراجعة عيسى بن هشام وتحرير المرأة والترجمة ، لأن
أستاذي الشيخ أخبرني قبيل سفرنا أنه سيزورنا بالعزبة بعد شهر من مقامنا ،
ويسألني عما قرأته .

وجاء الشيخ إلى العزبة في الشهر الأخير من أشهر الصيف ، وكنت
في فترة هذه الإجازة المدرسية قد أسرعت في النمو وبدأ تكويني النسوي برعم
نحافتي ، وشعرت في نظراتي بمجاذبية قوية كنت أعجب بها حين أقف أمام
المرأة أصلح من هندامي . ترى أكان هذا هو السبب في أن والدي لم يكن
يذرنى وحدي مع الشيخ ساعة تدريسه لي ؟ ! . . فقد لاحظت أنه كان
يحضر دروسي جميعاً على غير عادته من قبل ، وما أحسبه خالجه شبهة
في خلوتي مع الشيخ ساعة الدرس ، أو خالطت نفسه ريبة من أمره ،
فقد كانت ثقته بورعه فوق كل شبهة ، وإنما أحسبه خشي قاله الناس ،
وقالة النساء أكثر من قاله الرجال . فقد علمتني السنون من بعد أن الناس في
مصر ، من أهل المدن كانوا أو من أهل الريف ، يسرعون إلى الريبة في غير
موضع الريبة ، ويتناقلون من الأحاديث الكاذبة في أمر غيرهم ما يسرعون
إلى تصديقه . هذا في اعتقادي هو ما دعا والدي لمصاحبة الشيخ ساعات
تدريسه لي ، وبخاصة بعد أن رأى منذ كنا بالقاهرة عنايتي بهذه الدروس
واستفادتي منها .

وجاءت موليّات الصيف وآن لنا أن نعود إلى العاصمة ، وإننا لناخذ أهبتنا للعودة ، إذ شعرت والدتي عرض ألزمها فراشها ، وتولّت عمّتي الحاجة العناية بها ، فكأنت تلازمها ليلها ونهارها ، وكانت تتلو وهي في مجلسها إلى جانبها كل ما عرفت من رقى وتعاويد ، وكانت تدبر البخور على رأسها تطرد به حسد الحاسد . لكن المرض كان يشتد يوماً بعد يوم . واستدعى والدى الطبيب من أقرب مدينة فلما فحص والدتي أشار بضرورة إسراعنا إلى القاهرة أو بإدخالها مستشفى المدينة القريب منا ، وآثر والدى أن نعود إلى القاهرة فعدنا إليها مسرعين .

وجاء الطبيب الذى اعتادت والدتي أن تعرض نفسها عليه كلما مرضت ، ففحص وأطال الفحص ودقق فيه ، ثم كتب تذكرة دوائه ، ووعد أن يعود المريضة بعد ثلاثة أيام ، وخرج والدى معه من غرفة المريضة ووفقاً هنية يتها مسان . وبعد أن ودعه عاد يؤكد لوالدتي أن الأمر بسيط ، ولن يمضى أسبوع حتى تكون قد استردت عافيتها ، ورأيت على وجه والدتي سيم الألم ، وإن ردت إليها هذه الكلمات من الطمأنينة ما خفف بعض وقعه .

وفي المساء جاء والدى بعد أن خلع ملابسه ، وتمطى على « كنبه » تواجه السرير الذى رقدت والدتي فيه ، بعد أن دعا الخادم وأمرها ففرشت عليها ملاءة ، ووضعت على طرفها الملاصق للحائط مخدة نوم . وعجبت لما رأيت من ذلك ، فلم أر والدى من قبل ينام على هذه « الكنبه » قط ، والحت عليه والدتي أن ينام على السرير في الغرفة المجاورة لغرفتها فأنى قائلاً :

لقد نمت أنت على هذه « الكنبه » غير مرة حين مرضى ، فلا أقل من

أن أؤدى بعض ما على من دين لك ، وإن كنت موقناً أنني لن أؤدى إلا القليل ،
مقابل ما غمرتني به دائماً من رقة وود خالص .

وغادرت الغرفة وقد زادني ما رأيت وسمعت إعجاباً بأبي وبهذا الحب
المتبادل وتمنيت أن أسعد في الحياة بمثله .

وانقضت الأيام الثلاثة التي تحدث عنها الطبيب وشكوى والدتي من
علتها لا تنقص ، بل تزيد ، وجاء الطبيب في موعده وأعاد الفحص وخرج
بعده مع والدي ، وفي صباح الغد علمت أنه سيحضر ومعه طبيبان آخران
من كبار الأطباء ، لإجراء « كونسلتو » يشخصون بعده المرض ويصفون
علاجه . وجاء الأطباء الثلاثة بعد الظهر من ذلك اليوم ، وفحصوا المريضة
وما عولجت به من دواء ، ثم تبادلوا الرأي ، وكتبوا تذكرة جديدة .

كانت والدتي تذكر للأطباء الثلاثة ، في أثناء الفحص ، ما يتابها الوقت
بعد الوقت من آلام مبرحة ، وتنظر إليهم نظرة رجاء واستعطاف لعلهم
يخففون آلامها ويبرئونها من علتها ، وكان الأطباء ينظر بعضهم إلى بعض لدى
سماع حديثها ثم يقول كبيرهم العبارات المطمئنة المألوفة ، وكأنه يتلو ورداً من
الأوراد أو دعاء من الأدعية التي تتلوها عمى الحاجة ، فلا يفتر ثغره عن
ابتسامة ولا يلمع في عينيه معنى الرجاء الذي طمعت والدتي في أن ترى
بريقه ، فلما انصرفوا وودعهم والدي وعاد إلى غرفة المريضة نظرت إليه
نظرة استفهام فقال :

إنهم يستحسنون نقلك إلى المستشفى زيادة في العناية بك . وأجابته
والدتي مترعجة :



ایک سال پہلے وہ تیرا ہی مرید بن گیا تھا۔

المستشفى ؟! . . . كلا ، كل شيء إلا المستشفى ، ورد كان قد كتب لى أن أموت . فخير لى أن أموت على فراشى هذا ، أما إن كان الله قد كتب لى الشفاء ، فلن يكون فى المستشفى شفائى .

ورأيت فى عينيها دموع تترقق . فأخذ والدى يسكن من روعها ويدكر لها أنه كان على يقين من أنها لن تقبل الذهاب إلى المستشفى . وأنه ذكر ذلك للأطباء ، ولقد رأى أن يعيد على مسمعها ما قالوا ، وأنهم يرون الحير فى أن تكون فى عناية ممرضة ورقبة طيب ، ثم إن والدى أضف :

وقد ذكرت لهم أنك تستطيع أن ندعو الممرضة لتكون لى جانبك هذا . وأن طبيبك يستطيع أن يعودك كل يوم فى الصباح وفى المساء .

وجف الدمع فى عين والدى ، ونظرت إلى والدى نظرة عرفان وبدت على ثعرها المتألم شبه ابتسامة . لكنها قالت :

لا ضرورة للممرضة ، فانا لا أريد أن تطلع أجنبية على دحائل بيتنا . وإذا أمكن أن تحضر عمتى الحاجة إلى هما ففيها البركة ، وفى يدها شفاء . وكانت والدى تحب عمتى حقاً . وتبادلها عمتى هذا الحب الصادق ،

وقد رأيتها تحضر صبح الغد من هذا الحديث ، وتدخل على والدى نفسها وتكررها لدعوات بالشفاء . وفى لحظات خلعت ملابس السفر ، وجاءت وعلى رأسها طرحتها البيضاء . وجلست إلى جانب والدى ، وأخذت تنلو من الأدعية ما اطمأنت له المريضة وشعرت لسماعه براحة نفسية ، لعل سببها أنه أزال ما تبدى لناظرهم من شبح المستشفى ومظن الممرضة

وقد قامت عمتى بمهمة التمريض بإخلاص وإتقان ، لما بينها وبين

والدتي من الود الصادق والمحبة الخالصة ، فلم تكن المريضة ترغب في شيء إلا سبقت إلى تنفيذ إرادتها بهمة لا تعرف الكلال ، وكم من ليلة باتت إلى جانبها ساهرة تقص عليها من أخبار القرية أو من أخبار الحجاز ما تسلي به المريضة عن آلام كانت مبرحة في بعض الأحيان ، وكثيراً ما سمعت العمّة العزيزة تمنّيها بعد أن يمن الله عليها بالشفاء أن تؤدي فريضة الحج ، وتزور القبر النبوي وتتمتع بلمس شبّاكه ولثمه. ، والدتي تسمع لذلك فيعاود نظراتها أملٌ يرد إليها الحياة بعد ذبولها ، ولا أحسب ممرضة كانت تستطيع - وإن بلغت من الدقة في عملها أعظم مبلغ - أن تخدم المريضة ، بخير مما كانت تخدمها الصديقة الوفيّة الصادقة الود .

وكان الطبيب يعود والدتي كل يوم ، بل كان يعودها مرتين أحياناً ، وكان والدي يقف إلى جانبه في أثناء هذه العيادة فإذا فرغ منها وطمأن المريضة بأن صحتها في تقدم خرج مع والدي ووقفا برهة يتحدثان ، وقد لاحظت غير مرة أن أسارير والدي خلال هذا الحديث كانت أدنى إلى الانقباض ، وأنه كان يودع الطبيب إلى الباب ثم لا يعود إلا بعد زمن لعله كان يحاول فيه أن يدخل غرفة المريضة بوجه تبدو عليه ملامح الطمأنينة ولا ينم عن شيء من اليأس والألم ! . .

ولم يكن شيء يبعث الطمأنينة إلى نفس والدتي ما تبعثها إليه صلوات عمّي الحاجة ودعواتها الصادرة من القلب ، فقد كانت تؤدي الفرائض لأوقاتها على مقربة من سرير والدتي ، وكنت كثيراً ما أأتم بها ، فإذا ما قضيت الصلاة رفعت كفيها ضارعة إلى الله أن يشي المريضة لتتمتع بشبابها وتفرح

بابتها ، وكانت نجواها في أثناء هذه الدعوات تخالطها حرارة الإيمان الصادق والرجاء العميق في وجه الله أن يستجيب لها .

برغم هذه الدعوات ، وبرغم العناية الصادقة ، شعرت والدتي في إحدى الليالي بألم ممرض لا قبل لها به ، وأسرت عمتي فأيقظت أخاها من نومه ، وجاء والدي مسرعاً يحسب أنه يستطيع أن يخفف من هذا الألم بما يضيفه على زوجه من محبة وعطف وحنان . لكن الألم كان قد بلغ بالمريضة ، فكانت تتأوه وترسل من أعماق صدرها أنات تذيب الجمار . وأسرع والدي إلى الطبيب في منزله فكان كل ما استطاعه أن حقق المريضة بالمورفين تسكيناً لحدة الألم ، وأن أشار بضرورة استدعاء زميليه اللذين شاركاه في (الكونسلتو) وفي تقرير العلاج ، وهدأت حقنة المورفين من شدة الألم وأغمضت والدتي عينيها في غفوة ذكرت لي عمتي من بعد أنهم كانوا يرجون أن تنام بعدها نوماً هادئاً . لكن الصباح تنفس عن معاودة الألم للمريضة ، ولما جاء الأطباء وفحصوا المريضة كانت سيماهم تنطق بمعاني اليأس ، ولا يبدو في نظرات بعضهم لبعض ، شيء من الأمل أو الرجاء ، وكتبوا تذكرة دواء جديدة ، وودعهم والدي منصرفين .

أفأستطيع اليوم أن أصف حالي في أثناء مرض والدتي ؟ . . لقد انقضى الآن على ذلك الزمن ما يزيد على ثلاثين سنة ، ولا أزال مع هذا أذكر كيف كنت في ذلك الظرف القاسي أدور في أنحاء الدار ، كأني الروح الحائر لا يعرف لنفسه مستقراً ، ثم أرتد إلى غرفة المريضة فإذا سمعتها تتأوه أو تنهض اضطرب قلبي في صدري ، وشعرت بالألم يحز في كبدي فارتسم ذلك على

قسما وجهى ثم لم يغنى ما كان يسبغه والدى على من عظيم عطفه وسابغ
حنانه . بل لقد كنت أشعر حين يزيد به الحنان عن مألوف عطفه ، كأننى
أصبحت يتيمة الأم ، وكأنه يريد أن يكون أبى وأمى فى وقت واحد ، وكانت
عمى تحاول جاهدة أن تقنعنى بأن والدتى والله ألف حمد وشكر تتقدم نحو
العافية ، وتذكرلى أنها رأت رؤيا تفسرها أن المريضة ستعود إلى مثل صحتها
فى خير أيام عافيتها ، وأن رؤياها لا تكذب أبداً ، فأطمئن لحديثها بعض
الشيء ، ثم لا ألبث حين أسمع أنات الألم تكظمها المريضة جهدها ، كلما
رأتنى مقبلة عليها ، أن تذهب طمأنينتى وأشعر فى دخيلة نفسى وأعماق
وجدانى بأننى مقبلة على أمر جلل ، فتزداد روحى حيرة ويزيدنى الحنان
والعطف الأبوى وحشة على وحشة .

وتشتد مخاوفى أحيانا وأكاد أسائل نفسى : أأذنبت فى حق والدتى يوماً
حتى أجتوأمامها وأطلب عفوها ومغفرتها ؟ . . بل لقد اعتزمت ذلك يوماً
ودخلت عليها أريد أن أقبل وجهها ويديها وقدميها ، وأسألها العفو عما لعله
سلف منى ، لكنها إذ رأتنى أتخطى الباب نحوها أشارت إلى إشارة فهمت
منها أنها تريد أن تطالعنى بشيء أو تسرئى أمراً ، فلما دنوت منها أجلستنى على
السريـر إلى جانبها ، وأخذت تقبلنى وتبكي ، وكأنها هى المذنبـة تطلب الصفح ،
ولم أملك عبراتى فوضعت خدى على خدها ، واختلط دمعى بدمعها ولم تنبس
أيتنا بينت شفة .

وإننا لكذلك إذ دخل علينا والدى ، ورأى ما نحن فيه ، فانهمرت من مآقيه
عبرات جعل يحاول حبسها ، ثم تقدم نحونا وقد اختنق صوته وأخذ يقول لزوجته :

« آمنى بالله يا حبيبتى ، إنه الرؤوف الرحيم ، وعمما قريب سيشفيك
فلا ترهق نفسك ولا ترهق هذه الصبية العزيزة بما لا طاقة لها باحتماله ،
ودفعتنى أُمى عنها دفعاً رقيقاً لدى سماعها هذه الكلمات ، فخرجت من
الغرفة مسرعة إلى غرفتى وحبست نفسى ، وأرسلت العنان لدموعى . وبعد
هنية رأيت والدى يقبل علىّ . وحمرة عينيه تشهد بأنه مسحها ساعة دخوله
عندى ، وما زال يتلطف بى حتى خرجت معه من الغرفة إلى البهو . وهناك
جلسنا ندعو للمريضة بعاجل الشفاء .

لكن رؤيا عمتى والدعوات الصادقة الصادرة من قلوبنا جميعاً لم تكن
لتغير حكم القدر ، فلكل أجل كتاب ، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون .

فقد خرجت مطلع الفجر يوماً من غرفتى ، فإذا عمتى جالسة على باب
غرفة والدتى ، وإذا هى لا تكاد ترانى حتى تأخذنى إلى صدرها وقد هزه
البكاء المختنق وتقبلنى وتقول :

الأمر لله يا بنيتى ، والله يحفظ لك أباك . ثم إنها لم تطق كتمان بكائها
فعلا صوتها به . وبكيت أنا كذلك وارتفع صوتانا ، وأقبل أبى وعليه ثياب
النوم ما يزال وأخذ يسكن من ألمى ، وكل ملامحه تدل على أنه لا يقل ألماً
عنى ، وعبراته تحدث عن عميق حزنه ، ولما تنفس الصبح جاء الخدم ،
وهن يتوقعن المصاب الفاجع ، فلما عرفنه ارتفعت أصواتهن بالصراخ
المزعج ، وبعد سويعة أقبلت جاراتنا ، وانقلب البيت مناحة تدوى أصواتها
فيما حولنا من الأرجاء .

وتركنا والدى إلى غرفته وهو يدق رأسه كأنما خرج الألم به عن صوابه ،
وأقبل صديق له من جيراننا سمع الصريخ ، وكان يتردد من قبل على والدى
يسأل عن أخبار زوجته ، فلما رآه والدى ناداه قائلاً :

أرأيت يا أخى خراب بيتى ، وأخذ الصديق يسكن من لوعة صديقه
ويذكر له أن أهله ومعارفه سيحضرون له عما قريب ، فلا مفر له ، برغم
هول المصائب ، من أن يتجمل بالصبر حين يتقبل العزاء ! . . وذهب الرجلان
إلى السلامك بعد أن ذهب والدى إلى غرفته ، وارتدى ملابسه محاولاً جهد
طاقته أن يبدو فى وقاره الذى اشتهر به ، وعرف عنه ! . .

ودفنت أمى فى مشهد مهيب وتقضت ليالى المأتم الثلاث ، وانصرف
المعزون والمعزيات ، وأقفر بيتنا من روحه ، فكنت أرى والدى يتنقل فيه من
غرفة إلى غرفة ، فى حين كانت عمى تدبر شئونه وتبذل الجهد لراحة أخيها
وراحتى ، وكـم رأيت أبى فى تطوافه من غرفة إلى غرفة يدق يداً بيد . أو يسير
شارد الذهن ، مشتت اللب كأنما أذهله الخطب الذى نزل بنا ! أو كأنما
يفكر فى أمر خطير . وكنت كلما رأيته على هذه الحال ، ازدادت شعوراً
بفداحة اليتـم ، الذى أصابنى فحرمنى حنان الأم ، وأنا أشد ما أكون حاجة إليه .
وكان والدى يحاول ما استطاع أن يخفف لوعتى ، غير متكلف فى محاولاته إلا
ما يمليه عليه وجدانه ، وتفيض به عاطفة الأبوة ، وقد اختص بها الابنة
الوحيدة التى رزقها منذ تزوج . وكنت ألمح فى عينيه حين يحدثنى أنه
لم يبق له فى الحياة أمل غيرى ، وكنت أتمنى لذلك لو استطعت أن أدخل
إلى قلبه من السعادة ما كانت أمى تدخله على هذا القلب العطوف الرقيق .

ولم يجر في خاطري أن أبى يمكن أن يتزوج بعد موت أمى ، وإننى لنى براءة صباى إذ طرق سمى حديث يتبادل الخدم فيما بينهن وهن لا يرينى . . حديث أفرغنى ولم أكد أصدقه . . قالت إحداهن :

إنها سمعت عمى تتحدث إلى أخيها بأنه لا يزال فى فتوة رجولته ، وأن بيته لا يصلح إلا أن يتزوج ، وأن والدى أظهر بادية الرأى عدم الرضا إكراماً لذكرى المرحومة أمى ، بعد الذى كان بينهما من صادق الحب ، فكان جواب أخته أنها كانت تحب المتوفاة كما كان يحبها ، وأنها حزنت لموتها مثل حزنه .

لكن الله فى تصاريفه أحكاماً لا يدركها البشر . وإنا إذا وجب علينا الوفاء لمن نحب فذلك واجب ما عاش المحبوب . أما إذا اختاره الله إلى جواره فقد سقط عنا هذا التكليف لأن قيمة الوفاء فى تبادله ، فإذا لم يكن متبادلاً فلا مسوغ لوجوده ، والأموات يحلوننا بموتهم من واجب الوفاء لهم . ثم إن عمى ضربت على الوتر الحساس من قلب أخيها ، فقالت :

ولعل الله قد كتب لك ذرية صالحة من البنين يحفظون اسمك ويفتحون بيتك ، والزواج سبيلك إلى هذه الذرية ، وابتتك هذه لا تستطيع أن تعيش وحدها فى هذا البيت الفسيح ، فهى بحاجة إلى من تحسن توجيهها وتقوم بشأنك وشأنها .

وسمع والدى هذا الكلام من عمى فأطرق قليلاً ثم خرج بالصمت عن كل جواب ؛ وسمعت أنا هذا الكلام من خادمت البيت فأخرجنى من أحلامى السوداء حزناً على أمى إلى مخاوف أشد سواداً ؛ إشفافاً من المستقبل الذى يفر

فاه لبيتلغنى في جحيمة . لكننى لم أكن أستطيع أن أقول شيئاً أو أنبس بكلمة ، وكل الذى فعلت أن منيت نفسى أن تكون إطراقة أبى شاهداً بعدم رضاه عما سمعه من أخته ، ولقد بدأت أشعر لهذه العمة بالبغض والكرهية ، وبدأت أفر من كل مكان أراها فيه ، فإذا جلست فى بهو الطابق الأول أو نزلت إلى الطابق الأرضى أسرع إلى الحديقة ألتمس فيها الوحدة ، وإذا نزلت إلى الحديقة ، وقلما كانت تفعل ، صعدت إلى الطابق الأعلى والتمست فى غرفتى ملجأ أسكب فيه الدمع السخين على هذا اليتيم الباكر .

ولست أدرى أففضت عمتى إلى والدى بميلى إلى العزلة ، أم أنه لاحظ هذا الميل من تلقاء نفسه ، أم أنه كان صريحاً حين قال لى إن عمتى تريد العودة إلى قريتها ، وإنه يؤثر أن نغير الهواء بالسفر إلى الإسكندرية والمقام بها أسبوعاً أو أسبوعين .

وسافرنا بالفعل ، وسافرت معنا طاهيتنا ، ونزلنا طابقاً صغيراً استأجره والدى من أحد معارفه كانت به خادم صغيرة السن تتقن تنظيف المسكن وقضاء ما تحتاج إليه الطاهية من السوق القريبة منا .

وكان لهذا التغير فى لون حياتنا من الأثر الحسن على نفسيتى ما خفف بعض الشيء من عميق لوعتى ، فقد كنت أجد من هواء البحر المنعش فى هذه الأيام الأولى من فصل الخريف ما ينشط ذابل حيوتى ، وكنت أجد فى زرقته الممتدة إلى الأفق حيث يتعاقب الماء والسماء مسرحاً لأفكار مبهمة يذوب خلالها جوى الحزن الذى ناء به صدرى . وكان صريف أمواجه المتكسرة على الشاطئ يداعب سمعى ؛ وكأنه أنغام يبعث تشابهها إلى الأعصاب نوعاً

من السّامة المريحة التي تدعوننا إلى النوم كما تدعو أنعام الأم طفلها الرضيع إليه .

ثم إنني قلما كنت أرى ما ينهني إلى ذكر والدتي ، فقد كان والدي يخرج كل صباح ثم لا يعود إلا لتناول طعام الغداء وليستريح بعده في سريره ساعة يخرج بعدها من جديد . ولم أكن أسأله كيف كان يقضى وقته ، وكانت الطاهية تدخل مطبخها في الصباح لإعداد الإفطار ثم لإعداد طعام النهار ، أما الخادم الصغيرة فكانت من الإسكندرية ولم أكن قد رأيتها من قبل ، وقلما كنت أجد الفرصة للتحدث إليها ، إلا حين تصحني ساعة خروجي بعد الظهر أسير على شاطئ البحر ، وفي تلك الساعة كانت تقص عليّ أنباء نافهة عن مخدوميهما أصحاب الطابق الذي نقيم به . ولم يثر عنايتي من حديثها إلا إعجابها الذي لا حد له بجمال سيدتها ، وجمال أخت هذه السيدة التي تزوجت قبلها ، ثم ظلت سنوات مع زوجها لم تنجب فطلقها لأنها لم ترض أن تشاركها فيه امرأة أخرى يرجو أن يرزق منها الخلف الصالح .

على أن هذه المسكينة المحسنة التي خففت بعض لوعتي لم تبلغ أن أنستني فادح مصابي ، ولا حجبت عني طيف المتوفاة العزيزة أذاقني موتها طعم اليم المرير ، فقد كانت تبدى لي في أحلامي ، وكنت أرى طيفها في شبه اليقظة وأنا أنظر من الدار إلى غاية الأفق وكأنها ترنو إلى بعيون ممتلئة حناناً وعطفاً ، وكثيراً ما كنت أناجى السماء عند هذا الأفق البعيد أسألتها : لم حرمني الله أمي وما جنت ذنباً ، بل كانت البر والرحمة بكل محتاج إلى البر وإلى الرحمة ! . .

وكنـت أعيد هذا السؤال على نفسى إذا تبدت لى أـمى فى أثناء النوم ،
ثم استيقظت بكرة الصباح دامعة العين منقبضة النفس ، واستبد بى هذا
السؤال أيامنا الأخيرة بالإسكندرية ، حتى كنت أخرج أحياناً من صلاتى
قبل أن أتمها مخافة أن يجزىنى الله بالتعرض لقضائه أو الاعتراض عليه ،
وكنـت فى بعض الأحيان أجمع بين يدى كل قوتى ، وأمضى فى الاعتراض
على ما أـرادـه ظـلماً وقع بوالدتى وبى ، حتى إذا شعرت أننى أصبحت على
شفا جرف من هاوية التجديف ارتدبت فزعة أبكى ، وأنا لا أدرى : أكان
بكائى فرقاً من هول ما اجترحت فى حق ربى ، أم من هول المصـاب الذى
أذبل صباى وشبابى ، وجعلنى أرى المستقبل أمامى أسود لا يبدد ظلمته خيط
من ضياء .

وأدت بى هذه الحال إلى إهمال بعض صلواتى ، وكنـت من قبل حريصة
على ألا يفوتنى فرض منها ، كما بدأ يخامرنى شيء من الشك فيما كان أستاذى
يلقيه علىّ من دروس الديانة ! . .

وعدنا إلى القاهرة لموعـد بدء الدراسة فى المدرسة السنية ، فلما كنـت
بين زميلائى ومعلمائى لم أجـد بدءاً من العودة إلى العناية بمصلى المدرسة محافظة
على مكانتى ، وانخرطت فى الدرس وضاعفت مذاكرة علومى فى البيت ،
ووجدت فى ذلك مسلاة عن همى ، وجاءت عمى من جديد فتولت تدبير
المنزل ، ثم أعفنتى المذاكرة من طول المكث معها ، واطردت حياتنا على هذه
الوتيرة زمناً كان والدى يسبغ علىّ فى أثناءه أضعاف ما كان يسبغه علىّ من قبل
من عطف وحنان . وأخذت عمى تدنئنى منها ، فأنسانى مر الزمن ما سمعته

من خدم البيت عن حديثها مع أبي في أمر زواجه ، فلم تبق في نفسى من ناحيتها تلك الحفيظة التى شعرت بها من قبل ، وتعودت حياة اليتيم وأخذت أشعر بضرورة الاعتماد على نفسى في كل شأن من شئونى ، وبأنى مطالبة فوق ذلك بالاشتراك مع عمى في تدبير شئوننا المنزلية ، وبخاصة ما تعلق براحة أبى في ملبسه وفي غرفة نومه ، آملة أن يجد في عنايتى بأمره ما يصرفه عن التفكير في الزواج .

الفضل الثاني

أقبل شهر رمضان بعد أسابيع من بدء السنة الدراسية فاختر أبو فقيهاً ندى الصوت ، أحيا لياليه مع الفقيه الذى ألفنا سماعه عندنا فى هذا الشهر المبارك ، فلما كان عيد الفطر خرجت مع والدى وعمتى وزرنا قبر والدى وذرفت عليه دموعات سخينة ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر التى أحضرها والدى ، وبعد شهرين كان عيد الأضحى فزرنا القبر كرة أخرى وسمعنا عنده من يرتل القرآن ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وشعرت بدمعى أقل سخاء مما كان فى عيد الفطر ، وإن بقى قلبى يشعر بألم اليم شعوراً قاسياً عميقاً . وبعد أسبوعين علمت أن أبى سافر إلى الإسكندرية لأمر لم أعرفه ولم تطل غيبته هناك غير أسبوع ثم عاد إلينا وقد تزوج ! . .

تزوج السيدة الجميلة المطلقة شقيقة صاحبة الطابق الذى نزلنا به حين سافرت معه ، فلما دخل البيت معها نادانى وقال :

سلمى على « تيزة » . . ونظرت إليها فإذا هى جميلة هذا الجمال الشرکسى البارع . . فارعة القد ، عالية العنق ، دعجاء العينين ، رقيقة البشرة ، دقيقة الأنف والشففتين ، يلفت جمالها النظر ويمسكه .

وسلمت عليها فى تأديب وبقية هنية صامئة ، ثم شعرت بأنى أطلت المقام فانفلت مسرعة إلى غرفتى ، وقد أحسست بالعبرات تملأ عيني ، وخشيت

عدم القدرة على أن أحبس في صدى نسيج البكاء ، وأغلقت باب الغرفة وانخرطت في حزن صامت مخافة أن يسمع أبى صوتى . . ترى ما عسى أن يكون مصيرى مع هذه السيدة البارة الجمال ؟ . . وهل اصطحبنى والدى إلى الإسكندرية ليخطبها إلى نفسه وأنا عما صنع في جهل وعماية ؟ . . لا ريب أن عمى لن تلبث أن تغادرنا إلى قريتها وتترك أمر البيت وتديره إلى الزوجة الجديدة التى حلت محل أمى ، وأصبحت ربة البيت ومن فيه ، وستغادرنا عمى بعد أن دبرت هذا الزواج مع أبى . وبعد أن علمت به منذ عدنا من الإسكندرية ، ثم كتمته عنى كل هذا الزمن .

وطال احتباسى في غرفتى ولم يدعنى أبى ولم تدعى زوجه للانضمام إليهما . ولم تفكر عمى في الدخول على لمواساتى ، وأغلب الظن أنهم رأوا الخير في تركى أسلس العنان لعواطفى في هذه اللحظة الأولى . تقديراً منهم لما أثاره هذا الموقف في نفسى من ذكر أمى وذكر مرضها وموتها . لكننى لم أقدر الأمر على هذا النحو في هذه اللحظة . فقد أيقنت أن العزلة أصبحت نصيبى . وأن هذه الزوج الجديدة قد اختطف أبى كما اختطف الموت أمى ، وأنى لم يبق لى إلا أن أعتمد برحمة الله وأنزل على حكم قضائه القاسى .

ولم يدر بخاطرى أن زوج أبى لم تلبث بعد أن اطمأنت إلى مكانها من بيتها الجديد أن قامت تدور في أرجائه لترسم في ذهنها صورته . ولترسم بعد ذلك أسباب تدبيره ، وإننى لنى مجلسى من غرفتى وقد جف دمعى ، وإن ظلت عينائى محمرتين من أثر البكاء ، إذ فتح الباب ورأيت الأب والزوج والعمة يدخلون على ، ثم يقول أبى موجهاً الكلام إلى :

أنت هنا يا ابنتي ! . . وسرعان ما أقبلت زوجه نحوى وأخذت تطرى
نظام الغرفة وحسن ذوقى فى تنسيقها ، وكان صوتها رقيقاً فيه من الحنان مالم
تتكلفه . فلما ان لهم أن يتركوا الغرفة أخذتني من يدى وأخذت تسألني عن
شأني سؤال من يعنيه أمرى ويحرص على راحتي ، ونظرت إليها ألتمس مبلغ
الصدق فى كلامها فسحرنى جمالها . وخلتها ملاكاً كريماً بعثت به السماء
ليضمده جراحى ، ويأسوكلوم قلبي ! . .

وسرت إلى جانبها وهى ممسكة بيدي . فلما كنا فى البهو ، وأخذنا مجالسنا
منه رأيتها تفتح حقيبة ، وتخرج منها عقداً جميلاً تثبته حول عنقى . ثم تخرج
من حقيبة يدها مرآتها الصغيرة ، لأنظر جمال العقد على صدرى ، ونظرت فى
المرآة فأعجبني العقد وكان أول مصاغ تحليت به من نوعه ، وأدريت عيني إلى
ناحية أبى فإذا على ثغره ابتسامة راضية ، تشهد باغتيابه لما يرى ! . .

غادرتنا عمى بعد ثلاثة أيام إلى قريتها . وانخرطت أنا فى نشاطى المدرسى
وفى الدروس الخاصة التى كنت أتلقها فى اللغة العربية وفى الديانة ، وأنا أحسب
أن شيئاً ما لم يتغيز فى حياتى المنزلية . . ترى هل كان للجمال البارع الذى
اختصت به زوج أبى أثر فى هذا الحسبان ؟ . . فقد تخطت الثلاثين وكانت فى

نظرتها مع ذلك براءة الطفولة ، وفى ضحكتها سداجة الصبا الذى تفتح عنه
هذه الطفولة ، وكانت قسماً محياها كأنما صورها فنان أدق تصوير مرَّ
بخياله . وكان شعرها الناعم الفاحم المنسدل على كتفها خير إطار يزيد حديث
عيونها بلاغة ، وجمال قسماتها روعة وسحراً ، وكان قوامها بهجة للنظر
باعتداله ودقته ، وكان كل شئء فيها يقف الناظر إليها مسبحاً بقدرة الخالق

الذى أبدع هذه الفتنة الباهرة ، وكانت حركاتها وسكناتها طبيعية وتبدو مع ذلك ، وكأنما درست بعناية لم تذر للمصادفة حظاً في شيء منها ، وكنت كلما رأيتهما سحرت بها وازددت إيماناً بالله بارتها وشعرت بأن لجمالها من السلطان على جناني ما كان لحنان الأم الروم من السلطان على وجودي كله ! . .

تنصفت السنة الدراسية ثم قاربت نهايتها وأنا منكبة أشد الانكباب على دروسي ، والذى يحضر كعاداته درسي الخاص مع الشيخ موضع ثقته ، وإتني لذلك إذ مرضت وانقطعت عن المدرسة قرابة عشرة أيام ، فلما أبللت وأردت الإقبال على الدرس ، لأستعيض ما فاتني في أثناء علتى ، دعاني والدى إليه وقال لى :

« لقد رأيت يا ابنتى خوفاً على صحتك أن تنقطعى عن المدرسة ولا تذهى إليها منذ غد » .

ولم يكن لى عهد بأن أناقش قراراً اتخذه ، فخرجت من عنده وآويت إلى غرفتي وقد عرتنى الدهشة . صحيح أنني كنت أسمع زوج أبى تبدى من البرم بتعليم البنات الشيء الكثير ، وتذكر أن البنت خلقت للبيت وللأمومة ، لا لممارسة الأعمال والوظائف الحكومية ، وأن الخير لذلك كل الخير فى أن تتدرب منذ صباها الباكر ، لتتقن ما ستقوم به فى مستقبل حياتها .

لكننى لم أكن أعير حديثها فى هذا الشأن بالاً ، لأننى كنت أعلم أن أبى على غير هذا الرأى ، وأنه يرى أن تعليم الفتاة تعليماً عالياً بعض ما يجب

لكمال وجودها الإنساني ، واحتياطاً لمستقبلها حتى يكون لها فيه من الحرية ما يرفع عنها ذلة العبودية للرجل ، أياً كان مصدر هذه الذلة . فإذا حدث ؟ ما الذي دفع والدي ليبلغني هذا القرار ولم أبلغ بعد من التعليم غاية مرحلته الثانوية ؟ . . وهل للمرأة من الأثر على الرجل ، وإن كان حصيفاً حصافة أبي ، أن تبدل تفكيره كما تشاء ؟ . أم أن السلطان كان لهذا الجمال الساحر الذي اختصت به زوج أبي ؟ . . أياً كان الأمر لقد أيقنت من اللهجة التي أبلغ بها هذا القرار إلى أنه قرار مبرم ، لا رجعة فيه .

وكان لهذا القرار أسوأ الأثر في حياتي ، فقد أنشأ عندي عقدة نفسية لازمتني ولم أنج قط منها . وقد كان الأثر الأول لقرار أبي أن بدأت أعرف ما كنت أجهل ، بدأت أعرف الكراهية وكان قلبي لا يعرف غير الحب ، كنت أحب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكنت أحب الطبيعة وفتنة جمالها ، وكنت أحب الحيوان والطيور ، وكنت أحب الحياة ونعمتها حباً جماً . ذلك بأنني لم أشعر منذ ولدت بما يزهدني في الحياة . بل كان المتاع بها وبكل ما فيها بعض حظي . لقد كنت وحيدة بين أمي وأبي . وكانا بفيضان عليّ من حنانهما وبرهما ، ما يجعل الهواء الذي أتنفسه كله الحنان والرحمة وكله المحبة والود . وكله نسيمات السحر وبسمات الزهر وأغاريد الطير والشذا المتضوع بأرق العواطف وأحلاها . لكنني ما لبثت حين سمعت هذا القرار يبلغه إلى أبي أن شعرت بأن زوجه صاحبة الوحي به . وأن ما أسمعه عن زوج الأب وبرمها بأبناء زوجها صحيح . وشعرت لذلك بهذه العاطفة الكريهة عاطفة الكراهية تندس إلى قلبي وتجعد منه مكاناً لم يكن لها من قبل فيه موضع .

وعجبت كيف ينطوى هذا الجمال الفائن الذى صورہ الله فى هيئة هذه المرأة على روح خبيثة كل هذا الخبث . وكيف تسر هذه النظرات البريئة قلباً آثماً كل هذا الإثم . وأيقنت فى قرارة نفسى أن برمها بتعليم البنت لم يكن رأياً تؤمن به وتبديه . بل كانت البنت أنا . وكانت برمة بتعليمى أنا ولهذا لجأت إلى كل وسائلها وكل حبايلها وكل شباكها فانتشرت بسلطان جمالها فى دخيلة أبى وحملته على أن يتخذ قراره فيحرمنى نعمة كانت لذتى وسلوى . وكانت صارقى عن أن أرى ما فى الحياة من قبح وسخف ! . . .

وأخذت أفكر كيف أقاوم ما قرراً ، ولم يكن الذهاب إلى المدرسة سبيلى بطبيعة الحال إلى هذه المقاومة ، فأنا لم أكن أذهب إليها وحدى ، بل كان يصحبنى فى ذهابى إليها وأوبى منها بوابنا العجوز ، كما أتى لم أكن أستطيع أن أعلن هذا العصيان الصريح ، وأنا موقنة أن ثورق لن تلبث أن تتحطم ، ولن يكون من أثرها إلا أن يغضب منى والدى وتشتت زوجه بى ، ولذلك قررت أن أقضى معظم وقى فى قراءة ما أستطيع قراءته من كتب عربية وإنجليزية أستطيع الحصول عليها بوسائلى ، ولم أجرؤ يومئذ أن أستشير أحداً فيما أقرؤه ، فكنت أقرأ كل ما يقع فى يدي ، صالحاً كان أو طالحاً ، نافعاً كان أو ضاراً .

وبدأت زوج أبى تشغل نهارى بما سمته إعدادى لحياتى المقبلة ، فأخذت تعلمنى التطريز والخياطة والضهى وما إلى ذلك مما يتصل فى نظرها بتدبير المنزل ، فهى لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، لكنها كانت تجيد هذه الأعمال كما كانت تجيد العناية بجمالها كل الإجادة ، لذلك كان إشرافها على نظام

المنزل وحسن تدبيره وعلى كل ما نأكل ونشرب بالغاً غاية الدقة ، صحيح أنها لم تكن تباشر من ذلك شيئاً بنفسها ، لكن نظرتها إلى ما يجري في المطبخ أوفى الكرار ، إلى ترتيب الأثاث وحسن تنسيقه وما تبديه في هذه الشؤون من نقد من أوامر ، ذلك كان كافياً لجعل عيون الخدم في رؤوسهم قلايهملون شيئاً ولا يغفلون واجباً . وهي لم تكن مسرفة ولم تكن مقتررة ، وكانت تعرف كيف تضع كل شيء في محله ، لذلك أسرع إلى كسب ثقة أبي كما كسب جمالها ناظره وقلبه وعواطفه منذ اللحظة الأولى .

أما أنا فلم أكن شديدة الإقبال على ما تعلمني من شؤون المنزل ، أكان ذلك رغبة مني عن هذه الشؤون ، أم كان لأنها هي التي تعلمني إياها ! . . . وقد خلق انقطاعي عن المدرسة جفوة بيني وبينها جعل كل ما تقوله لي أو تريدني أن أتعلمه موضع الريبة عندي ، وأقبل والذي يوماً يوجه إليّ لوماً رقيقاً على ما يبدو من عدم إقبالي ، وينصح لي في لطف أن أقدر عناية زوجة بي وحرصها على مستقبلتي ، فازددت بسبب ملاحظته نفوراً من زوجة ، إذ شعرت أنها تريد أن تصرف عني محبته لتستأثر وحدها بكل قلبه ، وذكرت له أنني ربما ازدادت إقبالا على هذه الشؤون ، لو تعلمتها في مدرسة ، فابتسم ابتسامة ذات معنى وتركني وشأني ، إذ أدرك أنني أريد أن أبتعد عن البيت وربته جهد المستطاع .

وخيل إليّ بعد زمن أنني وجدت الوسيلة لما أريد ، فذكرت لأبي بحضور زوجة أن المرحومة والدتي ، كانت تود لو تعلمت البيانو ، ذكرت ذلك وكنت مقتنعة بأن امرأة والدي ستعارضه ، ولشد ما كانت دهشتي إذ رأيته يقول :

كلامك هذا معقول يا عزيزتى ، فكل فتاة مهذبة لا تعرف اليوم أن تلعب إحدى آلات الطرب بنقصها شيء جوهرى لحباتها الزوجية . ثم أشارت إلى والدى قائلة :

ومن الخير أن تشتري لها البيانو ، منذ الآن فهو بعض جهازها . ومتى جىء به إلى البيت جاءت معلمته تدرسه إلى بنتنا .

ونظر إلى أوى مبتسماً وهز رأسه كأنما يعاتبني على ما يدور بخاطري من ظنون بزوجه ، وكأنما يقول لى :

إن روحها جميلة جمال شخصها ، وإنها تحبني حبها لابنة أحشائها . وجاوبت ابتسامته بابتسامة مثلها شكراً له على عطفه وانتظاراً للبيانو الذى كنت أحلم به .

وكان حقاً على أن أشكر زوج أبى لتأييدها طلبى ، لكننى لم أفعل . فقد كنت أريد أن أتخذ من تعلم البيانو فرصة للفرار من جو المنزل ، أما أن تحبىء معلمة البيانو إليه فقد أصبحت دروسه تحت سمع امرأة أبى وبصرها ، وهذا السمع والبصر بضيعان على الفرصة التى كنت أطمع فى انتهازها ، ولم أكن أستطيع أن أعبر عما يخالج خاطرى من ذلك مخافة أن يساء تأويله ، وما أغنانى عن سوء التأويل ، وحسبى أن صديقتى وزميلتى التى كانت تقيم على مقربة منا كانت تكثر التردد على ، وكان يسمح لى برد بعض زياراتها .

واشترى والدى البيانو ، وجاءت معلمته فأكبيت على استدكار دروسه ، إكبابى على قراءة كتيبى ، بذلك شغلت معظم وقتى ولم يبق فيه لتدبير المنزل فى صحبة زوج أبى ما يثقل على نفسى أوتنوء به روحى ، ومع ذلك نقيت

الحيرة تتولاني كلما خلوت هنيهة إلى نفسي ، وأشعر كآني غريبة في هذا المنزل الذي ولدت به ، والذي أعيش فيه مع أبي ، وكأن روحاً آخر يرفرف من وراء الحجب ، يريد أن يطمئن عليّ ، وعلى أنني لا أنوء بألم الحياة .

وكان أبي يشاركني الحيرة ، وإن كانت حيرته من نوع آخر ! . .

لقد كان يسبقني إلى رغباتي ، فلم أكن أطلب شيئاً إلا أجابني إليه ، وأضاف إلى ما طلبت ما يظنه يزيد في غبطتي ، وكان يرى زوجه تشاركه في العمل على إرضائي ، ثم يراني برغم ذلك قليلة الابتسام ميالة إلى العزلة ، يبدو عليّ دائماً أن شيئاً ينقصني ، وأنتي غير مستريحة لما أنا فيه ، وكان من حقه والأمـر كذلك ألا يعبأ باعتزالي ، لكنه مع ذلك يحاول دائماً أن يبلغ مرضاتي ، على حين كانت زوجه ترى في تصرفه من المبالغة في تدليلي ما لا يتفق مع حسن تربيتي .

ولقد طالما ذكرت تلك الأيام ، بعد أن تزوجت وصرت أمّاً ، وطالما سألت نفسي : أكنت متجنبة في حيرتي وفي عزلي وفي عدم رضاي ، فلم يكن ينقصني يومذاك شيء ، ولم تكن زوج أبي تسيئني بكلمة ، وكان جوابي عن هذا التساؤل هو الجواب الطبيعي . فسادتنا لا تتعلق بحاجتنا المادية بقدر ما تتعلق بحالتنا النفسية وبإحساسنا وعواطفنا ، ولئن جرت في شأن امرأة الأب الأقاويل ، لحق أن زوج أبي لم تعتمد يوماً أن تجرح عواطفني ، أو أن تمنع عني خيراً ، بل لقد كنت أرى والدتي قبل مرضها ووفاتها توجه إليّ من ألوان النقد ما لم توجهه إلى زوج أبي .

لكن النقد الذي كانت توجهه إليّ أُمي ، والذي كان يغضبي أحياناً ،

كان صادراً من أمي . كان الدواء الذي لا نسيغ طعمه أحياناً ولكننا نرى فيه الشفاء ، فإذا لم نؤمن بأن فيه الشفاء فلا ريب عندنا في أنه صادر من قلب سليم ، وإخلاص صادق لخبرنا ، بل لا ريب عندنا في أن الحنان المتفجر من أعماق القلب البر العطوف ، قلب الأم ، يمحو كل ما في هذا الكلام من شائبة تكدر صفونا . وهل الأم كلها ؛ وكل ما يصدر عنها ؛ إلا حنان وبر وعطف وإيثار لبنها على نفسها ؟ وهل الأم وما أنجبت إلا شجرة واحدة تتشعب فروعها ؛ وكل ما يمتصه الجذع من أسباب الحياة إنما يمتصه لحساب هذه الفروع ولبهائها ونمائها وحسن إثمارها ؟ أولاً تدل قوانين الوراثة على أن الأسرة وحدة متصلة على الزمن ؛ وأن عصارة الحياة في عروق الأجداد تمتد إلى أحفاد الأحفاد ، وقلب الأم يعرف نفسه ولا يفرح لصاحبه أو يأسى لما يصيبها وإنما فرحه لابنها أو لابنتها وأساه لما يصيبهم . والأم تجمع إلى قلبها قلب الأب لتسكبه حناناً ومحبة وبراً في روح ذريتها ، هذا كله تراث معنوي ضخم هو مصدر طمانينتنا للحياة وسعادتنا فيها ! . .

أما زوج الأب فشخص مستقل عنا كاستقلالنا عنه . تتضارب مصالحه مع مصالحنا ، وميوله مع ميولنا . وهي تنافسنا في كسب قلب أبنائنا زوجها . قد تنشأ بيننا وبينها صداقة . ولكن محال أن يربط الحب الصادق بين قلبها وقلبنا . وأتى لها حب الوالدين لأبنائهما وإن بلغت من طيبة القلب وصفاء النفس أعظم مبلغ ؟ . . أذكر قصة طريفة تصور في سخريّة عاطفة الأمومة وكيف تسمو بفطرتها على العقل ومنطقه . فقد كان لواحد من أقارب أبي زوجتان أنجبتا في عام واحد ولداً وبنتاً ، وكبير الطفلان ، وكان للولد غرام بأن يعض

بأسنانه من يناوشه ، وتأصلت هذه العادة فيه ، فكان يلجأ إليها من غير أن يناوشه أحد . وإن أخته لتجلس إلى جانبه يوماً إذ بدا له أن يعضاها ففرت منه إلى أمها . وحمّتها أمها من أخيها فبكى وأمعن في البكاء ، وعرفت أمه سبب بكائه فصاحت بضرتها : « ألا تشفقين على هذا الطفل ؟ . . وما ضر أخته إذا هو عضها واستراح وانصرف عن البكاء ؟ . . » .

فأجابت أم الطفلة :

« أتريدن أن يستريح هو ، وأن تبكى أخته لغير ذنب جنت ؟ . فليبك ولينفلق من البكاء فلن أريح شذوذه . ! »

وتبادلت الضرتان ما شاءت الشحاء أن تتبادلاه من عبارات أوجت بها لكل واحدة منهما أمومتها . ألا يدل ما في هذا الحادث من سخرية وسخف على احتقار نظرة الأمومة لكل منطق ؟ . . أولو كان الطفلان توأمين لأم واحدة ، أفكانت تحاول أن تريح شهوة الولد على حساب البنت ، أو أن تدع الولد يمعن في بكائه ولوانفلق ؟ . . أم كانت تجد في حنان أمومتها ما يسكن الطفل عن غضبه وما يصلح بينه وبين أخته من غير أن يعضاها ؟ ! . .

ولا ذنب على زوج الأب فيما تهمها به الأقاويل ، فالأقاويل تريدها أن تكون لغير بنينا ، وهي لا تستطيع ذلك وإن حاولته ولا وزر في ذلك عليها ، إنما الوزر على الرجل الذي تزوج بعدما أنجب بنين ، سواء تزوج في حياة زوجه الأولى أو بعد وفاتها ، وما حاجة الرجال إلى الزواج بعد أن يصبحوا آباء ؟ ! إن نساء كثيرات يكرسن حياتهن لتربية ذريتهن . وحق على كل امرأة وكل رجل أن يكون ذلك شأنه .

لست أدري لم أنزع الساعة للدفاع عن امرأة الأب بعد الذى كنت فيه من حيرة وعزلة وعدم رضا منذ تزوج أبى إثر وفاة أمى ، فلأدع هذا ولأعد إلى قصتى ، لقد انقضت الشهور منذ اشترى والدى لى البيانو ومنذ عكفت نهارى على استذكار دروسه عكوفاً أنسانى شئون المنزل ، وكيف تكون العناية بتدبيره ، مع ذلك بقيت أشعر بالوحدة والعزلة برغم عطف أبى وحنانه ، ولقد زاد فى شعورى هذا حادث لم أكن أحسب أنه سترك فى نفسى أثراً ، فقد كان طبيب من كبار الأطباء المتخصصين فى أمراض النساء يتردد على المنزل ويعود زوج أبى ، وقد كان أول أمره لا يبدو عليه حين انصرافه ما يدل على جديد ، واستمر كذلك شهوراً حتى رأيته يوماً متهللاً ، ورأيت والدى يودعه إلى الباب الخارجى وعلى ثغره ابتسامة عريضة تم عن مسرته واعتباطه . وسرعان ما علمت أن زوج أبى حامل ، وذكرت لسامع هذا النبأ حديث عمى لأبى بعد قليل من وفاة أمى تحرضه على الزواج ، لينجب الخلف الصالح ، وليكون له بنون يحفظون له اسمه وذكره . عما قريب إذن سيتركنى فى عطف أبى طفل يستأثر بقلب أمه وبكل روحها ووجودها .

أتراى يومئذ أحب هذا الطفل كما لو كان ابن أبى وأمى ؟ . وماذا يكون موقف أمه منى ؟ . لعل لم أبلغ من تحليل الموقف ما يحول الآن بخاطرى ! . . ولكنى ازدددت إكباباً على البيانو نهائياً ، وعلى القراءة ليلاً ، ولم ألق بالآلما أبداً على زوج أبى من أعراض كانت تلزمها سريرها أحياناً ، وتدعوها لتكليفى بمراقبة ما يدور فى المنزل . أما أبى فقد ازداد حذباً على زوجه ورعاية لها ، وجعل يدعو الطبيب ليراها كل أسبوع أو أسبوعين مبالغة فى العناية بها ،

وبالطفل المستكن في أحشائها ، وكان الطبيب يستصحب في بعض زيارته طبيباً شاباً يعاونه في قياس الضغط ، أوفى إجراء بعض تحاليل سريعة يرى الطبيب المباشر أنه في حاجة للوقوف على نتائجها لوقته .

وكان هذا الطبيب الشاب وسياً دقيق العناية. بهندامه ، وفي عينيه بريق خاص ينم عن الذكاء والطيبة مجتمعين . وقد كان يسرع بالدخول مع الطبيب الكبير إلى غرفة الحامل ، فكان قصارى أن ألمح من وراء حجاب ساعة دخوله وخروجه . وكانت نظراته وحركاته تجعلني أغبط بما أرى منه ، وأود لو أستطيع التعرف إليه . أما هو فكان في شغل عني بما يوكل إليه إجراؤه في أثناء الزيارة ، فإذا انصرف مع الطبيب الكبير المتخصص في أمراض النساء تابعته بنظري من نافذة غرفتي .

ولم يكن لي سبيل إلى التعرف إليه ، والحجاب المضروب على النساء كان يومئذ على أشده ، فلم يكن يتاح لواحدة من بنات طبقتنا أن تقف مع رجل أو تتحدث إليه أياً كانت سنه . بل لقد كانت الفتاة تخطب إلى شاب لم تعرفه ولم تره ، ويكون القول الفصل في زواجها منه لأمها ولأبيها ، وكان العار أكبر العار أن يكون لها في الأمر رأي ، أو تكون لها فيه كلمة .

وانقضت مدة الحمل ، ووضعت زوج أبي غلاماً جميلاً ابتهج والدي بمولده ، وفاض عنه السرور به ، وجاءت أخت زوج أبي وأقامت لها حفل « سبوع » منقطع النظير ، بدأت أشعر نحو هذا الطفل البريء بعاطفة الأخوة التي لم أعرفها من قبل . فلما صلب عوده وأصبح مستطاعاً حملة كنت آخذه من مربيته وأضعه في العربة في بهو الطابق الأول ، كما كنت

أجد في التزول به إلى الحديقة خير تسليّة ، حتّى لقد كانت هذه التسليّة تصرفني إلى حد كبير عن استذكار دروس البيانو .

وتوعك الطفل فعجن جنون أمه ، وأسرعت إلى استدعاء الطبيب الشاب الذي عرفته أيام حملها . وفحص الطبيب الطفل وطمأن أمه وأباه وأخذ يحدثهما عما يجب من رعاية « لولي العهد » ، ورغبت الأم أن أسمع كلام الطبيب اقتناعاً منها بأنني أقدر من المربية على العناية بالطفل . ولم يجد أبي بأساً بدعوتي ، فلو أنني مرضت لعادني هذا الطبيب وأنا في فراشي ، فلما ناداني وعرفت أن الطبيب لا يزال في غرفة الطفل شعرت بقلبي يخفق ، ثم هدأت نفسي إذ وجدت الفرصة سانحة لما كنت أطمع فيه من التعرف إلى هذا الشاب الذي كان يكبرني بعشر سنوات أو نحوها ومن محادثته ، واستمعت إليه يصف الدواء ، فأخذت أسأله عن تفاصيل طعام الطفل وشرابه ونومه واستحمامه ، وسرت زوج أبي بما بدا من عنايتي بابنها فنظرت إلى الطبيب نظرة استعطاف وقالت :

لا تؤاخذها يادكتور ، فهي تحب أخاها أصدق الحب ، وهي تتولى الكثير من شؤنه .

وودف الطبيب دواء بسيطاً وقال إنه سيعود بعد ثلاثة أيام ليطمئن على صحة الطفل وعلى أثر الدواء . وعينت أنا خلال هذه الأيام الثلاثة بتنفيذ أوامره في شأن الطفل بدقة أثارت إعجاب أمه ، ومسرة أبي ، وكنت أنتظر اليوم الثالث بصبر نافذ ، وبخاصة لأنني رأيت الطفل قد زالت وعكته وعادته الابتسامة البريئة الملائكية التي تجعل الأطفال جميعاً أحباب الله ، وتجعل

هذا الطفل الجميل ملاكاً يشع منه نور يسعد كل من حوله .

وجاء اليوم الثالث وجاء الطبيب ورأى الطفل وأبدى اغتباطه بشفاؤه . ولم ترض عليّ زوج أبي بشهادة طيبة ؛ إذ قالت إنني أنا التي بذلت كل العناية في تنفيذ العلاج ، وأدار الطبيب الشاب نظره إليّ وقال : يظهر أن للآنسة غراماً بالطب ، أم أن حبها لأخيها وعاطفتها الرقيقة نحوه كانا أشد أثراً من الدواء في سرعة برئه . . وأنا مع ذلك سأعود بعد أسبوع لأزداد اطمئناناً على صحته ، فالأطفال في سن التسنين معرضون لوعكات لا خطر منها ولكنها ترزعجهم وترزعج أمهاتهم أحياناً ! . .

وجعل الطبيب يعود الطفل بعد ذلك كل أسبوع ، وجعلت أنا أزداد بهذا الأخ الصغير الجميل عناية وله حباً . أفكانت عاطفة الأخوة وحدها مبعث هذه العناية ؟ . . أم كان مبعثها فطرة الأمومة التي تتحرك في أحشاء كل شابة لمراى طفل جميل ولاجتلاء ابتسامته ولا اتصال جسمه بجسمها ؟ . . أم ترى كان لهذا الطبيب وزياراته المتعاقبة أثر في هذه العناية ؟ . . يصعب عليّ أن أبدى حتى اليوم رأياً في الأمر ، ولعل هذه الدوافع جميعاً كانت ذات أثر فيه ، ولكن الذى أذكره أدق الذكر أننى برغم ما شعرت به نحو هذا الطبيب من جاذبية ، وما كنت أجد في حديثه من متعة ، كنت شديدة الحرص على أن لا تبدرمنى بادرة تكشف عما فى نفسى ، بل كنت أبداً أشد حرصاً على أن أثير إعجابه وتقديره لعنايتى بأخى منى على أن أكشف له عن عواطفى ! . .

فقد سمعت أن إحدى زميلاتى فى المدرسة أحبت شاباً نابهاً وعرضت نفسها

عليه ليتزوجها فرغب عنها وخطب غيرها ، فلما تمت الخطبة حاولت هذه الزميلة الانتحار ، وإن كبريائي لتسمو بي عن أن أعرض نفسي على كائن من كان ، بل إنى لأشعر بأن الحب إذا انحدر بصاحبه ، رجلا كان أو امرأة ، إلى هذه المتزلة كان ضعفاً يجب أن تنتزه عنه كل نفس مهذبة .

وقد استأثر أخى الطفل بقلب أمه وبقلها وبكل وجودها ، فلم تكن ترى في محيطها غيره ولم تكن تسمع غير صوته . لقد كنت أراها جالسة إلى أبى يتحدث إليها وتستمع هي إليه ، ثم أراها تندفع قائمة نحو حرفة الطفل تقول :

إنه يبكى ! . .

هذا ولم يكن أينا سمع بكاءه ، ونجى به وقد حملته إلى صدرها وقلها فإذا الدموع بالفعل في عينيه ، وإذا هوحقاً كان يبكى في صمت لا يسمعه إلا قلب الأم ، ولم يكن أبى يسمع هذا البكاء الصامت ، ولكنه لم يكن لذلك أقل إقبالا على الطفل وإعزازاً له من أمه ، كنت أرى هذا الرجل الرزين الحصيف يدخل إلى البيت وفي يده غير مرة في الأسبوع لعبة من لعب الأطفال ممن هم في مثل سن أخى ، وكان يجد متاعاً بل سعادة كلما رأى الطفل يتسم أو سمعه يضحك ، وكان الوالدان يزدادان للطفل حباً كلما تقدم نموه . فلما استطاع أن يقف على قدميه ليمشى كانت حركاتهما لتشجيعه تثير الضحك ، لكننى لم أضحك لأننى كنت أحب أخى كما كانا يحبان ، وكنت سعيدة كسعادتهما به ! . .

وشغل « ولى العهد » خدام البيت كما شغل سادته ، فلم تكن مربيته

وحدها تلحظ حركاته وسكناته بعطف وعناية ، بل كانت كل واحدة من الخدم تود لو استطاعت أن تخدم سيدها « اليه الصغير » ، لتسد بهذه الخدمة ، ولتتال بها خطوة عند أمه وأبيه وأخته ، ولست أبالغ حين أذكر أن الكل كانوا يسعدون لعنايتهم بهذا الطفل البريء الذكي الجميل ، وكانت أمه مع ذلك تخاف عليه من خياله ، فإذا سقط على الأرض وهو يمشي أقامت الدنيا وأقعدتها ، وإذا صاح لأن أحداً أخذ منه شيئاً مخافة تلفه صاحت لصياحه وأثارت في البيت ضجة كأن حادثاً خطيراً حدث ، ولم يكن أبى يلومها على شيء من ذلك أو يسدى إليها النصيحة لخير الطفل ، بل كان يجارها في غضبها ورضاها ، لأنه كان لا يرى إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنيها ، ولا يعرف في الحياة منطقاً غير منطقها .

بدأت برغم حبي لأخي أضيق ذرعاً بهذه المبالغات وأشعر أنني أصبحت من رعاية أبى في المحل الثالث لا في المحل الثاني ، وأن أخي وأمّه مفضلان عليّ عنده ، فازداد برمي زوج أبى ، وأحسست أن البيت على سعته يضيق بي ، وكنت قد تجاوزت إذ ذاك السابعة عشرة من سني حياتي ، وكانت صديقتي التي تعيش مع أبويها على مقربة من بيتنا قد خطبت إلى شاب موظف في الحكومة أثني عليه أبى غير مرة أمامي .

قلت في نفسي : أولاً يكتب لي الحظ ما كتب لها فانتقل إلى بيتي أنا بدل أن أبقي حبيسة مع امرأة أبى ؟ ! وتصورت يوماً قريباً يكون لي فيه طفل كأخي أسبغ عليه من حبي ومن قلبي ومن عنايتي ورعايتي كل ما يحتويه قلب الأم من بر وحنان .

ساورتني هذه الأحلام واشتد أخذها بجنونى حين اشتدت لطفة زوج أبى على ابنها الطفل حتى جعلت تلومنى على ما سمتة عدم عنايتى به . وهى قد زادت فى التثريب على منذ رأتنى عدت أستاذة دروسى على البيانو وأقضى وقتاً غير قليل أمامه ، فقد كنت أهتمت هذه المذاكرة شهوراً عدة لفرط اشتغالى بأخى ، فلما رأيت مخاوف أمه ولهفتها عليه وتعلق أبيه به أخذت أعود إلى دروسى أتسلى بها عن هذا الشعور الذى استبد بى ، وجعلنى أشعر أننى صرت من رعاية أبى فى المحل الثالث . ولئن حرّ هذا الشعور فى نفسى لقد دعانى من بعد إلى أن أتساءل :

تُرى لو أن أمى لم تمت وأنجبت غلاماً كما أنجبت زوج أبى ، أكانت الرعاية الأبوية تنصرف إليه عنى ، كما انصرفت إلى أخى من غير أمى ؟ . . أم كنا نعيش أسرة واحدة يجرى فى عروقها دم واحد هوماء الحياة الذى يمتصه جذع الشجرة ليعبث منه إلى فروعها البهاء والنماء والحيوية المترعة بمعانى النعمة والسعادة ؟ فأين نحن الآن من هذا الوضع ؟ إن الفرنسيين يعبرون عن الأخ أو الأخت لأب ، وعن الأخ والأخت لأم أنه نصف أخ ، أو أنها نصف أخت ، وقد يكون لهذا التنصيف المادى ما يسوغه ، ولكنى أحسب أن للتعبير الفرنسى معنى أعمق من ذلك بكثير ، معنى يتناول الجانب العاطفى فى صلات الأسرة وأفرادها بعضهم ببعض ، فصلة الأم بأبنائها صلة مباشرة ، هم من دمها ولحمها ، ومن قلبها وروحها ، ومن أعماق وجودها . أما صلة الأب بالأبناء فصلة بالواسطة . والأم هى هذه الواسطة ، فإذا كان له أبناء لأكثر من أم تأثرت عواطفه لأبناء كل أم بمبلغ ما بينه وبين الأم من مودة ،

وإن اختلف هذا الأثر في نفس أب عنه في نفس أب آخر ، هذا إذا كانت الأمهات جميعاً أحياء .

أما في مثل حالنا حين تكون أم حية وأخرى قد انتقلت إلى جوار الله ، فذكرى المتوفاة تقوم في نفس الأب مقامها ، وإن كان الحاضر أفعالاً أثراً من الغائب . وأبي كان يحب أمي أشد الحب ، وهو اليوم يحب زوجته أشد الحب . ولا يستطيع الحاضر أن يحجب الماضي وإن استطاع أن يتغلب عليه ، ولطفولة أخي ولجمال أمه أثر في هذا الغلب .

ولعل لو أتيح لي من الحظ ما أتيح لصديقتي التي تقيم مع أبيها قريباً منا فخطبت ثم تزوجت لاسترددت رعاية أبي كاملة ، ولتخلصت من لوم زوجته إياي وتربيتها عليّ .

وفيما تساورني أحلامي عاودت الوعكة أخي ودعى الطبيب الشاب لعيادته ، فلما رأي أخذ يسألني عنه ثم يسألني عن نفسي ، وكان هذا الطبيب هو الشاب الوحيد المثقف الذي أتيح لي أن أتحدث إليه غير الشباب من ذوى قرباى وأبناء أسرتي ، ولم يكن واحد من هؤلاء يطمع في يدي لأنهم كانوا ينظرون لأبي على أنه أكبر مقاماً وأوسع ثروة وأعرض جاهاً من آبائهم جميعاً ، ولم أكن أشعر نحو أحد منهم بمحبة ولا بمجاذبية خاصة ، ولذلك كنت أتمنى لو أن هذا الطبيب خطبني إلى أبي ، ولو أن أبي قبل هذه الخطبة وبشرني بها ! .. ومن يومئذ جعلت أخلق لنفسي منه تمثال المحبوب العزيز الذي أتمناه لنفسي ، وكان أشد ما جذبني إليه ما تتم عنه نظراته من طيبة قلبه ورقة شعوره ، وهو قد بلغ من ذلك مبلغاً غير مألوف ، كان برغم أنه طبيب ، يتحدث عن

مرض أخى والدمعة تترقق فى عينيه ، وكان إذا قص على والدى نبأ من الأبناء بدا عليه التأثير لكل مصاب أو محزون ، وكان إلى ذلك محباً للحياة ومتاعها ، تبدو عليه آثار اليسار والنعمة . كانت السيارات فى ذلك العهد مركباً نادراً ، وكانت له مع ذلك سيارة أنيقة بسر العين مرآها ، أما وذلك شأنه فلا بد أن يكون خلقه رضىً وأن تكون الحياة معه حياة طمأنينة ونعمة وسعادة ! . .

وجاء يوماً يعود أخى ، وكان والدى قد استدعى إلى العزبة على عجل . فلما أتم فحصه ، وبدأ يكتب تذكرة الدواء أخذ يتحدث إلى فيما يجب للعناية به ، وقبل أن يتم حديثه نهض فنهضت معه وسرت إلى جانبه وأخذ يكمل حديثه ونحن على السلم فى طريقنا إلى الطابق الأرضى . وبعد عدة درجات هبطناها على السلم قال :

- اسمعى يا آنسة ! . . إننى فكرت أن أخطبك إلى أبيك ، لكننى رأيت ألا أفعل ما لم تكونى أنت موافقة على ذلك .
فألقيت ببصرى إلى الأرض ، واحمرت وجنتاى خجلاً ، وقلت فى شئ من الكبرياء :

ليس ذلك شأنى ولكنه شأن أبى .
وكان تعليقه على عبارتى : يكفينى هذا منك ، وأنا أشكرك أجزل الشكر .

وعدت مسرعة إلى غرفة أخى مخافة أن تظن أمه بى الظنون . وأخبرتها أن الطبيب ذكر أن ما به ليس إلا سوء هضم بسيط سرعان ما يزول أثره .

وبعد أن طمأنتها أويت إلى غرفتي وجعلت أركز في ذهني ما سمعته عن خطبتي من أبي ، وأخذت أسائل نفسي أحسنت أم أسأت في إجابتي ، وأمني نفسي الأمانى للمستقبل ، وأرقب عود أبي من العزبة بصبر نافذ ، أفلا يجب أن أذكر له ما حدث أول ما أراه ؟! . . وهب الطيب عدل فلم يخطبني إليه ولم يذكر شيئاً ! . . وأقمت زمناً أضرب أحساساً لأسداس وأبني قصوراً في الهواء . . ولما جن الليل جفا النوم عيني وأنا بين الأمل الواسع الفسيح أقيم في قصوره بعد أن أنظمتها على هواي ، وبين الخوف أن يفلت مني هذا الأمل فلا أفوز منه بسراب .

وارتسمت أمامي صورة الطيب الشاب كما أرادها خيالي ، وشعرت لمراها بأن قلبي ينبض بعاطفة كانت مستكنة فيه ، وكان الحياء والكبرياء يباييان عليها أن تبرز إلى الوجود ، أما الآن وأنا في دثار من جنة الليل وحمائته فقد تجسم الحب في قلبي وانتقل منه إلى وجداني بل إلى حسي المادى ، فشعرت كأنى أضمت هذه الصورة إلى صدرى وأرى في صاحبها ملاكى الحارس وحصنى الأمين .

وعاد أبى من العزبة بعد أيام عاد الطيب خلالها أخى ثم انصرف ولم يذكر لى شيئاً عن اعتزامه خطبتي إلى نفسه ، وإن حدثني في حضرة زوج أبى عما يجب للطفل - وقد زالت وعكته - من احتياطات حتى لا تعاوده ، وبعد أيام جاءت زوج أبى إلى غرفتي تقبلني وتهنئني بمفاتحة الطيب أبى في أمر خطبتي ، وتسألني عن رأيي ، فألقيت بصرى إلى الأرض واحمرت وجنتاى خجلاً وقلت :

لا رأى إلا ما يراه أبى .

فقبلتنى مرة أخرى وقالت :

نعم الجواب يا حبيبى ، فهكذا يكون الأدب . وهذا ما كان ينتظره أبوك وما كنت أنتظره منك .

وفى الغد جاء الطبيب ومعه صديق له وقابلا والدى فى السلامك . فلما انصرفا جاء والدى فقبلتنى وأخبرنى أنهم سيقروون فاتحتى بعد غد .

وبعد غد جاء الطبيب ومعه أهله . واستقروا مع والدى فى السلامك وقرأوا الفاتحة وأديرى عليهم المرطبات . هنالك انطلقت ألسن الخدم بالزغاريد ، وهنالك شعرت بأنى خطوات خطوة واسعة . نحو آمالى فى حياة جديدة .

وأصبح خطيبى أكثر حرية فى التحدث إلى حين زيارته إيانا ، وشعرت بأن الحظ أسعدنى بما لم أكن أسعد به لو أن أحداً غير هذا الطبيب قد خطبنى ، فلو أن ذلك حدث لما رأيت خطيبى إلا من فرجات النوافذ ولما استمعت إلى صوته إلا إذا سمعت من وراء الأبواب حين حديثه مع أبى . كان ذلك حكم الوقت على كل فتاة تخطب ، أما وقد سعدت بما لم تسعد به غيرى فقد أيقنت أن الحظ ييسم لى ، وأن القدر سيعوضنى عن فقد أُمى عاطفة جديدة ، تلك عاطفة الحب المتبادل .

وشغل أبى وشغلت معه بجهازى . وكانت زوج أبى تشاركنا الرأى فى بعضه ، وتكون صاحبة الرأى الأخير فى أمر الحلى والثياب ، وكانت فيما تقوم به من ذلك غير ضمنية ولا متلكئة ، فلما أتممنا الجهاز أقيمت حفلة

الزفاف ، حفلة نادرة باهرة ، وبدت زوج أبي ليلتها في أبهى حللها وأبدع زينتها ، وقد تلاً لأجمالها حتى كانت كأنها عروس الحفل ، أما أنا فكنت أنتظر بصبر ذاهب نهاية الاحتفال ، لأذهب مع زوجي إلى بيتي ، ولأنسى في أحضانه متاعب الحياة .

وانتقلت معي إلى بيتي خادماً كانت عندنا من عهد أُمي ، وكانت أُمي قد وعدتها بأن تكون في خدمتي حين أتزوج . فلما اطمأنت في غرفة نومي وآن لي أن أخلع ثيابي وجاءت هذه الخادمة تعاونني قالت في ابتسام :
أسمعت يا سيدتي كلام السيدات في الفرح ؟ ! . أحسبك كنت مشغولة عن كل شيء بانتظار المجيء إلى هنا .
قلت :

هذا صحيح . وماذا قلن ؟

وأتمت الحديث بقولها :

لقد أدهشتن زينة سيدتي زوج أهلك حتى قالت إحداهن :

لمن الفرح ؟ أهو للبنت أم للست ؟ . .

وأجابت الأخرى :

هو للبنت اغتباطاً بذهابها إلى بيتها . وهو للست اغتباطاً بتخلصها من

بنت ضررتها واستقلالها بالبيت وسيدة فلا يكون لها فيهما شريك ! . .

وابتسمت لحديثها ، ولم تلبث حين رأتني خلعت ثيابي أن غادرت الغرفة ،

ليجئني إليها رب البيت ، ليجئني إليها زوجي العزيز الحبيب الطيب الشاب ! . .

وبدخوله الغرفة بدأت سنوات هائلة سعيدة ليتها دامت .

الفصل الثالث

قضينا بدء حياتنا الزوجية سنوات هائلة سعيدة ليها دامت . ولقد طالما بحثت عن السبب فيما طرأ عليها من بعد . أنا أعلم أن كثيرين يتهمونني بأى السبب ، وأنه لولاي لبقينا فيما كنا فيه من نعمة وطمأنينة ، ولكنى لا أقر هذا القول ولا أرضاه ، بل أحسبني كنت ضحية أكثر مما كنت مسئولة عما حدث ، ولست أريد بتدوين هذه القصة أن أدافع عن نفسى ، وحسبى أن أسوق الحوادث كما وقعت ، وأدع من تقع عينه يوماً على هذه القصة أن يحكم لى أو على ! . .

ولا أريد بتبرئة نفسى أن أتهم زوجى بأنه هو وحده سبب ما أصابنا . ولو أننى فعلت لكنت ظالمة ، وإن كنت لا أستطيع أن أبرئه براءة كاملة ، مع الاعتراف من جانبي بأنه لم يقصد إلى غرض سيئ ، بل لعل طبيته وبالغ عطفه يحملاته من التبعة أكثر مما كان يحمل لو أنه كان أكثر قصداً فيهما . لقد بدأنا حياتنا الزوجية حبيين سعيدين . . كان كل ما حولنا يبسم لنا ، ويشدولنا بأنغام السعادة . كنا نخرج تحت جناح الظلام فى سيارته وكان هو يقودها ، مرة إلى سفح الهرم ، وأخرى إلى القناطر الخيرية ، وثالثة إلى المعادى ، ورابعة إلى عزبة والدى ، فلم أكن أرى فى الطريق - إلى أى من هذه الأماكن الخلوية - إلا السعادة يحملها الهواء معه إلى قلبي وروحي .

وكنْتُ لا أشعر حين عودتنا من هذه الجولات بشيء غير عبير الحب يحمله
النسيم على أجنحته ويدخل به وإيانا إلى عشنا الصغير الجميل ، وكان زوجي
الشاب الرقيق العزيز يتمنى لو استطعنا أن نساfer إلى أوروبا نمضي في ربوع
سويسرا أو النمسا شهر العسل ، لولا أن كانت الحرب العالمية الأولى تحول
بيننا وبين تحقيق هذه الأمنية الساحرة البديعة ، وقد استعضنا عن هذا السفر
بالمقام زمناً في ذهنية لأحد أصدقاء أبي ، فكنت أحس إذ أنظر إلى ماء النيل
من نوافذها وكأنه يحمل في تياره أريج الصبا ونسيمه العليل .

وكان زوجي يغيب عني ساعات كل يوم في عمله فكنت أشعر بأنني من
انتظاره على لظي ، لا يبرد سعيرها إلا أريج يحمل الحب شذاه آتياً من
ناحية عيادته ، فإذا عاد إلى عشنا وتعانقنا شعرت ، كأنني ذبت في هذا
العناق خلاله ، وأصبحت حبة قلبه . وكان هو من جانبه يبادلني حباً بحب
وهياماً بهيام . كان كل تفكيره متى فرغ من عمله كيف يزيدني سعادة وهناءة ،
فإذا جلس إلى جانبي ، وألقيت برأسي على صدره شعرت من نبضات قلبه
بطمأنينة إلى الحياة تنقلني من هذا العالم الذي يضطرب فيه الناس ، جريباً
وراء أهوائهم ومنافعهم إلى عالم من الأحلام مفروشة أرضه بالورد ، معطر
هواؤه بشذا الحب وأنغام الهوى والغرام . . . أين أنا الآن مما كنت فيه منذ
توفيت أُمِّي .

بل أين أنا الآن مما كنت منذ ولدت ، إنني سعيدة سعيدة سعيدة .
سعيدة بما لا تعبر عنه الألفاظ بل لا تعبر عنه الموسيقى ، وكأنني أتقلب
من عالم الناس في نعيم جنة الخلد ، فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين

وما يحملنى على أجنحة من الخيال إلى عالم السعداء والراضين ، عالم المحبين الذين يستمتعون بنعمة الحب إلى غاية حدود المتاع .

انقضى العام الأول من حياتنا الزوجية وأنا فى هذا البحر اللجى من فيض السعادة ، وكنت فى أثناء ذلك لا أخالط غير زوجى من الرجال إلا أبى والأقربين من محارمى ، فلم يكن يباح للمرأة من طبقتنا يومئذ أن تتحدث إلى غير هؤلاء من الرجال ، أما النساء فكانت تزورنى منهن بعض زميلاتى وصديقات صباى وحبيبات أُمى . وكانت زوج أبى تزورنى أحياناً بطبيعة الحال ، وكنت أنقل كل حديث يجرى بينى وبينهن ، أو بينى وبين أبى ومحارمى ، إلى زوجى العزيز ، وكنت أشعر بالغبطة حين أراه مسروراً لسماع هذا القصص الساذج ، لأنى كنت مصدرة ، ولم يكن يخفى ذلك على ، بل كثيراً ما كان يقول لى إذا أنا فرغت من رواية أقاصيصى :

تحدثى ، تحدثى ، إن نغمت صوتك تشجىنى ، ونظراتك إلى فى أثناء الحديث تنفذ إلى قلبى ، وتبعث إلى وجودى كله النشوة والطرب .

وكنت أعلم أن فى نظراتى جاذبية طالما سحرت بها وأنا أنظر إلى نفسى فى المرآة ، جاذبية لا ترجع إلى جمال عيى ، بل إلى قوة التعبير التى تنبعث من هذه النظرات ، ولم أكن أحسب أن هذه الجاذبية قديرة على أن تسحر غيرى كما كانت تسحرنى ، وكنت أشعر كذلك أن لصوتى حين أتحدث سلطاناً لا يقل عن سلطان نظراتى . وكنت قد ورثت نغمة صوتى عن المرحومة أُمى ، كما ورثت لباقة حديثى وقوة تعبيره عن عواطفى ومقاصدى عن أبى ، ولا شك فى أن قراءاتى الكثيرة فى الكتب العربية والأجنبية قد أعانت هذه

الوراثة وبلغت بي إلى هذه المقدرة التي كان يعجب بها زوجي . على أنني لم أقدر سلطان هذه الملكات على غيري لأول ما حدثني زوجي عنها ، بل حسب أن حبنا المتبادل هو الذي يوحى إليه إطراره . فلما رأيته يكرر الإطراء في مناسبات شتى أخذت أعتد بهذه الملكات ، وأعني بتنمية غراسها ، فعدت إلى مرآتي أدرس فيها سلطان نظرائي ، وعدت إلى كسبي أقرأها حين غياب زوجي في عمله وفراغي من تدبير المنزل . وكنت أقرأ بصوت مسموع ما يعجبني ، وما يزيد حسن الإلقاء أثراً في النفس . فإذا جاءت صديقتاي والأقربون من ذوي رحمي ، لزيارتي أخذت أتحسس أثر مواهبهم فيهم ، وسلطان نظرائي وعباراتي عليهم .

ومن يومئذ آمنت حقاً بأن من البيان لسحراً ، فقد كان الذين يزوروني يبالغون في إعجابهم ، بحسن إنصاتهم لحديثي ، واستزادتهم منه ، مما جعلني أنا كذلك ألد بالإصغاء لصوتي والاستماع لحديثي حين متاع الآخرين به ، وكنت أحرص على ملاحظة أثره في نفوسهم ، وبخاصة حين كنت أصور لهم ما تركه حادث في نفسي من مسرة أو ألم ، من رضاً أو غضب ، من غبطة بالجمال أو تفرز من القبح ، فإذا شاركوني في إحساسي ، ولحت على وجوههم أمارات هذه المشاركة ، اطمأننت وازددت رضاً عن نفسي وإيماناً بسلطاني .

انتهت الحرب العالمية الأولى في منتصف الخريف وخيل إليّ عند ذلك أن الجو أصبح مهيناً لأسافر مع زوجي إلى أوربا لنشر في ربوعها الجميلة عبر حبنا ، ونستنشق مع نسائم جبالها الرفيعة الذرى أريجاً منعشاً يضاعف متاعنا بالحياة ، ونجتلي في أم المدائن باريس ما تهوى إليه كل أنثى ، وما يفتح له

قلب كل مشغوف بالفن وكل مولع بالجمال . وأشرت في حديثي مع زوجي إلى رغبتي هذه ، فلم يلبث أن ذهب من بكرة غده إلى مكاتب السياحة يعد لسفرنا العديق . فلما عاد لموعد الغداء أخبرني في أسف أن السفر فيما وراء حدود مصر لا يزال محظوراً بأمر السلطة العسكرية البريطانية ، وأنها تأبى إياه تماماً أن ترخص به لأحد . وأنه يؤثر إذا رغبت وجاء الشتاء أن نقضى أسبوعين أو ثلاثة بمشيتي الأقصر نزور هناك آثار الفراعنة . وأحسست أنه يريد إرضائي ولو على حساب عمله ، وقدرت ما لعل زوج أبي أو بعض صديقاتي يتقولنه عليّ . فلم يكن سائغاً إلى يومئذ أن تنزل مصرية فندقاً في بلد مصري ، لهذا وذاك أبدت الرغبة عن مغادرة العاصمة وقبّلت زوجي شاكرة إياه من كل قلبي .

ولم يكن حديثي مع زوجي يتعدى حياتنا الخاصة . وكان هو يذكر لي مشاهداته في عمله ، وأحاديثه مع أصدقائه ، وقلما يجري على لسانه شأن من الشؤون العامة ، وكنت أقص عليه ما أراه في زيارتي لصديقاتي وما يجري في زيارتهن لي ، ثم يتقضى الوقت بعد ذلك ولا نحس كيف انقضى ولا نشعر بمروره . وكانت رغبة زوجي عن الخوض في الشؤون العامة طبيعية بحكم عمله ، وبحكم الظروف المحيطة به . فهو طبيب متصل بالناس على اختلاف ميولهم وألوانهم ، فلا بد له أن يحتفظ بحسن صلاته بهم جميعاً ، والجو الذي كان مخيماً على مصر يومئذ كان الحكم العرفي البريطاني ، وكان ما حدث إبان الحرب من اعتقالات يشيع في النفوس الحذر والخوف .

على أن انتهاء الحرب آذن بنشاط سياسي عام أخذ زوجي يحدثني عنه كل يوم ، ويروي لي طرفاً من أخباره . وبعد أشهر قبضت السلطة البريطانية

على الزعماء المصريين المطالبين باستقلال وطنهم ونفتهم إلى جزيرة مالطة .
هنالك قامت في البلاد كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، ثورة كانت العاصمة
روحها ومصدر الوحي بها ، وخاف أبى أن تتطور الثورة إلى عنف قد يصيبنا
شره . فاقترح أن تذهب السيدات إلى العزبة ، فراراً بهن من مصير
لا يعرفه أحد .

وسافرت دمع زوجى وزوج أبى وأخى الطفل فى سيارة زوجى ، ولشد
ما كان عجبى حين رأيت مظاهر هذه الثورة منتشرة فى كل مكان ، ورأيت
الفلاحين والفلاحات فرادى وزرافات لا يكادون يرونها حتى يهتفوا بحياة
مصر واستقلالها . هى ثورة شاملة إذن . أترانا نكون أكثر أمناً فى العزبة منا فى
العاصمة ؟ . لكننا ما لبثنا حين تخطينا أسوار المنزل إلى الحديقة واجتازناها
إلى داخل البناء أن رأينا فيه حصناً آمناً ، يبعدنا عن مظنة العدوان ، ثم مالبتنا
أن رأينا أهلنا وذوي رحمتنا أقبلوا علينا ، يهتفوننا بسلامة الوصول وبالنجاة مما
علموا أن القاهرة تعج به من أسباب الاضطراب . عند ذلك سكنت نفوسنا
جميعاً ، واطمأننا إلى حكمة والدى فى مشورته علينا .

وأقمنا أسابيع عدة بالريف ، وكان زوجى يذهب إلى القاهرة فى أثناء
الأسبوع ثم يحمى إلينا فى نهايته ، يقص علينا ما يجرى هناك . ولم يكن يجد
فى الانتقال مشقة ، لأن الأطباء كانت لهم حرية التنقل بتصريح عام خاص
بهم ، وقد قص علينا يوماً فى حماسة أن سيدات القاهرة خرجن فى مظاهرة ،
مرتديات براقعهن وحبراتهن ، وأن الجيش البريطانى لم يجرؤ على التعرض لهن
بأذى ، وأن هذه المظاهرات أثارت العاصمة كلها ، وتركزت فى النفوس أثراً

أعظم من كل ما سبقه .

وتولاني لسماع هذا النبأ ألم وأسف أن لم أكن هناك لأشارك المتظاهرات ،
ولأبدو أمام سيدات العاصمة في مظهرى الحق ، ولم أستطع أن أكنتم ما دار
بنفسى . عن زوجى ، فلما سمعه نظرت إلى فى ابتسام وقال :

أو كنت تستطيعين ؟؟ . . لاتنسى أنك حامل ، وهذا الحمل هو
الذى دفعنى للموافقة على مجيئك إلى هنا إشفافاً عليك من أن يصيبك اضطراب
العاصمة العصبي بأذى .

ولكن هذه العبارات لم تشف غلتى ، فقد تصورت السيدات سائرات
في مظاهرتن ، ورأيت صديقتى في مقدمتهن ، وشعرت بمكانى خالياً بينهما ،
ونخيل إلى لو أننى كنت معهن أشغل هذا المكان لكانت المظاهرة أتم روعة
وأشد لفتاً للأنظار . أترى تعود السيدات إلى تنظيم مظاهرة أخرى ، بعد عودتى
إلى القاهرة ، فأشترك فيها !! . . ولكن هبنى عدت ، وهب السيدات فكون
في تنظيم مظاهرة أخرى ، فما عساي أستطيع أن أفعل وأنا حامل !! . .

ولمح زوجى ما يدور بخاطرى ونخشى أن يطول تفكيرى فيه فرأى أن
يصرفنى عنه بالحديث فيما هو أحب إلى نفسى ونفسه . ولهذا سألتى : أترك
فكرت فى اسم طفلنا العزيز ولداً كان أوبتاً ؟ . . وحرك سؤاله غريزة الأمومة فى
دخيلة كيانى ، وحرك الطفل الجنين أحشائى ، وابتسمت كأننى فى حلم سعيد ،
ونسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وارتسم فى خيالى هذا الطفل العزيز حين مولده .
وبعد لحظة نسيت الطفل واسمه كما نسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وتعلقت
بعنى زوجى وقبلته بكل ما فى من حرارة الأنوثة والشباب والأمومة المرجوة

وقلت : أحبك .

ولم تنطق شفتاى بهذه الكلمة عن إرادة منى ، بل دفعها إليهما قلبي دفعاً ، لم يكن لهما من الاستجابة إليه بد ، فهذا الزوج العزيز هو مصدر هذه الأمومة التى أخصبت أحشائى وجعلتنى أسعد فى يقظتى وفى نومى ، بانتظار ثمرتها . وهل ترانى أو ترى كل امرأة تبغى فى الحياة أشهى من هذه الثمرة ؟ . . ولم أكن أعلم إلى يومئذ ما تحمل الأمومة معها من تضحيات وآلام ، ولم أكن إلى يومئذ أقدر الأعباء التى يحتملها الآباء والأمهات ، فى صمت وإذعان ، ولم أكن أستشف الغيب فأرى خلاله ما سأتجشمه ، وما سيتجشمه زوجى العزيز اليوم ، الشقى غداً ، بسبب هذه الأمومة وهذه الأبوة . لم يكشف لى فى تلك اللحظة عن شيء من هذا ، بل صور لى الشباب والحب حياة معطرة بشذا الورود والرياحين وبمنظرها البديع البهيج ، وسمت غريزة الأمومة فوق التفكير فى متاعها ، وزينت لى أحلامى أن الحياة طريق معبد ويثر تتدلى على جوانبه الأغصان الخضرة تكسوها الأزهار العطرة ، وفاضت عنى السعادة بهذا كله ، فازددت حباً لمن آمنت بأنه مصدر هذه السعادة ، ودفع قلبي إلى شفتى كلمة : أحبك .

انقضت على مقامى بالعزبة أسابيع أفرجت السلطات البريطانية فى أثنائها عن الزعماء المطالبين بالاستقلال الذين نفتهم إلى الماطة . بذلك هدأت النفوس الثائرة وإن لم تنطق ثورتها ، وأتاح لنا هذا الهدوء أن نعود إلى العاصمة وأن أستقر فيها ، وهناك انقضت أشهر الحمل ، وأثمرت أمومتى طفلة أنسانى بكاؤها ساعة مولدها ما تجشمت فى حملها تسعة أشهر من مشقة ، وشغلت بهذه

الطفلة عن كل شيء آخر ، حتى عن أبيها الذى كان يحبها من أجل كما أخذت أحبه من أجلها .

وعجيب حقاً ما طرأ بعد أمومتى على حبي زوجى . . لقد بقى هذا الحب قوياً كما كان ، لكن لونه تغير . . لقد كنت أحب هذا الرجل الشاب لذاته ، فكنت كلى له . . كنت أشعر بالسعادة إذا استطعت أن أزيده رضاً بالحياة وسعادة فيها . . كنت أشعر بأننى قديرة على أن أهبه كل نفسى ، وأن أضحي من أجله بحياتى . . كنت أشعر أننى بضعة منه لا غنى لى عن حبه ، ولا غنى له عن حبي ، وكنت كثيراً ما أذكر قول الشاعر :

كان حبيباً فى خلال حبيبه تسرب أثناء العناق فذابا

لأن قوله هذا كان يصور لنا حالنا فى كثير من الأحيان ، كان ذلك شأننا قبل أمومتى ، أما بعد أمومتى فلم أصبح قادرة على التضحية بحياتى من أجل زوجى ، لأن حياتى أصبحت ملكاً لهذه الطفلة التى تطالبنى بكل أسباب الحياة ؛ وكنت أرى زوجى يحنو على هذه الطفلة التى انفرجت أحشائى عنها ، ويلمع فى عينيه حب أبوى ، ندى بمعانى العطف والرحمة ، فكنت أحبه لذلك ، وكنت أزداد حباً له كلما ازداد حنوه على الطفلة وجهه لها ، وكنت أحس بأنه مطالب وإياى بتهيئة أسباب الحياة الناعمة لابنتنا ، وأنى مطالبة لذلك بتشجيعه على أداء هذا الواجب المشترك ، وأنا لا أملك من أسباب هذا التشجيع إلا الحب ، بهذا تغير لون حبي لزوجى وإن بقى قوياً كما كان ، وبهذا صهرت الأمومة عاطفة الحب كما تصهر النار الذهب وشكلته بالصورة التى ترضاها .

وللأمومة سلطان قوى قاهر لا يقف عند اختلاف التلوين لحب متبادل .
قصّت على إحدى زميلاتي ، وكانت قد سبقتني إلى الأمومة ، وكانت متزوجة
رجلاً يكبرها بخمس وعشرين سنة ، وكانت لذلك تحس نحوه الهيبة أكثر
مما تحس الحب ، إنها حاولت المواءمة بين شبابها وكهولته ، وأنفقت في ذلك
جهداً كاد ينتهي إلى اليأس . ثم إنها حملت ورزقت طفلة كطفلي فإذا
لون الحياة كله يتغير أمامها ، وإذا هذه البضعة من وجودها والحشاشة من
قلبها تحيل القتام المخيم عليها ضياء وضاء يكشف أمامها طريق السعادة في
الحياة ، وإذا هيبتها زوجها تنقلب تعلقاً به لتعلقه بهذه الطفلة ، وإذا هي
تجد في العناية بالطفلة ونظافتها ورعايتها ما يسعدها ويشغل كل وقتها ، وإذا
هي تنعم من أمومتها بكل ما تطمع فيه المرأة من نعمة الحياة .

وانقضت عشرون سنة أو تزيد على حديث زميلتي ثم جمعتي مجلس
بشيخ من كبار مفكرينا قصصت عليه في أثنائه طرفاً من شئوني وشجوني ،
وبعد أن أنصت إلى طويلاً في إصغاء زادني إمعاناً في حديثي ومحبة لهذا
الشيخ الجليل قال : إن حديثك لساحر ، وما ذكرته عن أمومتك الأولى بعيد
إلى ذاكرتي قصة المرحومة زوجتي - وكانت زوجه قد توفيت منذ أكثر من
أربعين عاماً - لقد تزوجتها ولما أبلغ الثلاثين . وكانت هي طفلة رقيقة متعلمة
كأحسن ما تتعلم الفتاة في ذلك الجيل . وكنت أترجم إذ ذاك كتاباً في الفلسفة
السياسية . وكنت أملئ عليها في الصباح ما ترجمته العشية لتكتبه بخطها
الجميل .

وانقضت بعد ذلك أشهر رزقنا بعدها ابناً . فلما استعادت صحتها

ونشاطها خيل إلى أننا قادران على العود إلى ما كنا فيه ، فأملينا وتكتب ، ولم يبد من جانبها على ذلك أى اعتراض . لكنى أدركت بعد قليل أننى أطلب المحال . فقد كنت أبدأ الإملاء وتبدأ الكتابة ، ثم سرعان ما تعتذر بأن الطفل يبكى . وتنفلت لترى سبب بكائه . وكثيراً ما كنت أتبعها لعلى أستطيع معاونتها فى شأنها كما كانت تعاوننى فى شأنى . وكثيراً ما كنت أحمل الطفل عنها لتهبىء له ما ترى أن تهيبه . وكانت تعتذرلى أحياناً وتحاول أن تدعو الخادم لتتولى معونها فكنت أرجوها ألا تفعل . وكنت أجد فى صحبتها وفى معاونتى لها ، وفى تدليل الطفل مكانها - على ما فى هذا التدليل من سخف لم أكن أسيغه - لذة أكبر اللذة . لأنها كانت تسرُّبه وتجزبنى عنه مزيداً من العطف والحب .

سمعت حديث جليسى الشيخ المفكر وهو يسوقه فى طلاوة تسحر الأذن وتدفعه إلى القلب . فلما أتمه قلت فيما بينى وبين نفسى :

ما أشبه حال هذا الرجل العظيم وزوجه بحالى أنا وزوجى ! . . لقد كانت زوجه تحبه من أجل طفلها . وكان هو يحب طفلها من أجلها ، وكانت الأمومة سرّ هذا وذاك ، كما كانت السر فى إنقاذ زميلتى من يأس يهددها ، حتى أضاعت الأمومة قلبها بنور الحياة ونعمائها .

كان من بين صديقاتى اللاتى جثن يهثنى بمولد طفلى ثم استمر تزاورنا ، من اشتركن فى مظاهرة السيدات السياسية التى أشرت إليها من قبل ، وكانت كل واحدة منهن تتحدث عن مكانها فى هذه المظاهرة وعن المجهود الذى بذلته قبلها وفى أثناءها بإفاضة وحماسة ، يشهدان بأنها تركت فى نفوسهن أثراً عميقاً ، ولم يقف حديث بعضهن عن المظاهرة وعن الأثر السياسى العميق

الذى كان لها . بل أخذن يتحدثن عما تستطيعه المرأة في ميادين الحياة العامة سياسية واجتماعية ، ويذكرن أن حجاب المرأة الذى حال إلى يومئذ بينها وبين اقتحام هذه الميادين يجب أن يزول ، ولقد ذهبن إلى أن هذا الحجاب سبب يجب التخلص منها . لأنه ينزل بكرامة المرأة إلى مكان وضع يهوى بقيمتها الإنسانية إلى حيث تصبح عبداً ومتاعاً للرجل لا أكثر . وشعرت في هذا الحديث بمقدمة ثورة اجتماعية رجوت - إن قدر لها التمام - أن تتم في هدوء وطمأنينة . على أننى لم أكن أستطيع الاشتراك في هذه الثورة الاجتماعية على شدة اقتناعي بضرورتها ، لأن أوموتى كانت تشغل كل وقتي وكل جهدى ، ولأننى خشيت أن أثربنى وبين زوجى زوبعة لا خير في إثارتها . لهذا بقيت راضية بما أنا فيه لأنعم بأوموتى ، وبحب زوجى ، وتركت لها تلك التأثيرات أن يفتحن الطريق إن وجدن إلى فتحه الوسيلة .

وأستطيع اليوم أن أقول إنهن نجحن في ثورتهن إلى حد بعيد ، ويرجع نجاحهن إلى أنهن سلكن في هذه الثورة سبيل الحكمة والتصون عن كل عنف ، فقد بدأن جهادهن في سبيل حريتهن بالنهوض بأعمال الخير ، عناية بالمرضى ، وبراً بالفقراء ، وعطفاً على الطفولة المشردة ، وما إلى ذلك من أعمال إنسانية تتفق مع فطرتهن ، ومع ما جبلت المرأة عليه من بروحان ، وما كان للرجال أن يعترضوا طريقهن في هذا السبيل ، بل أعانوهن وشجعوهن . وكان طبيعياً بعد ذلك أن تخلع المرأة حجابها وأن تلقى جانباً هذا البرقع ، ثم هذه « البيشة » التى كانت تستر بها وجهها ، لأن فاعل الخير والقائم بالعمل الإنسانى لا يستخفى ولا يتستر ، وإنما يستخفى المريب وذو النية المتهمة .

وطالب النساء بعد ذلك بألوان من الإصلاح الاجتماعى أقرهم الرجال عليها ،
ورأوا فيها للمجتمع صلاحاً وخيراً . وبهذه الحكمة وهذا الاعتدال استطاعت
الثورة الاجتماعية التى تمخضت عنها تلك المظاهرة السياسية الأولى أن تحطم
الحجاب ، وأن تفتح أمام الفتاة وأمام المرأة أبواباً كريمة ، كانت من قبل
موصدة فى وجهها . ولعلنا - نحن النساء - نستطيع بهذه الحكمة أن نحقق
لأنفسنا وللرجال وللمجتمع المصرى كله غاية ما تصبو الشعوب المتحضرة
إليه من رقى وتقدم .

استدار العام منذ مولد طفلى ، فإذا أحشائى تتحرك بأمومة جديدة .
ورزقت هذه المرة غلاماً كان قرة عين لى ولوالده ، برغم وضع متعسر ،
أشرف بى على الموت . ولهذا شعرت بأننى أديت للإنسانية وللجماعة المصرية
ما لهما على وعلى زوجى من حق ، بعد أن أنجبت هذين الطفلين ، وعاهدت
نفسى أن أقف بأمومتى عند هذا الحد ! . .

وقد وفيت بالعهد وإن كنت أعترف بأن نفسى نازعتنى غير مرة إلى نقضه .
وفى كل واحدة من هذه المرات كنت أقاوم غريزة ليست مقاومتها أمراً يسيراً ،
ولست أدرى أكان ما قاسيت حين مولد غلامى هو الذى شجعتنى على هذه
المقاومة ، أم شجعتنى عليها اعتبارات أخرى كنت أراها رأى العين ، ولا يحسب
كثيرات من النساء لها حساباً . بل إنى لأعرف من هاتيك الكثيرات من
لا تكاد تضع حملها وتتخلص من آلام ولادتها حتى تبسم رجاء أمومة
جديدة ، وكأنها تجد فى ألم الوضع لذة ، أو كأنما يعوضها الطفل الذى تنفرج
عنه أحشاؤها عن كل ألم ، وكأن ما يحشمها هذا الطفل من مشقة هو لذة

حياتها وكمال سعادتها .

والعجب أن النسوة اللاتي يتولين بأنفسهن شئون أطفالهن ولا تسمح
وسائلهن بالاستعانة بمرربة أو خادم هن اللواتي تتحكم فيهن غريزة الأمومة
ولا يفكرن في مقاومة سلطانها القاهر ، مؤمنات بأن ذلك من أمر الله ، وأن
الأطفال عطاؤه المحبب . وقد يكون لهاتيك المؤمنات عذرهن بإيمانهن .
أما بنات طبقتي المستسلمات لغريزة الأمومة ، العاجزات عن مقاومتها بعد
أن يرزقن طفلين أو ثلاثة ، فهن في نظري أعجب وأغرب ، لأنهن لا يدعن
أطفالهن للطبيعة كما تفعل الأوليات . وترية الطفل أشد عسراً من حمله
وميلاده ألف مرة .

وكان حرصى على عهدى أول ما اشتد الخلاف عليه بينى وبين زوجى .
فقد كان يؤمن إيمان العجائز بأن كل طفل يأتى ورزقه معه ، وبأنه هو الذى
يكد لحياة الأسرة ، وبأننا يجب ألا نعرض إرادة الله ! . . . وكنت أجيئه بأن
السعى للرزق لن يزيده إرهاقاً ، وبأنى أنا التى أحمل مشقة الأطفال ، حملاً
ورضاعة وترية ، لأننى لا أستطيع أن أدع طفلى لمرضع ، ولا أن أعتمد الاعتماد
الثام على المربية التى عندنا ، برغم ثقى التامة بها .

وقد تكرر اختلافى مع زوجى في هذا الأمر غير مرة في فترات متباعدة
امتدت بضع سنوات ، وكان كل منا يسوق خلال جدله ألواناً من الحجج
لا تحل من طرافة . . كان زوجى يقول لى أحياناً :

أو تأمنين غدرات القدر بأحد هذين الطفلين أو بهما جميعاً ؟ . . . وكنت

أجيئه :

وهل تأمن غدر القدر بك أوي أوبنا معاً فيتم أطفالنا ؟ . . أولاً ترى أنهم كلما كانوا أقل عدداً كان رزؤهم فينا أخف حملاً ؟ . . وكان يقول لى :

لقد نشرت الصحف اليوم أن فرنسا قررت للأسر التى يزيد أبنائها على طفلين مكافأة يرتفع قدرها كلما زاد عدد الأطفال . وكنت أجيبه :

إنما تريد فرنسا زيادة سكانها لتزيد فى الجيش ولتزداد الايدى العاملة عندها ! . . ولا أحسبنا أنا وأنت ، نريد أن يكون أبنائنا جنوداً أو عمالاً ! . . فلندع هذه المكافأة وهذا الفخر للمؤمنات بأموتهن ، واللاتى جعل القدر من حظهن وحظ ذريتهن أن يكونوا جنوداً أو عمالاً ، أو ممرضات أو عاملات . وكان إذا مرض أحد طفلينا ورآنى نازعتنى غريزة الأمومة وطمع فى أن أضعف أمامها أظهر لى من الحب والحنان ما أكاد أنهزم دونه ، ولكننى سرعان ما كنت أستجمع قوة المقاومة وأسمو بها فوق ضعفى ونوازعى وأقف بها إلى جانب عهدى .

وكثيراً ما كان يبدى دهشته ويقول :

هذا أعجب ما رأيت ! . . امرأة تقاوم سلطان الأمومة ، وتأتى أن تحمل وتلد ، وأب يريد لها أن تنجب فتقاوم إرادته . . لقد رأيت عكس ذلك غير مرة إشفاقاً من الآباء على أولادهم فى مستقبل حياتهم وعيشهم ، أما أن تقف امرأة هذا الموقف ، فلا تفسير له عندى إلا من أنانيتها وحرصها على شبابها وحريتها .

ولم يكن هذا الهجوم يزعجنى ، بل كنت أقاومه بسلاح المرأة . . كنت أبتسم وأعانق زوجى وأقول له :

هب هذا الاتهام الذى توجهه إلىَّ صحيحاً ، فلمن أحتفظ بهذا الشباب ؟! . . ألسنت أحتفظ به لك ؟ . . وأنت تعلم أن حريتى كقلبى فى ملكك ، وكنت أسوق إليه من معسول القول ما يذيب اعتراضه وغضبه ، وما يرده إلى حال من الرضا لا سبيل له إلى مقاومتها ، لأنه يعجنى بقلبه وعقله وكل وجوده .

على أن ذوبان غضبه لم يكن ينقله إلى معسكرى ، فقد كان عنيداً فى إصراره على رأيه ، لا ترحزحه عنه حجة ولا يصرفه عنه برهان ، وكان برغم ذلك ضعيفاً أمامى كل الضعف ، ضعف الأم لابنها . فكنت أنا طفله المدلل ، يعمل جهده إلى إجابة رغباتى وإن لم تعجبه ، ما دام لا يرى فيها مضرة ولا شنة . وقد انتهى بعد المناقشات التى دارت بيننا إلى الاقتناع بأن أمومتى من شأنى ، وأنه لا يستطيع أن يرغمنى فيها على شيء لا أريده .

وشاءت الأقدار أن تعاوننى على التثبيت بعزمى والوفاء بعهدى ، فقد كان فى مقدمة ما أدت إليه مظاهرة السيدات السياسية من تطور اجتماعى أن رفعت الحجاب ، وأباححت للمرأة أن تخرج مع زوجها أو أبيها أو أخيها أو الأقربين من محارمها ، وأن تتحدث إلى من يلقونهم فى هذه الحال من الرجال . وكانت المرأة من طبقتنا لا تملك إلى ذلك العهد أن تحدث رجلاً غير معرم ، فإذا خرجت إلى الطريق مع زوجها ، وصادفاً رجلاً يعرف الزوج . وأراد أن يتبادل معه مجرد التحية ، انتحت المرأة جانباً ، وأدارت

وجهها . حتى لا يراه هذا الأجنبي ، لأن وجهها كصورتها كانا عورة لا يجوز أن يطلع عليهما الرجال . وكان لزوجي أصدقاء من رجال السلك السياسى الأجانب لا أدرى كيف ولا متى عرفهم . فلما حدث ذلك التطور بدأ زوجي يدعوهم وقريناتهم لتناول الشاى عندنا ، وكان طبيعياً أن أقابلهم وأن أتحدث إليهم كما كان هو يقابل زوجاتهم ويتحدث إليهن .

وصادف ذلك التطور الاجتماعى تطور سياسى يقابله . ذلك أن اعترفت إنجلترا باستقلال مصر ، وأن أعيدت وزارة الخارجية المصرية ، وكانت قد ألغيت منذ بداية الحرب العالمية الأولى ، وترتب على عود وزارة الخارجية للدولة مستقلة أن بدأت تلك الوزارة تنظم التمثيل السياسى والقنصلى للبلاد فى الخارج . وبدأت أسمع أنهم يرشحون لهذه المناصب من فئات مختلفة كانت فئة الأطباء من بينهم ، ثم علمت أن أطباء من معارفنا رشحوا بالفعل لهذه المناصب .

قلت فيما بينى وبين نفسى :

ولم لا يعين زوجي فى لندن أو باريس أو روما فنستمتع بالحياة فى هذه العواصم الكبرى بما فيها من آثار الفن والجمال ، ويكون بيننا وبين الدبلوماسيين والقنصلين من كل الأمم علاقات طيبة نستريح إليها وتفيد مصر منها ؟ ! . فإذا تحقق هذا الأمل كان أوجب على أن أستمسك بعهدى وأن أقف بأموئى عند ابنى وابنتى ! . .

وداعبنى الأمل ، ثم تحكمت فى رغبة الالتحاق بالسلك الدبلوماسى ، فأفضيت لزوجي بخلجات نفسى ، وذكرت له أسماء الأطباء المرشحين لهذا

السلك ، وطلبت إليه أن يعمل جهده ليرشح كما رشحوا ، وكنت أظن أنه سيرحب بهذه الرغبة ويطير لتحقيقها . ولشد ما كانت دهشتي عندما أبدى لى الرغبة عن كل تفكير فى هذا الأمر . وكانت حجته أن الأطباء الذين رشحوا للسلك ليست لهم فى عالم الطب مكانة ، وليس لهم بين الأطباء مثل اعتباره ، فإذا هو بذل من جانبه أى مسعى لتحقيق رغبتى جنى ذلك على مركزه وعلى عمله . . . وهو ، بعد ، طبيب ناشئ استطاع أن يبلغ فى فنه بمجهوده مقاماً محموداً ، فمن سوء الرأى صرفه عن الطب إلى غيره إرضاء لتروة طارئة .

وعبثاً حاولت أن أعدل به عن رأيه . فقد بلغ من تشبئه به أن طلب إلى ألا أعود إلى مخاطبته فى الأمر ، أو إظهار الأسف على رغبته عنه ، وزارنى والدى يوماً فأبديت له رغبتى وذكرت له عناد زوجى ، فابتسم وقال : إن زوجك رجل عاقل ، وهو يعلم كما يعلم كثيرون أن هذه المناصب لا تعطى اليوم للشبان المتزوجين مجاناً ، فهل أنت مستعدة لدفع الثمن ؟ . . . وأجفت فزعة لسماع هذه العبارة ولم أخرج جواباً ، ولم أعاود الحديث مع زوجى فى هذا الموضوع من بعد ! . . .

ثم إننى قدرت بعد أن روّيت فى هذا الأمر أن أبى أراد بعبارة المزعجة أن يصدمنى ، ليصرفنى عن التفكير فى أمر لا يرغب فيه زوجى ، وذلك إبقاء على مودتنا ، وما يعرف من حبنا المتبادل .

ويمكن هذا التفكير من نفسى ، ودس إلى قلبى جرثومة أخذت تعبت بعاطفتى نحو زوجى وعملت هذه الجرثومة عملها بتوالى الأيام ، حتى توهمت

أن ما يقوله زوجي عن مكانته في الطب لا حقيقة له ، وأنه من قبيل الخداع
النفسى ، اعتذاراً عن عجزه عن أن يسعى لينال المنصب الذى أصبو إليه
وأن هذا العجز ضعف غير لائق بالرجال .

كان لاختلافنا هذه المرة من الأثر في نفسى ما لم أشعر بمثله حين اختلافنا
على تحديد النسل ، ففي هذه المرة الأولى كان الأمر كله بيدي ، وكان النصر
لذلك حليى ، من غير أن أتحمل في سبيله أية تضحية . ونحن في هذه
الحال أشد عطفاً على الهزيم وإشفاقاً من أن يناله بسبب انتصارنا ما يسوءه ،
لذلك كنت أقبل زوجي إثر كل مناقشة بيننا ، في أمر نسلنا لأهون عليه
هزيمته . أما بعد اختلافنا الأخير ورفضه أن يبذل أى مسعى لانتقالنا إلى
السلك الدبلوماسى ؛ فقد شعرت بأننى انهزمت ، وبأن هذه الهزيمة آذت
كرامتى ، وخيل إلى أن زوجي قصد إلى هذا الإيذاء متعمداً ، ولم يكن
يضيره أن يسعى ، فإن وفق فقد بلغت ما أردت ، وإن لم يوفق فلا ذنب
عليه ، ولن يصيبه من جراء ذلك فى عمله أى ضرر .

وحزّت هذه الكرامة المهينة فى نفسى : أأجزي بكل ما بذلته لإرضاء
زوجي بألا يعاب بالسعى لمطلب يناله من هو أقل منه وتناله من هى أقل
منى ؟! . .

وبلغ من حنقى أن خيل إلى أن زوجي ذهب إلى والدى وطلب إليه
أن يرذنى عن الإلحاح فى أمر لا يرضاه ، وأن ذلك كان السبب فى قسوة الجواب
الذى واجهنى به والدى ، حين أفضيت إليه برغبتي . ولو أن زوجي لم يفعل من
ذلك ما فعل ؛ ولم يظهر لوالدى معارضته رغبتى لاستطعت أن أستعين بوالدى

في السعي لتحقيق غرضي ، فله كلمة مسموعة في دوائر رسمية كثيرة ، وصلاته بأولى الأمر ندعوهم لمجاملته ! . . .

وجعلت أشكو حالي لبعض صديقاتي اللواتي هن في مثل سني ، فإذا كل واحدة منهن تشكو حالها ، وتكاد تعلن الثورة على زوجها . وجمعت هذه الحال بين خمس منا ، ففكرت زاورنا وكثر ترديدنا الشكوى من حالنا . تقول إحداهن إنها رغبت إلى زوجها في تغيير مسكنها فأبى ، وتقول ثانية إنها لا تكاد ترى زوجها الطبيب إلا ساعات الطعام ، فإذا حدثته في ذلك اعتذر بكثرة عمله ، وتسوق الباقيات أمثال هذه الأقاويل ، ويتكرر ذلك في كل زيارتنا ثم لا تزيد على الشكوى لأننا لم نكن نستطيع أكثر منها .

وفت في عضدنا أن إحداها غضبت من زوجها ولجأت إلى بيت أهلها فتلقاها أبوها عابس الوجه مقطب الجبين ، وقال لها في صرامة وحدة :

الواجب عليك أن تحمدى الله على ما أنت فيه ، وأن تقبلي يد زوجك صباح مساء ، فكم من مثيلاتك تعيش مثل عيشك في بحبوحة ونعمة ؟! . . . وزوجك رجل رقيق مهذب رضى الخلق ، وأنا لا أشك من غير تحقيق في أن الحق عليك من رأسك إلى رجلك ، فارجعي إلى بيت زوجك واعتذري إليه ، وإلا ذهبت أنا بنفسى ، واعتذرت إليه .

والعجب أن زوجي لم يتغير على في هذا الظرف برغم ما بدا من نفورى ، بل لقد ازداد لطفاً بي وعطفاً عليّ ، وقد بلغ من ذلك أن زال من نفسى كل شك في أنه يحبني من أعماق قلبه . . مع ذلك بقيت الرغبة الدفينة في الانتقال من الطب إلى السلك الدبلوماسى تساورنى . وكان اعتدادى بنفسى وبسحر حديثي

مصدر هذه الرغبة وإلحاحها علىّ فكنت أقدر أننى سأبلغ فى محيط هذا السلك مالا تبلغه امرأة غيرى . وقد بّنى هذا الاعتقاد متشبهاً بنفسى إلى عدة سنوات من بعد . وإنى لأذكر يوماً بعد هذه السنوات دخلت فيه إلى اجتماع للسيدات ، مصرية وأجنيات ، فلقينى بما تعودت من ترحيب . إلا زوج وزير ألمانيا المفوض ، وكانت متعالية تعند بجمالها ، وبجنسها ، وبمركز زوجها ، وبواسع ثقافتها ، فلم يسعنى إلا أن وجهت إليها نظرة ازدراء زلزلت كبرياءها ، ثم آليت على نفسى أن أتقن الألمانية ، وأن أقرأ خير مؤلفاتها بلغة العظماء من كتبها ، وعرفت السيدة المتعالية من بعض صديقاتى ما أقدمت عليه فانتهزت أول فرصة تلاقينا فيها لتقدم إلىّ معاذيرها . بذلك تصافينا واتصلت مودتنا ، ولم يلفتنى ذلك عما أخذت به نفسى فأتقنت الألمانية ، وقرأت بها « جيتى » و « هينى » و « نيتشه » ، وتأثرت إلى حد كبير بآراء « نيتشه » من أن القوة ، والقوة وحدها ، هى مصدر كل سلطان فى الحياة . وللمرأة من أسباب القوة ووسائلها الكثير مما لا سبيل للرجل إليه . . لها الذكاء ، ولها الحيلة ، ولها الرقة ، ولها سحر النظرات والحديث ، ولها الصبر . . الصبر الذى يمكنها من أن تحمل الجنين تسعة أشهر ، وترضعه عاماً أو أكثر من عام ، وتتولى بعد ذلك تربيته والعناية به . . أين للرجل هذه الوسائل التى تجمعها كلمة الأنوثة ؟ . . وهل تستطيع قوته المادية أن تتغلب عليها ؟ ١٩ . .

وقد استطاع زوجى بعد اختلافنا على الانتقال إلى السلك الدبلوماسى ، أن يتغلب على نفورى بحنانه ولطفه ، وبجبه إياى حباً كان يحرك كل قلبه

وكل حواسه وكل رجولته ، ثم إنه كان يحدثني كل يوم عن عمله في الطب ، وعن اطراد مكانته في السمو بين زملائه ، وعن كسبه الوفير منه ، كما أخذ يغدق على من صنوف الهدايا ما يهواه قلب المرأة من حلى ومجوهرات ، ومن تحف زخرفية بديعة تزدان بها حجرات المنزل وتتمتع العين بدقة صنعها وبارع جمالها ، وكم أغراني للذهاب بنفسى أختار من الثياب وأدوات الزينة ومن هذه التحف الزخرفية ما أشاء ، وانتهى بي لطفه إلى أن سكن نفورى فعدنا إلى سابق مودتنا .

ولكن حبي إياه كان قد خدش ، ولم يكن لي مع ذلك بد من التظاهر بأن شيئاً لم يحدث . وبأننا ما زلنا نتبادل الحب صفواً كاملاً . وماذا عساي كنت قادرة أن أصنع وبين يدي هذان الطفلان لا يزالان في غرارة طفولتهما بحاجة إلى عناية أبيهما وعطفه ، ولن يدور بخاطري أن ألجأ إلى بيت أبي فتشمت بي زوجته ، ويلقائي هو بوجه عابس أن ليس لي فيه أم يغفر حنانها ما لا يرضاه الأب الغضوب . لا مفر إذن من الصبر من أجل هذين الطفلين ، ومن أن أعمل على مداراة ذلك الخدش إن استطعت إلى مداراته سبيلاً .

وبالغ زوجي في العمل على مرضاتي . فلما كان الصيف سافرنا جميعاً إلى أوربا ، وسافرت معنا مربية أولادنا ، وقضينا في هذه السفرة زمناً سعدت به وبرئت نفسي في أثنائه حتى خيل إليّ أني كنت متجنية على هذا الزوج العزيز الكريم . . كم من مرة وقفت إلى جانبه على سطح الباخرة التي تجرى فوق لجة بحيرة « ليमान » واستمتعت معه بمغرب الشمس فوق قن الجبال المحيطة بها وبالهباء العذب الساحر ، الذي ينساب مع أشعتها الذهبية إلى



خادم الخديق تستاذن عليّ وتدخل إلى طاقه كبيره من أزهار شتى

الصدور ، ينعشها وينعش لقلوب معها .

وكم من مرة درت معه في أنحاء باريس في الليل أو في النهار . وكم بعدت بمشاهدتها ومسارحها وبمظاهرها الفتنة التي لا حصر لها فيها . وكم . . . وكم . . . وقد بلغ من إعجابي بهذا الرجل في هذه الفترة أنني كنت أنظر إليه في بعض الأحيان لا على أنه زوجي ، بل على أنه حبيبي ، حبيب قلبي وروحي ، فقد وهبني كل نفسه ليله ونهاره ، فلم يكن لي بد من أن أحبه كل نفسي وكل حياتي .

فلما عدنا إلى مصر ، وعاد زوجي إلى عمله ، وعدت إلى حياة المنزل لرتيبة . وانقضت من حولي هذه الغمامة الشعرية التي أحاطت بي في أوروبا . فلم يبق لي إلا ذكرها والتحدث لصديقاتي عنها ، عاودني الأسف أنا لم نتقل إلى السلك السياسي ، وخيل إليّ أن أهل هذا السلك يقضون حياتهم كما يقضي المصطفون حياتهم ، يتقلون حيث يشاءون ، وينعمون بحمال الطبيعة وبجمال الحضارة أينما يريدون .

وجلس ذات مساء بعد أسابيع من عودتنا إلى مصر أتحدث إلى زوجي ، وكان قد عاد من عمله وعليه آثار الغبطة ، فذكرت له رحلتنا وأثرها الجميل في نفسي ، فقال :

أرجو يا عزيزتي أن تتمكن من قضاء الصيف كل عام في بعض ربوع أوروبا الجميلة ، وما دام هذا يرضيك فإنه يسعدني ، وهل لي من سعادة إلا في رضاك وغبطة طفليتنا وراحتهما ؟ ! . .

ولم املك نفسي وقد سمعت عبارته ، فعانقته وقبلته شاكرة أجزل الشكر ، إذ رأيت في وعده هذا بعض العوض ، إن لم يكن كل العوض ، عن السلك السياسي ، وقد كنت راغبة في الانتقال إليه أشد الرغبة ! . .

الفصل الرابع

فى الأيام الأخيرة من شهر « نوفمبر » من تلك السنة ، أصيبت طفلتنا بنزلة شعبية حادة أرقنتى وأرقت والدها ، فلما برئت رأى زوجى أن أسافر بها وبأخيها والمرية ، إلى الأقصر ، ليقضى دفاء بجوها على كل أثر للمرض . وحجزنا أما كننا بفندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، وصحبنا زوجى إلى محطة العاصمة ثم ودعنا ساعة تحرك القطار وعاد تواء إلى عيادته يزاول عمله .

وقد شعرت ساعة وجدتنى وحيدة مع الطفلين بديوان سكة الحديد بشيء من الرهبة . . إن الديوان مخصص للسيدات ويغلب ألا يشاركنا فيه أحد طول الطريق ، فالأوريات يجلسن مع أزواجهن إلا أن يكن مسافرات وحدهن . . أما ولم تشاركنا مصرية ولا أوربية حين سفر القطار من القاهرة ومن الجزيرة فلا خوف من أن تصعد مسافرة بعد ذلك من محطة أخرى . وزايلتنى الرهبة بعض الشيء بعد ساعة أو نحوها من انطلاق القطار ، وإن بقيت أحسب ألف حساب لطارئ من الرجال يفتح الباب علينا ويحاول الجلوس معنا . ماذا عسائ أن أصنع لو أن ذلك حدث ؟ . . فليس فى الديوان جرس أستطيع أن أدعوبه من ينقذنى من مثل هذا الموقف ! . .

وصلنا إلى الأقصر ولم يحدث ما توهمته مخاوفي ، فلما بلغت الفندق وصعدت إلى غرفتنا عاودتني المخاوف . لقد نزلت في أوربا فنادق كبيرة شتى ، ولم يخامرني مثل هذا الشعور ، أترانى هناك كنت أكثر شجاعة ، أم ترانى كنت أكثر اطمئناناً إلى الناس ! . . لا هذا ولا ذاك ، لكننى كنت فى حماية زوجى وكنت مطمئنة فى جواره . . أما الآن وليس معى إلا المربية والطفلان فقد ألفتينى عزلاء مجردة من كل دفاع . . على أن مدير الفندق - وكان سويسرياً - أبدى لى من اللطف ما بدد الكثير من مخاوفي .

واستيقظت فى الصباح وأخذت زيتى وتناولت فطورى ونزلت إلى بهو الفندق ، فأقبل علىّ مديره ليطمئن على راحتي وراحة أطفالى ، واتصل حديثنا بالفرنسية ، فسألنى إن كنت أريد أن أزور قبر « توت عنخ آمون » ، وكان قد كشف من سنتين ، ليوفرلى أسباب هذه الزيارة . ولما كنت لم أزر الأقصر من قبل ، وكنت لا أريد أن يعرف الرجل ذلك عنى ، فقد ذكرت له أنى مرجئة زيارة الآثار حتى أطمئن على راحة طفلى ، وقصصت عليه مرض ابنتى ، وأننى جئت إلى الأقصر من أجلها . . وأبدى الرجل أشد الاهتمام بأمر الطفلة وقال :

« إن الشمس تغمر فناء الفندق معظم النهار . . وشمس الأقصر ممتعة جداً ، وتستطيع الصغيرة أن تتسلى باللعب مع أخيها فى حديقة الفندق ، وبين نزلاتنا أطفال استفادوا من جو هذا الفصل فى الأقصر فائدة كبرى . . . » .

وخرجت مع الطفلين والمربية إلى فناء الفندق نستمتع بدفء الشمس . وفرح الطفلان بهذا التغيير فى لون حياتهما واندفعوا إلى ناحية حديقة الفندق .

وتبعتهما مربيتهما ، فبقيت زمناً أحرق فيما حولى ، وأرقب هؤلاء السائحين ، رجالا ونساء ، وقد جاءوا إلى مصر من أقصى الأرض ، يستمتعون بجوشتائها المنعش ، وبمشاهدة مناظرها الخالدة على صفحات الطبيعة وفى صحف التاريخ .

فلما قربت الظهيرة قمت أسير فى طريق يشطر الحديقة حتى بلغت باباً من الخشب مقفلاً ولكنه غير موصد . وصادفنى عند هذا الباب بستانى حيانى وقدم لى باقة من زهر البنفسج ، ثم فتح لى الباب الخشبى وقال :
تفضلى يا سيدتى إن شئت ، فقد تجددين بعض معارفك فى حديقة « ونتر بالاس » ! . .

وكان هذا الباب الخشبى يفصل بالفعل بين حديقتى الفندقين : الأقصر وونتر بالاس ، وذكرت هذه اللحظة صديقتى التى مات زوجها ، تاركاً لها ولذريتها الضعاف تركة قيمة ، طمع فيها أهله فنعوا ورثته من الاستيلاء عليها وعلى إيرادها . وكانت أم صديقتى ذات ثراء ، وكانت شديدة الإعزاز لابنتها ، لأنها كانت وحيدتها بين إخوة ثلاثة قادرين على الكسب الوفير ، لذلك أتاحت لها المتاع بالحياة بعد انقضاء مراسم الحزن على زوجها ، فسافرت إلى الأقصر ، وتركت أبنائها فى رعاية أمها ونزلت ونتر بالاس : فلما ذكرتها تخطيطت إلى حديقة الفندق الفخم لعلى أجدها : ألا ما أبدع هذه الحديقة وأبهاها ! . . وما أحقر حديقة فندق الأقصر إلى جانبها ! . . فهذه الأشجار الباسقة وهذه الأزهار النضيرة ، وهذه الملاعب الفسيحة للتنس ، وهذه الغزلان والطيور الجميلة فى الحظائر ، وهذه المقاعد الوثيرة بأشكالها المختلفة

٩٣

منشورة في كل ناحية من الحديقة ، والشمس والظلال تتداول جوانب المكان المعطر بشذا الأزهار ، هذا كله لم أشهد له نظيراً فيما زرت من فنادق أوربا . وهذا كله يجوس خلاله نفر قليل من الرجال والسيدات ، كثرتهم من الأجانب ويلعب في بعض أرجائه أطفال ، كأنهم الأزاهير ، لفرط العناية بهم وبما يلبسون .

درت في أرجاء الحديقة ألتمس صديقتي فلم أجدها ، وعلوت السلم المؤدى من الحديقة إلى الفندق آملة أن أجدها في بعض أبنائه ، أو أسأل عنها بعض رجاله ، فعلمت من البواب أنها ذهبت في صحبة إلى بيبان الملوك ، وأنها ستكون لا ريب ساعة الشاي في البهو الكبير ، ودلفت من باب الفندق إلى شرفته . . يالللجلال والبهاء والعظمة والجمال ! . . فهذه الشرفة الرفيعة البديعة ، تطل على منظر كله الروعة لا نظير له في العالم ، تطل على النيل تنساب مياهه السماوية الزرقة ، هادئة هدوء هذا الفصل الرقيق من السنة ، وتنساب فوق مياهه الزوارق ، ذاهبة آية بين طيبة الأحياء ، وطيبة الأموات ، وقد تطوف أحياناً حول جزيرة نائنة في النهر حتى تغمرها مياه الفيضان . وعلى الجانب الآخر من النيل تدرج هضاب « طيبة الأموات » في ارتفاع حتى تختلط بالسما عند مدى النظر .

ووقفت إلى جانبي سيدة رأتني أخذت في إعجاب إلى هذا المنظر البديع ، وعلمت أنني نزلت الأقصر العشية ، فحيتني بالإنجليزية وقالت :

إن هذا المنظر يكون أبداع بكرة الصباح وساعة المغيب وأشد سحراً . . وهذه الجبال التي تبدوا مامك الساعة وقد غمرها ضوء الشمس ، وكاد وهجها

يحجبها عن النظر ، تبدو في الإصباح والإ مساء وقد بادرتها الشمس ، او انحدرت من ورائها ، ورسمت عليها خطوطاً من أشعتها الذهبية ، تخاليفها سطوراً تنطق بما احتوته هذه الجبال في جوفها ، من فراعين وملكات ، ومن قسس ووزراء ، ومن فعال هؤلاء وأولئك وكيف كتبوا من تاريخ الإنسانية صفحه الأولى . إنني أهيب بك أن تجيئي إلى موقفك هذا بكرة الصبح ، وساعة المغيب ، ليتضاعف متاعك بالنيل والصحراء والجبال وما تحدث عنه من تاريخ ما قبل التاريخ ! . . .

وأقمت مكاني زمناً مأخوذة بالمنظر الساحر أمامي ، فلما امتلأت منه العين والجوانح عدت إلى فندقى اتفقنا الطقلين العزيزين واشرف مع المربية على طعامهما ، وتحدث إلى زوجي تليفونياً من القاهرة ، ليطمئن علينا فطمأنته على كل شيء ، وغفوت غفوة الظهيرة ، أستريح بها من شقة سفر أمس ، فلما دنا موعد الشاي ذهبت من جديد إلى « وتر بالاس » وما كدت أدخل البهو الكبير حتى رأيت صديقتي في جانب منه ، فقصدت إليها وجلسنا معاً إلى مائدة لا ثالث معنا حولها ، وإنا لنتجاذب أطراف الحديث إذ أقبل علينا رجل ناهز الثلاثين ، فحيا صديقتي ثم أحنى رأسه تحية لى واستأذن وجلس . وعلمت أن هذا الرجل من الأقصر وأن له في فنادقها شأنًا ، وسرعان ما أدركت أنه كثير التردد على نزلاء هذه الفنادق ونزيلاتها . فما كاد يشاركنا الحديث حتى رأيته يذكر لصديقتي أسماء طائفة من نزلاء « وتر بالاس » ونزيلاته ، ومن نزلاء فندق الأقصر ونزيلاته . ويروى عن هؤلاء وأولئك ، وبخاصة عن هاتيك اللاتي ذكر أسماءهن ، أبناء تنقلاتهن وملابسهن ومبلغ

انسجام ملابس السهرة على هذه وعدم انسجامها على تلك ، وكيف ترقص هذه ، وكيف ترقص تلك . والحق أنى ضقت بحديثه . لكن ما أبداه فى أثناء الحديث من استعداد للقيام بأية خدمة أرغب فيها اقتضى مجاملته بل ملاطفته . . ولعل كثيرات غيرى من نزيلات الفنادق كن فى مثل موقعى ، يتظاهرن بالمجاملة والملاطفة انتظاراً لخدمة يؤديها هذا الرجل ، أو تقديرأ لخدمة سبق له أدائها ! . .

وأحسست ساعة المغيب تدنو ، فاستأذنت صاحبتى وصاحبها لخمس دقائق ، ودلفت إلى الشرفة فألقيت السيدة التى وقفت إلى جانبي ساعة الظهيرة ، وكأنها فى انتظارى . . ورأنتى مقبلة فصاحت :

« أترين هذا المغيب البديع ؟ . . لكأن الشمس علمت بأنك تريدن مشاهدتها فجملت الوجود كله بزيتها . . انظرى . . انظرى إلى النهر والسماء والجبال ، وكأن المغيب يضمها جميعاً فى غلالة من ذهب » .

وانطلقت السيدة تصف ما ترى مأخوذة ، كأنها واقعة تحت سلطان منوم مغناطيسى مقره قرص الشمس ! . . وأخذت بالمنظر وبحديثها ووقعت أنا الأخرى تحت سلطان هذا المشهد الفذ من مشاهد الطبيعة ، فلما آن للمساء والنهر والجبال أن تخلع زينتها عدت إلى مجلسى مع صديقتى ، وقد غلبنى البهر فعقد لسانى ، فلما أقفت من بهرى أخذت أتكلم وأصف ما شهدت : وأصغيت لصوتى ولعباراتى ، فإذا هى أنغام توقع لحن هذا المشهد الفذ الرائع . وقضيت فى هذا الحديث زمناً رأيت الرجل فى أثنائه مسحوراً فلما كاد يتولاه البهر الذى كان قد تولانى ، تركت « وتر بالاس » وعدت إلى فندقى وإلى طفلى .

وأصبحت بكرة الغد وتناولت فطوري ، ثم إذا خادم الفندق تستأذن على وتدخل إلى طاقة كبيرة من أزهار شتى كلها الفتنة والجمال ، شبكت بها بطاقة صاحبنا الأقصرى الذى تناول الشاى معنا أمس فى « وتر بالاس » . . ولم يكن عجبى لجرأته دون سرورى بهذه الأزهار البديعة الفاتنة . وطلبت إلى الخادم فأحضرت من الآنية ما وزعت فيه الأزهار لأزين بها جوانب غرقى . فلما اطمأنت إلى أن كل آنية وضعت حيث يجب أن توضع أدت نظرى فى الغرفة ، وارتسمت على ثغرى ابتسامة الرضا . فالأزهار تنشر فى المكان الذى توضع فيه بهجة . وتبعث إلى القلب المسرة ، وإلى النفس الغبطة والطمأنينة ، ودعوت طفلى ومرييتهما ، فاستمتعوا معى بهذه البهجة وهذا الجمال .

وهبطت إلى بهو الفندق فإذا صاحبنا الأقصرى جالس فى صدره ، وكأنه ينتظرنى . فلما رآنى أقبل علىّ وحيانى وعلى ثغره ابتسامة عريضة . . وشكرته وأثنت على أزهاره وتحدثت إليه هنيئة حاولت الانصراف بعدها ، فاستوقفنى وقال إن عربته تحت تصرفى ، لأزور بها آثار الأقصر جميعاً ، وإنه يسر إذا قبلت مصاحبتة إياى فى زيارة معبد الكرنك ، ليشرح لى من أسراه ما لا يعرفه أقدر التراجمة من أبناء المدينة . فشكرته واعتذرت له أن لدى اليوم شواغل تحول دون مغادرتى الفندق إلى زمن طويل ، وإنى مضطرة لذلك أن أرجئ زيارة الآثار إلى يوم آخر . . وقبل اعتذارى فى لطف وأسف ، ثم قال إن صديقتى لا تبرح « وتر بالاس » اليوم ، لأنها تريد أن تستريح من مشقة زيارتها ببيان الملوك أمس .

وانصرف الرجل . وخرجت أرى طفلى فى فناء الفندق وحديثه . .

ثم إنني اصطحبتهما ومريتهما إلى حديقة « وتر بالاس » ، وهناك ألقيت صديقتي ممددة على كرسي طويل ، وفي يدها قصة تقرأها . فهي لم تكن تطيق أن تقرأ من الكتب غير القصص ، واتجهت نحوها فلما دنوت منها رفعت بصرها عن كتابها ثم قامت وحيثني ودعت البستاني فجاء بكرسي طويل آخر تمددت عليه ، إلى جانب كرسيها ، فلما استقر بنا المجلس اتجهت إلى بنظراتها الفاتنة وقالت :

« خبريني ! . . ماذا فعلت بهذا الأقصرى ؟ ! . . لقد سحريك سحراً ، بل جن بك جنوناً . . إنني لم أره قط ، كما رأيته أمس بعد أن غادرتنا . . لقد انقلب على حين فجأة شاعراً مفلقاً ، فنظراتك ، ولفطاتك ، وحديثك ، وهندامك ، ورقتك ، ولا أدري ماذا كذلك كانت مدار حديثه طول سهرته ! ولقد سهر طويلاً وأسهرني معه ، ولم يكن يتابع بنظراته الحائرة حركة الرقص على عادته ، فقد كان في شغل شاغل عن ذلك كله بالحديث عنك ، عنك أنت وحدك حتى خيل إلى أنه يعرفك من زمن وأن بينكما مودة ، فلما أخبرني أنه رآك أمس أول مرة وأنت معي ، . . تولتني الحيرة : أي طلسم تحمليين أضله عن صوابه كل هذا الضلال ؟ » .

وتبسمت ضاحكة من قولها وقلت :

« أنت تبالغين يا عزيزتي . وإن هناك لطرازاً من الرجال ذلك شأنهم حين يرون امرأة لأول مرة ، وما يدريك لعل هذا الأقصرى يوم رآك للمرة الأولى قد قضى سهرته حديثاً عنك ، وقضى ليله تفكيراً فيك ، وهو لا ريب

قد حمل إليك صبح الغداة من ذلك اليوم طاقة كبيرة من أزهار جميلة شبكت بها بطاقته ، ووضع تحت تصرفك عربته تزورين بها الآثار ، واستأذنتك في أن يصحبك إلى معبد الكرنك ، ليشرح لك من أسرار ما لا يعرفه أقدر الترجمة في المدينة » .

وقالت صديقتي :

« بل أنت التي تبالغين ، صحيح أنني تلقيت غداة وصولي إلى هنا ومقابله إياي للمرة الأولى طاقة من الأزهار ، لكنها لم تكن كبيرة ولم تشبك بها بطاقة ما ، وهو قد صحبني إلى الكرنك ، لكنه لم يصحبني وحدي ، بل كنا جماعة من زوار الأقصر رجالا ونساء ، وكان أكثرنا من الأجانب ، وكان معنا ترجمان تولى الشرح ولم يتوله غيره ، أما عربته فإنه يتلطف بإرسالها إلى كلما ذكرت له أنني ذاهبة إلى نزهة خلوية ، أثرية أو غير أثرية ! . . » .

سمه - دات هاعطت فستان بين ما ذكرته صديقتي وما كان معي ، وصديقتي جميلة حقاً ، فارعة القوام ممثلة في غير سمته ، في عينيها حور وفي نظراتها سحر ، إذا مشت لفت مشيتها النظر ، وإذا ابتسمت أسعدت ابتساماتها جلسها . وهي مؤمنة بجمالها وبسلطانها على كل من يراها ، وهي مع ذلك تذكر لي من أمر الأقصر ما ذكرت ، ليس الجمال وحده صاحب السلطان إذن على الرجال ، فهذا الأقصرى الذي سحر في لحظات - بحديث عن جمال بلده - يستطيع أن يقرأ مثله أو خيراً منه في الكتب ، ويستطيع أن يسمع مثله أو خيراً منه من غيري ، قد سحره لا ريب شيء آخر غير الألفاظ التي اشتمل عليها الحديث ، وهذا الشيء الآخر هو سر السحر الذي يهر كل

من يسمعى ، هو سرى أنا ، سر السلطان الذى أحسه ، ولا يحيط السحب
بكل مصادره .

ولكن من هذا الأقصرى الذى ضقت أمس بحديثه حتى تخرجنى الغبطة
بسحره لى عن موجب الرزاة وحسن التقدير ! . . لقد أحسنت صنعاً بالاعتذار
عن مصاحبتة إياى إلى «الكرنك» ، وخير لشابة مثلى أن تلزم جانب البقطة والحدرد .
مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر ، فلم تلحظ صديقتى
شيئاً منها ، واستطرد بنا الحديث وأنا إلى جانبها فى شئون وشجون . بعد أن
قصت على فى إيجاز مشاهداتها فى آثار الأقصر وبيان الملوك وبيان الملكات ،
وإننا لنى حديثنا إذ مر بنا أجنبى وقف إلى جانبها فحياها بيده ، وحيانى بإشارة
من رأسه ، وتحدث إليها لحظات حديثاً عادياً ، دعاها بعده ، ودعانى
وإياها ؛ لتناول الشاى ثم انصرف . وذكرت لى صديقتى بعد انصرافه أنه
ألمانى مهذب مشغل بالآثار ؛ وأنه يحضر إلى الأقصر كل شتاء منذ سنوات
للتابعة أبحاثه ؛ وأردت منها أن تعتذر إليه عن عدم قبولى دعوة لم توجه لى ؛
إلا لوجودى معها ؛ فابتسمت وقالت :

« من يدرى ! . . لعلها وجهت إلى أنا من أجلك ؛ وعلى أية حال لا ضير
عليك من قبولها ؛ وأؤكد لك أنك لن تأسنى لمعرفة هذا الرجل ؛ فهو مهذب
واسع الأفق والثقافة ؛ حلو الحديث ؛ لطيف المجلس ، وهو لا يقيم بهذا
الفندق ، ولا يكثر التردد عليه ، ولم أره هنا يومين متعاقبين منذ جئت إلى
الأقصر ، لهذا أرجوك أن تكونى معنا هنا ساعة الشاى ، ولك أن تعتذرى
وتنصرفى بعد قليل من تناوله ! . . » .

وألحت الشبة الجميلة فنزلت على رجائها ، وجئت للموعد فألفيت الرجل قد حجز لك مائدة وجلس إليها ينتظرك ، وأقبلت صديقتي وطلبنا الشاي وأخذنا نتحدث . وعلم مضيفنا أني جئت الأقصر لأول مرة في حياتي . فأخذ نفسه بأن يرسم لي - من هذه المدينة الصغيرة التي كانت من قبل عاصمة الفراعنة - صورة تحييها أمام خيالي في عهود عزها وجلالها ، وتصفها في حاضرها بعيدة كل البعد عن هذه العزة وهذا الجلال ، لولا معبدها الضخم القائم على شاطئ النيل الأيمن ، ولولا القبور العجيبة التي نحطها الفراعنة مقراً لحياتهم الآخرة في جوف الهضاب الناتئة على الشاطئ الأيسر ، وأخذ يتحدث في هذا حديث عليم ساحر الحديث طيلة تناولنا الشاي . فلما فرغ من القول شكرته ثم أبديت له عجبى من أولئك الأقدمين ، كيف تخيلوا حاجة الروح بعد الموت لطعام هذه الدنيا ومتاعها ، حتى كانوا يدفنون مع الميت القمح والزهر والحلى ، وما إلى ذلك من ألوان المتاع ، وانتقلت من هذا الحديث إلى غيره ، وإلى غيره ، وجعل هو ينجيني إلى ما أسأل عنه . وطاب لي المجلس فلم أعترض ولم أنصرف ، بل أقمت أستمتع بحديث مضيفنا وبأنغام الموسيقى ، حتى لم يبق في بهو الفندق معنا إلا نفر قليل . . عند ذلك قلت مبسمة :

« أظن أنا لم يبق لنا من الانصراف بد ، وأنا أشكر صديقتي وأشكرك يا سيدى ، وأستاذكما في العود إلى فندقى » .

قال الألماني :

« أو تأذنين يا سيدتى أن أصاحبك إلى هناك فالطريق طريقى وأنا أقيم

على مقربة من فندق الأقصر ، وانتقل الحديث في أثناء الطريق من الفراغة إلى مشاهداتي في أوربا ، وأصغى الرجل لحديثي عن جمال سويسرا ، ثم سألتني عما إذا كنت قد زرت ألمانيا ، وأبدى الأسف حين قلت إنني لم أزرها ، وذكر أنه سيكون في برلين الصيف المقبل وتمني لو التقينا بها وتعرف إلى زوجي هناك .

نزلت صباح الغد إلى هو الفندق ، فالتفت صاحبتنا الأقصرى في مكانه لأمره . وأقبل عليّ حين رآني وذكر لي بعد التحية أن الأثرى الفرنسي ، الذي يشرف على عملية التنقيب بالكرنك ، ويقوم في منزل تجاه المعبد ، يقيم اليوم حفلة شاي ، وأنه علم بمقدمي من مصر . فأبدى الرغبة في حضوري هذه الحفلة والاستعداد للمجيء إلى الفندق لدعوتي إذا كنت مستعدة لقبولها . وتحدث الأقصرى عن هذا الأثرى الفرنسي ، مثنياً على أعماله ، محبذاً قبول الدعوة ، فلما أبدت أنني لا أرفضها قدم بطاقتها باسمي ، قلت : لا داعي إذن لتجشيم الرجل مشقة الحضور بنفسه . فبدت على محيا الأقصرى علائم الغبطة ، وقال :

« سأصحبك إذن في عرّيتي إلى هناك » .

وذهبتا بعد الظهر معاً وتم التعارف بيني وبين الفرنسي وسائر المدعوين إلى الحفلة . وبعد أن تناولنا الشاي ذهبنا في زيارة قصيرة إلى الكرنك ، رأينا خلالها ما أسفرت عنه عملية التنقيب . على أنني خرجت من هذه الزيارة القصيرة وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت من جلال هذا المعبد وفخامته وعظمته ، ورأى الفرنسي إعجابي فقال إنه يسرُّ بمصاحبتني في أرجاء المعبد كله دليلاً

يشرح لي بعض أسراره ، ونظرت إلى صاحبي الأقصرى مبتسمة ابتسامة من يسأل :

« أي الدليلين أختار ، هو أم المشرف الفرنسي على المعبد ؟ » . وجواباً على ابتسامتي وجهه هو الحديث إلى المشرف قائلاً :

« متى قررت السيدة زيارة المعبد أحطت لك تليفونياً وحضرت معها لأستفيد جديداً عن آخر ما وصل إليه تنقيبك ! . . . » .

قضيت أسبوعين على هذا النحو بالأقصر ، أستبشر كل صباح بمشاهدة طفلي زادهما هذا الجو البديع نشاطاً وصحة ، وأتفق مع الطاهي على ما سيقدم لهما من طعام . وأقضى ما وراء ذلك متاعاً بنفسى وبصديقتي وبمعارفي ، الذين ألقاهم في حديقة « ونتر بالاس » أو أجلس إليهم ساعة الشاي في بهوها ، أو أزورهم بعد العشاء أحياناً قليلة ، أسمع موسيقى الرقص ، وأمتع النظر بحركات الراقصين . وفي هذين الأسبوعين زرت آثار الأقصر في طيبة الأحياء ومقابر الفراعنة ملوكاً وملكات في بيانها ، وزرت الكرنك مع فوج من السائحين في ضوء القمر . وأشهد لقد كنت سعيدة بمن عرفت من الأحياء سعادتني بهذه المشاهد الخالدة الباقية على الدهر بقاء الدهر ، فكانت هذه وأولئك يشغلونني في يقظتي وفي نومي . لأنني لم يكن يشغلني شيء سواهم ، ولأنني كنت في هذه الفترة أقضي نهاري ويلي كما يقضي السائحون نهاتهم وليلهم ، لا هم لهم إلا المتاع بالحاضر ، لا يشغلهم غدهم عن يومهم . ولا يفكرون إلا فيما تقع عليه أنظارهم وما تلهمه مشاعرهم وحواسهم ، وكذلك نسيت السلك الدبلوماسي ، ونسيت تحديد النسل ، ونسيت القاهرة . بل

نسيت أوربا ، لأن الحاضر أمامى كان يملأ فراغ وقتى ، ولا يدع لى فرصة للتفكير فى شىء غيره .

فلما صدمنى الواقع بأنا عائدون إلى القاهرة بعد غد ، شعرت كأننى أفيق من حلم سعيد للذيد . وكأنى إنما جئت إلى الأقصر لأمسى ، واستبد بى هذا الشعور حين رأيت المربية صبح الغد تعد متاعنا للسفر . لم يبق لى إذن إلا أن أودع كل ما رأيت ومن رأيت خلال هذين الأسبوعين السعيدين ، لم يبق لى إلا أن أودع هذه الغرفة التى احتوت أحلام يقظتى ونومى بفندق الأقصر . وهذا البهو وقاعة الطعام ، وهذا الفناء ، وهذه الحديقة ، ولقد كانت ملعب طفلى ومهبط أشعة الشمس المحسنة إليهما ، وأن أودع حديقة ونتر بالاس وبهوها وشرفتها والنيل وبيبان الملوك والملكات مما تطل هذه الشرفة عليه . وأن أودع صديقتى وصاحبها الأقصرى وهذا الألمانى المثقف الظريف الذى تردد علينا بضع مرات كنت أحس ، كل مرة منها بأنه أوسع ثقافة ، وأكثر ظرفاً ! . . نعم . . لم يبق لى إلا أن أودع من رأيت ، وما رأيت ، وأن أقول لهم ولها :

إلى الملتقى إن قدرلنا أن نلتقى ها هنا مرة أخرى ! . .

وخرجت إلى فناء الفندق أشرف على الطفلين حتى تنزل المربية إليهما بعد أن تفرغ من إعداد المتاع ، واتجه نظرى إلى باب الفندق الخارجى فيما وراء الحديقة ، ودارت برأسى خواطر مبهمة أوحى بها خلجات نفسى ، ترى لوأتنى جئت إلى هنا العام المقبل ، أترانى ألتقى بمن أودع اليوم ؟ . .

وابتسمت فى مرارة حين ارتسم أمام بصيرتى الجواب الطبيعى لهذا السؤال :

نعم . . سأرى الصديقين وحديثتهما ، وسأرى النيل والمعابد ، وقبور
الملوك والملكات ، كما أرى شمس الأقصر وقمرها .

أما صديقتي والأقصرى والألماني ومديرا الفندقين ومن إليهم من رجال
ونساء يقيمون هنا ، دعك من السائحين والسائحات ، فلا علم لي ولا علم
لأيهم ما مصيره بعد عام ، بل بعد شهر ، بل بعد يوم ، فقد يرجع الألماني
إلى وطنه ثم لا يعود . وقد يمرض أحدهم وقد يموت . ألا تفسد هذه الحياة
لا نتمسك منها إلا بخيال سريع التنقل سريع الزوال . . وما أشهاها مع ذلك
وما أذهها وما أطيب ما نسيغه من حلول متاعها ! . . أتراها تكون كذلك لو أن
الأحياء كتب لهم البقاء كما كتب على المعابد والنيل والشمس والقمر ؟ . .
ونزلت المربية فركبتها مع الطفلين ، وأخذت طريقاً إلى حديقة « وتر
بالاس » ، وهناك جلست أتحدث إلى صديقتي حديث الوداع . وأنا كذلك ،
إذ أقبل الأقصرى فجلس إلينا يشاركنا في هذا الحديث ، ثم قال ساعة
انصرافه إنه دعا الألماني ، كما دعا الفرنسي المشرف على أعمال التنقيب
بمعبد الكرنك ، لتناول الشاي معنا قبيل المغيب ليقوم الجميع بتوديعي .

واجتمعنا حول مائدة الشاي ، واستمعنا إلى الموسيقى ، وتحدثنا فلما آن موعد
انصراف حيائي الفرنسي بكلمات تسيل رقة ، ونمني لي عوداً سعيداً إلى بيتي ،
وعانفتني صديقتي وتبادلنا قبلات حارة . . وقال الأقصرى إنه سيراني مرة
أخرى على محطة سكة الحديد صباح الغد . أما الألماني فقد أصر على مصاحبتني
إلى فندق ، فطريق طريقه إلى مسكنه . فلما بلغنا باب الفندق وقف يودعني
وأخرج من جيبه علبة صغيرة وقال :

« أرحوب سيدتى أن تقبلى هذا التذكار الصغير لتعارفنا القصير ، خلال هذه الفترة الوجيزة ! . . إنه لا يعبر عما أشعر به نحوك من إكبار وتقدير فحسب ، ولكنه يذكرنى كذلك عندك كلما رأيته » . . وشكرته وفتحت اللعبة قبل أن ينصرف ، فرأيت بها حلية صغيرة دقيقة الصنع غاية الدقة ، فلما أبديت إعجابى بها قال :

« لقد صنعتها بنفسى ، وإن لم تكن صياغة الحلى صناعتى » ، ثم ودعنى وانصرف .

وفى الصباح الباكر جاءت عربة الأقصرى فانتقلنا بها إلى المحطة فإذا هو ينتظرنا على إفريزها ، فلما آن لنا أن نستقل القطار وصعد إليه الحمال بمتاعنا رأيت مع المتاع زنبىلا أشار إليه الأقصرى وقال :

« إنها هدية صعيدية لا تليق بالمقام ، تأكلونها شفاء وعافية ! » . وانطلق بنا القطار ، وأنا وحيدة فى الديوان مع طفلى ، أستشعر رهبة ، ولم أشعر بحاجة إلى دفاع . وغلب النوم الطفلين لتكبيرهما فى اليقظة ، فاستلقى كل فى ناحية ، ورحت أنا يتردد خيالى بين الأقصر ومقامى بها ، والقاهرة وإقبالى عليها ، لكنى ما لبثت بعد قليل أن نسيت القاهرة وتعلقت بالأقصر ، ذلك أننى حانت منى التفاتة إلى متاعنا فأخذ الزنبىل بنظرى ، وأحيا صورة الأقصرى فى ذهنى ، وأحيا صورة بلده . ودفعنى منظر الزنبىل ، وتوهم ما فيه إلى المقارنة بينه وبين الحلية التى أهدانيها الألمانى ، وبين ذوق كل من صاحبي الهديتين . وأدت بى هذه المقارنة إلى أن أسأل نفسى :

أفكان من حقى أن أقبل أيا من الهديتين ؟ . . صحيح أن هدية الأقصرى

قد زج بها بين متاعى من غير عمى ، وأنها فوق ذلك طعام لن يبق له غداً
أو بعد غد أثر ، وأستطيع إذا سألتى زوجى أن أذكر له كل شئ عنها . .
ولكن ماذا عساي أقول إذا سئلت عن هدية الألمانى ، وكيف سولت لى
نفسى قبولها ؟ . .

وأعترف ، لقد بهت وتولتتى الحيرة ، حين أردت الجواب على هذا
السؤال . . وفى الحق كيف قبلت هذا التذكار ؟ . . وكيف جرؤ الألمانى على
تقديمه لى ؟ . . وما معنى هذا الصنيع من جانبه ؟ . . ليس للتذكار قيمة مادية
ذات شأن : لكن تقديمه إلى ساعة توديعى مشفوعاً بالعبارات التى نطق بها
كان يوجب على أن أتدبر الأمر أكثر مما فعلت ، وأن أشكر وأعتذر عن عدم
قبول هذا التذكار . . ولكن بماذا كنت أعلل اعتذارى ، من غير أن أدخل
بواجب الأدب والمجاملة ؟ . . إن الرجل لم تبدر منه فى كل المرات التى جلس
لينا فيها أية بادرة لا ترضاها أدق قواعد الذوق ، وعبارته الأخيرة أنه يقدم
لى هذا التذكار ، لما يشعر به نحوى من إكبار وتقدير ، عبارة مختارة أدق اختيار .
فلو أننى اعتذرت ولم أقبل تذكاره ، لكان اعتذارى جافاً لا يصدر عن إنسان
مهذب !

لكن ما عساي أن أقول لزوجى حين يرى هذا التذكار ؟ وهلا أقص عليه
أنباء جولاتى ، وكل ما رأيت فى الأقصر ، وأنا إنما سافرت إليها من أجل
ابتنتا لتمام يرثها ؟ إن هذا التذكار ليفتح على أبواباً ما أغنانى عن فتحها
أفأخفيه عن زوجى تخلصاً من كل سؤال وجواب ؟ إن كبريانى وكرامتى
لتأبيان ذلك على ، لأننى لم أرتكب إثماً فأتستر عليه . . ولكن هلا يثير هذا

التذكّار في نفسه من الغيرة ما قد يجنى على مودتنا وعلى حبنا المتبادل ثم يعذره كل إنسان عن غيرته ، وإن لم يكن لي في ذلك ذنب ولا جريرة . .

جعلت أقلب هذه الأمور في نفسي ، والقطار ينهب بنا الطريق إلى العاصمة . فلما بلغها ألفت زوجي في انتظارى على المحطة ، ولحّت في نظراته وهج الشوق العنيف ، وخيل إليّ أنه يريد أن يتلّغني ابتلاعاً . لكنه اكتفى بتقيل الطفلين وإظهار الرضا عن صحتهما . فلما دخلت منزلنا وأزلت عنى غبار السفر ولباسه ، وتزينت للنوم ، وأوى الطفلان إلى مضجعهما ألفت بنفسى بين أحضانه وسكبت في فمه كل ما اجتمع في جسمي . وفي قلبي ، وفي عواطفى . وفي وجودى كله مدى وجودى بالأقصر من مشاعر وإحساس . وتلى هو قبلى فزادته شوقاً لي . وأذبت نفسى وروحى فيه . وانتشرت بذلك في كل وجوده . فلما آن لنا أن نتحدث لم نجد ما نقوله . إننا كلينا هنا وكفى . . وبعد ألفاظ قليلة مبعثرة تبادلناها قال :

أحسبك متعبة من مشقة السفر طول النهار . . فليرد عليك النوم راحتك وطمأنيتك . . ولنتحدث غداً عن الأقصر وما كان فيها . .

واستيقظت صبح الغد في ساعة متأخرة فألفيته ذهب إلى عمله وعدت أفكر فيما كان يشغلنى وأنا بالقطار فقلت : يجب أن أقصّ عليه كل شيء . . ويجب أن أذكر له الألماني وتذكّاره . . إن ما شهدته منذ بلغت القاهرة ليدلنى على أن لي عليه من السلطان ما كان لحواء حين أغوت آدم فأكل من شجرة الخلد ، وسأرى ما يكون لذلك من أثر ثم أتصرف .

وعاد من عمله مبكراً وقبلنى قبله شدة من عزمى . فلما جلسنا سألنى

وعلى ثغره ابتسامة الرضا عما رأيت وصنعت فى الأقصر . فذكرت له صديقتى التى مات زوجها ، فاستولى أهله على تركته . وذكرت كيف كان يجتمع إلى مائدتها « بونير بالاس » قوم أولوظف وكياسة . يتناولون الشاى ويتحدثون ، منهم الأقصرى الذى أهدانى الزنبيل ساعة سفرى ، ومن هديته ستناول طعامنا بعد هنية . ومنهم ألمانى مهذب واسع الثقافة ، كان قليل التردد علينا ، وقد قضى عليه ظرفه ساعة ودعنى أن يهدينى تذكاراً دقيقاً من صنع يده . وفتحت العلبة الصغيرة التى احتوت التذكار وأريتها لزوجى ، فلما رآها قليلة القيمة المادية لم يبد اهتماماً بها . وذكرت الأثرى الفرنسى المشرف على أعمال التنقيب بالكرك . ثم ذكرت الكرك وما تركه فى نفسى من أثر عميق حين زرت مع صحبة فى ضوء القمر . وبيان الملوك ، وقبرتوت عنخ آمون ، ومقابر الملكات . وذكرت ذلك كله وذكرت النيل ومغارب الشمس البديعة . وأخذت أتحدث وأتحدث وهو يصغى إصغاء مأخوذاً من سحر حديثى . ثم ختمت الحديث بأنى كنت أغتبط بذلك كله ، ثم أزداد غبطة حين أستيقظ فى الصباح . فأرى طفلينا يزادان نشاطاً وصحة . ويزيدانى بذلك هناءة وسعادة ، ويجعلان من مقامنا بالأقصر فلذة من نعيم ، كان يضاعف لو أن والدهما كان معنا يستمتع بمتاعنا ، ويزيدنا سعادة بمتاعه ! . . قبلنى زوجى حين فرغت من حديثى ، وشكر لى عنايتى بالطفلين . ثم قمنا وتناولنا غذاءنا وخلوت بعد ذلك إلى نفسى راضية عن نفسى . هأنذى لم أخف شيئاً عن زوجى ، وما هو ذا مطمئن مغتبط ، وهذا طيبعى ، فلا جناح على امرأة إذا رأى الناس فيها جاذبية أدتهم منها وحببت إليهم

مجلسها ، أوراوا في حديثها ما أخذ بسمعهم وأبصارهم . . فم إذن كان ترددى وأنا بالقطار؟ . . وفم كانت خشيتي أن أثير هواجس الرجل أو أثير غيرته ؟ . . إننا كثيراً ما نجسم أمام خيالنا أموراً لا جسامه في الواقع لها ، وكثيراً ما نضطرب أمام اعتبارات لا شيء فيها يوجب الاضطراب .

على أنني ابتسمت بعد هنيهة في نفسي وتساءلت :

أكان الأمر يتم بكل هذا اليسر لولا أنني سكبت في جنان زوجي كل ما اجتمع في جسمي وفي عواطفني ، وفي وجودي كله ، من حس ورغبة ، ولولا أنني أذبت نفسي وروحي فيه ، وانتشرت في كل وجوده لأول ما خلوت إليه بعد أن بلغنا القاهرة ؟ . . وهل كان الأمر يتم في مثل هذا اليسر لولا لواعج الشوق التي كانت تحرك كل روحه وكل عصبه ، ولولا ما يكن قلبه من حب فرض عليه كل سلطانه ؟ . . إن شوقه وحبه هما اللذان نصراني بعد أن أَرْضَيْتُهُمَا بكل ما ينطوي عليه وجودي من أسباب إرضائهما ، وبعد أن تعاونت أسباب هذا الإرضاء في ذكاء ومقدرة فلا أغمط حق نفسي ، ولا أهون من قدر سلطاني القاهر ، فلولاً هذا السلطان لواجهت اليوم موقفاً ما أدقه وأعسره ! . .

وتعاقبت الأيام وأقبل الصيف وفكرت في السفر إلى أوروبا . ولم أكن في ريب من إجابة زوجي رغبتى . فقد رضى سلطاني وأقره وخضع لحكمه برغم ما كان يبدو أحياناً من تحكه ، لأنه رأى في هذا التحكم لونا من دل المحب يزيده إغراء . على أن أمراً حدث حال دون هذا السفر ، فقد مرض والدي واشتد به المرض حتى كان الأطباء يعودونه صباح مساء ، وكان زوجي

هو المشرف على تنفيذ العلاج الذى يقررونه ، فلم يكن مستطاعاً أن ندعه فى علته ونسافر إلى ربوع الاصطياف والتسليه . فلما برئ كان الصيف فى مولياته ، ولم أكن أحب الإسكندرية منذ سافرت مع والدى إليها بعد موت أمى ، لذلك استقر مقامنا بالقاهرة حتى إذا كنا فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر رأى زوجى أن من حق أن أستريح ، فاقترح أن أذهب مع الطفلين والمربية إلى الأقصر كما فعلت فى العام الماضى . وحجزنا أماكننا فى فندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، فلما بلغت الفندق وجدت الأقصرى والألماني فى بهوه . . وأقبلا مع مدير الفندق وقالوا :

لقد أخبرنا المدير بمجيئك فانتظرناك لنقول لك : حمد الله على السلامة . . ثم ذكر أن صديقتى نزلت « ونتر بالاس » وودعانى وانصرفا . وذهبت مبكرة بعد ظهر الغد إلى « ونتر بالاس » فألفيت بهوها خالياً فتخطيت إلى شرفها أودى للنيل ولما وراءه فى الجانب الغربى تحية إكبار وإجلال . ولم يطل وقوفى حتى رأيت الإنجليزية التى وقفت إلى جانبي فى العام الماضى تقبل على وتقول :

« هاللو ، أرايت أنك لم تستطعى مقاومة ما لهذا المنظر الساحر من سلطان فجنحت حاجةً إليه هذا العام كرة أخرى . ذلك شأنى معه من أعوام عدة ، لا يكاد الشتاء يقبل حتى أشعر بدافع يجذبني إلى هنا لأؤدى لهذا المشهد الفذ فرضاً ، حاولت غير مرة أن أنتصل منه ، ثم لم أجد مفرّاً من أدائه . وحديثي بربك ، أى شعور يملكك حين تهبطين مئاث الدرج إلى قبر فرعون نقشت جوانبه بطلاسم « كتاب الموتى » ، ثم ترين مكان تابوته أوبقية من آثاره ! . .

إن الرهبة التي تملكني في تلك اللحظات لتريني العالم الآخر وتريني ملكوت
السموات . ألا ترين أنت أيضاً شيئاً من ذلك ؟
وأجبتها :

« إنني لم أتردد بعد على تلك المقابر ما ترددت لأرى فيها ما ترين . .
إنما ملكني شعور العجب كيف ينفق هؤلاء الملوك ، كل ذلك الجهد ويسخرون
في سبيله ألوف العمال وعشرات آلافهم . لينقروا في جوف الصخر قصور
قبورهم ! . . » قالت - وفي لهجتها شيء من الإنكار على :

« كلا ياسيدتي ، لا تقولي هذا الكلام ، فلو أنهم لم يفعلوا لما خلدوا
للأجيال المتعاقبة على الدهر هذه الآثار الباهرة الضخمة ، التي تحدث عن
حضارة روحية أضاعها عالمنا المادي الأحمق ! . . إن هؤلاء الأقدمين في
مصر والهند والصين قد هدتهم حكمتهم ، وخلدوا من آثار علمهم وفهم وحضارتهم
مالاً قبل لعالم اليوم بمثله ! . . إنهم كانوا يعيشون مطمئنين إلى خلد أرواحهم
فكانوا يقيمون لهذه الأرواح المقر اللائق بها ، أما نحن فنعيش في عالم
مضطرب سريع التغير لا نستطيع أن نتمسك منه بمعنى من معاني البقاء ،
وحسبنا لذلك منه حياتنا على الأرض وما أقصرها ، وما أتفه ما تكسبه
أرواحنا في أثنائها ! . . وإني لأشعر يوم نلتقي هؤلاء الأقدمين في ملكوت
السموات أنا سنرى أنفسنا أقزاماً إلى جانبهم ، ونرى حضارتنا هباء إلى جانب
حضارتهم » .

واستأذنت محدثتي وعدت إلى بهو الفندق وجلست إلى مائدة في أحد
جوانبه ، وبعد قليل رأيت صديقتي قادمة من ناحية المصعد فقامت إليها ،

وتهادينا التحية ، وجلسنا حول المائدة وعدنا إلى مثل حالتنا منذ عام ! . .
وإنا لكذلك إذ جاء الألماني ووقف هنيهة يتحدث إلينا ثم انصرف معتذراً
بأن لديه موعداً لا فكاك له منه . قالت صديقتي : « خبريني . . ماذا صنعت
بهذا الرجل ؟ إن الأقصرى ليدكر أنه مجنون بك ، وإنه يقول إنه يرى الله
في السماء ويراك على الأرض . . » فضحكت ضحكة ذات مغزى وقلت :
« وهل تصدقين الأقصرى ، لعله يراى أضيق به أحياناً ، وأنى أجامل
هذا الألماني ، فدفعته الغيرة لأن يقول لك ما قال . إننى لم أر هذا الألماني في
العام الماضى إلا معك ، وكنت أراه معجباً بك . وما أحسب الأقصرى يريد
بكلامه لك وقية بيننا ! . . »

قالت صديقتي :

« لا أظن بالأقصرى هذا الظن . والألماني رجل مهذب رقيق . ألا ترين
أنه كان بأبى إلا أن يرافقتك إلى الفندق كل مرة يجالسنا فيها ، فكان يدعنا
وينصرف معك حتى لا يدعك تسيرين وحدك » .
ولم أر أن أجيب فانصرفت بالحديث إلى موضوع آخر .

لست أنكر أنى اغتبطت في دخيلة نفسى لما ذكرته صديقتي عن عواطف
الألماني نحوى ، لكنى رأيت أن أقطع عنى ألسنة المتقولين بالتزام جانب
لحيطة والحكمة ، فكنت إذا أردت الانصراف وهو في مجلسنا ، دعوت
سيدة تقيم مثلى بفندق الأقصر ، ولو كانت على مائدة غير مائدتنا ، لنعود
بعد ذلك إلى الفندق معاً ، فلا يفكر هو في مرافقتي ، فإن فعل لم يكن
لصديقتي ولا للأقصرى ولا لغيرهما أن يقولوا شيئاً .

ورأيت يوماً زوج صديقة لى ، كنت أعجب بمنطقه ، وكنت أعلم أنه ينزل ونتر بالاس ، فلما رآنى جاء يحيينا فاستبقته هنية ثم قلت : « حان موعد ذهابى إلى فندقى » ، وقلتها بلهجة فهم منها أنى أريد مرافقته إياى . وكان ذلك بالفعل قصدى إبعاداً لشبهة الألمانى . وصحبنى زوج الصديقة وهبطنا الدرج إلى الحديقة والوقت قد أمسى والظلام مد رواقه ، وعثرت قدمه ، فقال وكأنما يعتذر عن عثرته :

« تباً لإدارة هذا الفندق . ما ضرر لو بعثروا بين أشجار الحديقة بعض الثريات الكهربائية ؟ » . . . وبدرنى عن غير عمد أن قلت :

« يا عبيط ! » . . . ولم ترضه كلمتى فلم يسكت عليها بل قال : « لولم تكونى زوجاً لصديقى ! ! » ، ولم أجب للحظتى ، ولولا الظلام لبدت على وجهى حمرة الخجل . . . على أننى قلت بعد برهة : « مالكم معشر الرجال تسرعون إلى سوء الظن حين لا يكون لسوء الظن موضع ؟ » . . . ولم يرد هو متابعاً هذا الحديث فأداره بذكاء إلى اتجاه آخر .

ويظهر أن الألمانى فطن لحذرى وأراد التغلب عليه ، فقد صادفته يوماً ساعة نزولى من غرفتى لأذهب إلى موعد الشاى « بونتر بالاس » . فلما رآنى تقدم إلى ، وحيانى فى لطف وأدب وقال :

جئت أدعوك لقضاء النهار بعد غد فى البر الغربى حتى تشهدى ما تجريه مصلحة الآثار فى الدير البحرى ، وستناول طعام الغداء هناك . وبدت على الحيرة ، فلم يدع لى فرصة للاعتذار بل قال :

« وقد لاحظت ما بدا من حذرك هذا العام ، فدعوت صاحبتنا الأقصرى

ليكون معنا ، وقد رجوته أن يقنع صديقتك بمرافقتنا كذلك ! »

قلت :

إن كان الأمر كما تقول فأنعم بها من صحبة ! . .

قال وكأنما صفحته عبارتي :

« لست أفهم يا سيدتي حذرك هذا . فهل بدرمني ما يوجب الريبة ؟ . . وهل سمعت مني كلمة خدشت سمعك ؟ . . أم أن ذنبي بل جريمتي أنني معجب بك إعجاباً لا حد له ، معجب بذكائك ، وبروحك المضيئة ، وبحديثك الساحر ، وبكل شيء ؟ . .

« ومتى كان الإعجاب جريمة يجزى مجزأها هذا الجزاء القاسي ؟ . . هأنذا صارحك بما يدور في نفسي نحوك من عاطفة ، لن تزداد على الأيام إلا سموً ، ولست أنا وحدي الذي ملكني الإعجاب بك ، فكثيرون ممن رأوك أو استمعوا إليك يعجبون كيف يكون فندق الأقصر أو فندق ونتر بالاس مسكناً للملاك مثلك . ولو أن ذلك كان سائغاً لشادوا لك قصرًا يحجون إليه كلما نزلته ، فأمثالك اللاتي وهبن القدر ما وهبك يا سيدتي قليلات ، فلا تسرفي في التواضع ولا تجعلي من إعجابي بك جريمة تقتضي الحذر مني والبعد عني ! . . إني لا أريد أن أسمع منك جواباً على ما قلت ، فإني بعد غد ، بعد فطورك ، إلى الملتقى ! . . » . وتركتني وانصرف .

وتولتني إثر هذا الحديث الذي يكاد يشبه الاعتراف دهشة أذهلتني ، فبقيت مستلقية في مقعدي مضطربة النفس ، لا أدري ماذا عساي أفعل ، فلما هدأت قمت متحاملة على نفسي إلى « ونتر بالاس » وجلست مع

صديقتي . وسرعان ما جاء الأقصرى . وبعد هنيهة غمز بعينه وقال :
« نحن إذن ضيوف الألمانى بعد غد إلى الجانب الغربى ، لنرى الدير
البحرى وما يجرى فيه » .
وقالت صديقتي :

« وقد ألح صاحبنا هذا على لأقبل الدعوة برغم علمه بأننى شهدت من
الآثار مالا حاجة لى بعده أن أشهد جديداً . »
قلت : هذوء متكلف :

« لقد كنت موشكة أن أعتذر لولا حرصى على صحبتكما . فإن شئنا
اعتذرنا جميعاً ، ولا يزال فى الوقت متسع » .

قال الأقصرى متحمساً : « كلا يا سيدتى . إن اعتذارنا يسيء إلى رجل
رقيق مهذب جاملنا بدعوته إيانا . ولم يسيء فؤاد إلينا وأنا موقن أننا سنقضى
بعد غد يوماً من الأيام التى لا تنسى ! » .

وقضينا بعد غد يوماً بالفعل لا ينسى . كانت الشمس محسنة كعادتها ،
وكان الهواء ناعماً رقيقاً . وتخطينا النيل فى زورق شرعى انساب على هون فوق
مياهه الهادئة المطمئنة . ودرنا بين آثار « طيبة الأموات » وتماثيلها ومقابرها ،
حتى إذا انحدرت الشمس شيئاً ما بعد الزوال تناولنا غداءنا فى استراحة
« توك » ، وذهبنا بعد ذلك إلى الدير البحرى ، فتلقانا الفرنسى الذى يقوم
بالأعمال هناك ودار معنا فى أرجاء الدير ، وأرانا فى مخزن إلى جانبه بعض
ما عثر عليه فى أثناء حفرة وتنقيبه ، وكان يشملنا طول نهارنا جو مودة أذهب
غنى الحذر . وجعلنى أشكر الألمانى من كل قلبي أن هياً لنا فرصة هذا اليوم

المتع الضريف ، وكان الأقصرى يتعد عنا أحياناً مع صديقتى فلا أضيق بذلك ولا أنكره . إن ما صبه الألمانى فى سمعى من آيات إعجابه قد صادف هوى فى فؤادى وأرضى كبريائى ، وهو اليوم سعيد بصحبتى . يريد أن يسمع منى أكثر مما يريد أن يتحدث إلى ، وأنا ضئيلة بالكلام وهو راض مع ذلك كل الرضا بما أقول . ويرتد الأقصرى مع صديقتى إلى ناحيتنا فتولاهما الدهشة لصمتنا ، لأنهما لا يدركان المعنى الإنسانى السامى الذى تنطوى عليه جوانحنا والذى يقرب بين روحينا وعقلينا ، وإن لم تضطرب بسببه ذرة من أعصابنا أو جسدنا .

وعدنا حين قاربت الشمس المغيب فأقلنا الزورق إلى وتر بالاس ، ورافقتى الألمانى إلى فندق الأقصر بعد أن اعتذرت لصديقتى بأننى متعبة شديدة الحاجة إلى الراحة . واحتوتى غرقتى فأزلت عنى غبار النهار ، واستلقيت على سريرى أستعيد صور هذا اليوم الجميل السعيد . وبهذه الصورة اتصل الحديث الذى صبه الألمانى فى أذنى أول أمس فازددت غبطة وسرت فى عروقى نشوة أشعرتنى الرضا والنعيم ، وتناولت طعام العشاء فى غرقتى وأويت من جديد إلى فراشى كأنما أريد أن أستعيد هذه الصورة المنعشة المسعدة . وارتسم خيال الألمانى وراء هذه الصور كأنه يحركها ، وأغمضت جفنى لعل أنام فإذا النوم يحفونى ، وإذا هذه الصور تزداد وضوحاً أمامى ، وإذا بى أشعر كأن هذه الصور تنحدر بى إلى لون من الحسن يقشعر له بدنى ، ويضطرب به تفكيرى . وطال ذلك بى إلى ساعة من الليل لم أدر ما هيه ، وأخيراً غفوت ويظهر أننى قد طالت غفوتى ، فقد صحت فإذا الأطفال هبطوا مع مربيتهم

إلى الحديقة . ودعوت الخادم فأقبلت تسألنى ما بى ؟ ثم أحضرت لى طعام فطورى ووقفت إلى جانبي تطمئن على صحتى . وهبطت إلى البهو ، وطلبت زوجى بالقاهرة تليفونياً ، ومكثت سوية أنتظر دعوتى لمحدثته .

وإنما طلبت زوجى لأننى شعرت بالحاجة الماسة إلى سماع صوته ، بل شعرت بالحاجة الماسة إلى وجوده بجانبى . لقد رأيت فى أثناء غفوتى أننى علوت أعلى هضبة فى الشاطئ الغربى ، وأن ريحاً عاتية هبت ساعة المغيب فدفعتنى أندحرج على سفحها ، وأصيح بأعلى صوتى فلا ينقذنى أحد ، ولعل هذا الصباح هو الذى دعا الخادم لتسألنى عن صحتى وما بى ، وجعلت أندحرج وأندحرج ، وأصيح وأصيح ، ثم إذا يد محسنة وصدر حنون تلقيانى . ونظرت إلى صاحب هذه اليد وهذا الصدر فإذا هو زوجى ، فلما استيقظت صممت على محادثته ودعوته ليجىء إلينا ! . .

ودعيت لمحدثته وسمعت صوته يسألنى فى انزعاج :

« كيف أنتم ؟ ماذا حدث ؟ . . لماذا طلبتنى ؟ ! » قلت : « كن مطمئناً ، إننا جميعاً على خير ما تحب ، لكننى شعرت منذ تركت القاهرة أننا ظلمناك . فأنت أحوج إلى الراحة منا ، إنك لم تسرح طول الصيف ، فاحضر إلينا فاقض معنا أسبوعاً فالجوهنا كفيل بأن يعيد إليك طمأنينة نفسك وراحة أعصابك ، وحسبك أن ترى الأطفال يرحون سعداء فتكون سعيداً بهم ، وبى ، فتنى تحضر ؟ . . خبرنى لأخطرهم هنا فى الفندق » . . قال :

لا شئ أحب إلى من أن أراكم هاتين سعداء ، وسأحضر بعد يومين بالقطار الذى يصل الأقصر بكرة الصباح . وماذا تريدان أن أحضر لكم من

القاهرة ، لك وللأطفال ؟ .. وشكرته وقلت له :

إلى اللقاء .. وانتهى حديثنا ، وأنا أسعد الزوجات .

وأسرعت إلى « ونتر بالاس » وأخبرت صديقتى بأن زوجى سيحضر بعد يومين ، وأذاعت صديقتى النبأ وعرفه كل معارفنا ساعة الشاى ، فلما أويت إلى مخدعى بعد السهرة تولانى العجب من نفسى ، فلماذا دعوت زوجى ؟ .. يجب ألا يعلم أحد أننى أنا التى دعوته ، بل يجب أن يعلموا أنه هو الذى قرر الحضور من تلقاء نفسه ، ويجب أن يفهم الألمانى ذلك بنوع خاص حتى لا يظن أننى أردت أن أحتفى بزوجى منه .. ومن نفسى .. إن كبريائى لتأبى على أن أضعف ، أو أن يتوهم أحد أننى عرضة لأن أضعف ، يجب أن أكون دائماً صاحبة رأى ، وصاحبة السلطان ، وأن يستجيب الغير لإرادتى وسلطانى بدافع من أنفسهم ، ومن غير أن أطلب إليهم شيئاً طلباً صريحاً . فلما جاء زوجى بكرت لملاقاته ، وبعد أن تهادينا تحية كلها الود ، وبعد أن اطمأن إلى صحة الطفلين وهناءتهما قلت له :

« لقد فهم الناس هنا أنك أنت الذى أردت أن تحضر بدافع من عواطفك نحونا وشوقك لنا ، وراقى هذا الذى فهموا فلم أعترضه ، ولا شك فى أن ما فهموا من ذلك يرضيك ويسرك ؟ .. » واغتبط زوجى لفهمهم الأمر على هذا الوجه وأكدده لهم ، وأقام معنا أسبوعاً عدنا بعده إلى القاهرة ! .. وفى خلال هذا الأسبوع دعوت الألمانى والأقصرى ودعوت صديقتى لتناول الشاى ولتناول العشاء معنا بفندق الأقصر ، وأعدت على مسامع زوجى أمام الألمانى أنه هو الذى أهدانى التذكار الذى أريته إياه فى العام الماضى ، وطفنا

جميعاً معاً لرى زوجى من آثار الأقصر ما لم يكن رآه . فلما اقرب موعد سفرنا وحانت لحظة استطاع الألمانى أن يحدثنى فيها على حدة قال : « أرجو أن أراك هنا العام المقبل ، وأرجو أن تأذنى لى إذا حضرت إلى القاهرة أن أزورك هناك » قلت :

« أولا تريد أن ترى زوجى كذلك بالقاهرة ؟ » .

قال : « ذلك شأنك أنت ، لكننى أصبحت أشعر أنه لا غنى لى عن أن أراك وأستمع إلى حديثك ولو مرة فى كل عام . ولو اقتضى الأمر أن أحج إليك كما يحج المسلم إلى مكة والمسيحى إلى بيت المقدس ، ليرفع إلى ربه دعاءه ، كذلك أريد أن أرفع إليك فى كل عام دعائى وآيات إعجابى صادقة خالصة لوجهك الكريم ! » .

وابتسمت ولم أجب أمانة أننى أغتبط بذلك ولا أعرضه ، وكفته ابتسامتى ، ليشكرنى وليحمد لى أن لم أر فى إعجابه إنمأً يوجب التريب عليه ! . .

وعدت مع زوجى والطفلين والمرية إلى القاهرة وأنا مغتبطة أشد الاغباط بأن دعوته فحضر إلينا بالأقصر . ولم يكن مرجع غبطتى أنه حمانى من ضعف نفسى ، ولم يكن أيسر على من أن أتغلب على هذا الضعف ، وأن أخضعه لإرادتى وسلطانى ، لكن هذا الأسبوع الذى قضاه بالأقصر أتاح له فرصة لا يسمح عمله بأن يتاح له مثلها بالقاهرة أتاح له أن يرى إعجاب المعجبين بى . أجنب ومصريين ، وأن يدرك أننى لست امرأة ككل النساء ، صحيح أنه يحبنى ويقدرنى ويستجيب لكل رغبائى ، لكنه كان فى حاجة إلى أن يرى

ما أرى ليزداد إكباراً لى ، وتقديراً لما يجب أن يكون لى فى الحياة من مكانة ،
وليعلم أننى يوم أردت أن تنتقل إلى السلك الدبلوماسى إنما أردت أن أسمو
بنفسى وبه إلى هذه المكانة الواجبة لى وله !

أما وقد رأى بعينى رأسه هذه الهالة التى كانت تحيط بى فقد غفرت
لنفسى لحظة الضعف التى دفعتنى فطلبت مجيئه إلى الأقصر ، بل حمدت
هذه اللحظة واطمأن قلبى كل الطمأنينة لما صنعت فى أثنائها . وعاد زوجى
إلى عمله ، وعدت إلى حياى الرتيبة المتشابهة التى تبعث إلى نفسى السامة
لولا هذان الطفلان العزيزان اللذان كانا مصدر سعادتى وهناءتى ، ولولا أننى
شعرت بأن زوجى قد تبدلت عواطفه نحوى ، فأصبح شديد الإعجاب بى ،
سريعاً إلى تلبية رغباتى فى إذعان جعله لا يناقشنى فى شىء ، بل يسبقنى إلى
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى .

من ذلك أنه أظهر لى أن سكنتنا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى . من ذلك أنه أظهر لى أن
سكنتنا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن يعجبنى . ومنه أن الصيف لم
يكذ يقترّب ، حتى رغب إلى أن أعد العدة لسفرنا إلى أوروبا ، وأن أعد
نفسى بنوع خاص للمكان الذى ينبغى لى فى المجتمعات التى نغشاها .

الفصل الخامس

قبل أيام من سفرنا إلى أوروبا صحبني زوجي إلى منزل مملوك لإحدى الدوائر الكبرى ، لأرى مبلغ صلاحه سكناً لنا ، وأخبرني أن الدائرة مستعدة أن تدخل عليه من الإصلاح كل ما نقرحه ، وأنها ستقوم بهذا الإصلاح خلال الصيف ، فإذا عدنا من سفرنا ألفيناه معداً لانتقالنا إليه ، ويقع هذا المنزل في حي ممتد على النيل . وقد أعجبني موقع المنزل وأعجبني مجموع نظامه ، لكنني رأيت إدخال بعض التعديلات الجوهرية عليه ، كما أبدت اقتراحاتي في طلاء غرفه طلاء يوافق أذنا . وبعد الظهر عاد زوجي فأخبرني أن الدائرة قبلت اقتراحاتي كلها ، وأنه أمضى العقد معها ، وعهد إلى صديق قديم لنا أن يشرف على إجراء الإصلاح في أثناء غيابنا .

وكنت قد أعددت لسفرنا إلى أوروبا ما أَرْضاني . وسافرنا وقضينا هناك صيفاً ممتعاً حقاً . وقد ألفت حياة الفنادق الكبرى واغتنبت بها لأنها كانت تعفيني من تدبير المنزل وما يقتضيه من مشقة ، ولأنني كنت أرى من نزلاتها أشخاصاً أسريح إليهم ، وأطمئن إلى معاشرتهم . من هؤلاء سيدة أمريكية رقيقة ساحرة الحديث ، بلغت رقبتها أن كانت تبدوناحلة الجسم حائلة اللون بعض الشيء ، ولكنه شحوب يزيدا رقة ويزيد حديثها أثراً في النفس ،

ويدعو للطف بها والميل إليها . وقد اتصلت بيني وبينها مودة اقتضتني أن أسأل
عها ، كلما قيل لى إنها لم ترك غرقها ، وسمحت لها أن تدعوني إليها ، إذا لزمتم
سريرها لتسريح من تعب ألم بها ، وكنت أجد عندها أحياناً من أصحابها
من تسلى بحديثهم وحدتها ، وقد سألتني يوماً أن أدعوزوجى معى ، ليعودها
وليصف لها دواءها . وكان زوجى يصحبني بعد ذلك أحياناً إليها ، وإن لم تكن
فى حاجة إلى طبه وعلاجه .

وكانت هذه السيدة تتزين فى سريرها أجمل زينة وأبرعها ، ولست أبالغ
إذ أقول إنها كانت أكثر عناية بزينة سريرها منها بزينة خروجها ونزهتها . .
وكانت ملابس سريرها آية فى الجمال وحسن الذوق . . كانت قمصان نومها
من حرير رقيق مطرز أبديع تطريز ، وكانت ألوان هذه القمصان هادئة ،
سماوية أو وردية أو بنفسجية أو ما إليها ، خلا قميصاً أحمر قانياً كانت تلبسه
أحياناً ، وقد سألتها يوماً عن تباين هذا القميص القانى مع سائر لباسها
فقالت : « إنما ألبسه حين يدمى قلبي ليعبر بلونه عن دخيلة نفسى » .
وكانت كثيراً ما تضع على رأسها لباساً ينسجم مع لون وجهها ، ولون قميصها ،
ويظهرها فى براءة الطفل المدلل ويزيدها بذلك إغراء وقتنة .

وكنت أحب فى هذه السيدة كل شئ إلا حبها الشراب وإن قل ما رأيته
متأثرة به ، فقد كانت إذا تنصف الليل لا تطيق صبراً على كئوس تحتسيها ،
ولو كانت فى سرير نومها ، وقد دعنتى غير مرة لمشاركتها فى شرابها فاعتذرت
ولم أقبل ، وكانت إذا أطلق الشراب لسانها تروى من هموم حياتها ما يثير
الشفقة بها ، هذا مع أنها كانت تنفق عن سعة تشهد بوسع ثرائها ، وبأن

المال وحده لا يذيب الهموم ، ولا يكفل السعادة .

وكانت هذه السيدة تعرف من دقائق الجمال الذى تتزين به الطبيعة فى أرجاء أوروبا المختلفة ما لا يعرفه إلا الأقلون . وقد أشارت علينا بجولات فى أرجاء النمسا وشمال إيطاليا وفى بلاد الشمال الأوروبى لم نستطع ذلك الصيف أن نتمها جميعاً ، ولكن متاعنا بما رأيناه فاق كل ما كنت أتصور . فلما كنا فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر عدنا إلى القاهرة ، وأنا أحسب لانتقالنا إلى منزلنا الجديد ألف حساب

ونزلنا القاهرة فإذا بالإصلاح المطلوب فى المنزل لم يتم كله ، وإذا ما تم منه لا يعجبني ، وأبديت رأيي فى ذلك بطريقة أغضبت الصديق الذى تولى الإشراف على الإصلاح فى غيابنا ، وقد كان يتوقع أن نشكره لا أن نلومه ، وأدى به الغضب إلى الإقلال من الردد علينا . وساء زوجي غضبه وانقطاعه ، لكن رأيي فى الأمر كان حاسماً ! . .

قال زوجي :

« وما العمل الآن ؟ . . إن منزلنا الأول قد سكنه مستأجروه الجدد ، وأثاثنا كما تعلمين مودع فى مخازنه » .

قلت :

« ذلك شأنك ، فإن شئت بحثنا عن مسكن آخر ، وإن شئت نزلنا فى الفندق حتى يتم إصلاح هذه الدار التى استأجرتها » . .

فذهب إلى الدائرة المؤجرة ، ثم عاد يقول :

إنهم وعدوني أن يتم الإصلاح فى شهر ، فلا حاجة بنا إلى البحث عن

متزل جديد . وقد اتفقت مع إدارة « منا هاوس » لنقيم فيه ريثما يتم الإصلاح .
واغتنبت بما سمعت ، ونزلنا « منا هاوس » . وكم سعدت بأيام مقامي
هناك ، وإن شقيت بعد ذلك بمعقباتها . كان زوجى يستيقظ مبكراً ويتناول
فطوره فى غرفة الطعام ، ويذهب إلى عمله ، فإذا أردت الذهاب إلى المدينة
لبعض شئى أولأرى ما تم فى منزلنا الجديد طلبت السيارة فأقلتنى إلى حيث
أشاء ، ثم عدت بها مع زوجى إلى الفندق . وكنت قلما أغادر « منا هاوس »
بعد الظهر ، إلا أن نجيب دعوة إلى الشاى أو العشاء فى المدينة . وكان كثيرون
من أصدقائنا يزوروننا بالفندق . وكنت أشعر فى بعض الأيام بالتعب ،
فلا أرى بأساً من أن أستقبل فى غرفة نومى أية صديقة تحضر لزيارتى ، فإذا
كان معها زوجها لم أربأساً بأن يصحبها إلى غرفة النوم . واضطر زوجى إلى
قبول هذا الوضع حين ذكرته بأنه كان يصحبني أحياناً فى زيارة الأمريكية
ونحن فى أوربا . واقتضانى هذا الوضع أن أحاكى الأمريكية فى زينة
سريرى ، وقد جعلت من غرفة نومى بهو استقبال يحضر إليه الرجال مع
زوجاتهم ، وإن لم أكن قد تسامحت بعد فى أن يصعد إليه الرجال وحدهم .
وكان الإصلاح يسير فى منزلنا الجديد ببطء شديد ، ولعلى كنت مسئولة
بعض الشئ عن هذا البطء ، وقد تخطت مسئوليتى البطء إلى نفقات الإصلاح .
ذلك أننى قدرت أن هذا المنزل سيكون مسكناً لنا سنوات عدة ، ويجب لذلك
أن يبلغ الإصلاح غاية ما يرضينا ، لذا كنت لا أقر الكثير مما قاموا به وسموه
إصلاحاً ، وكنت أطلب إعادة العمل على الوجه الذى أستريح له . فإذا
قيل لى إن الدائرة لا يمكن أن تتكفل بهذا ، قلت :

« لا يهم ، نفذوا ما أطلب على نفقتنا .

وتحدث إلى زوجي يوماً أنا ندفع أجر المنزل من أول أكتوبر ، أى منذ عدنا من أوروبا ، وندفع أجر الفندق وملحقاته ، وندفع نفقة ما أطلب من إصلاح لا تلتزم الدائرة به ، وأن في ذلك إرهاقاً لنا طال أمده .
قلت :

« فم إذن كان تفكيرك في انتقالنا إلى مسكن جديد إذا كان هذا المسكن لا يرضى ذوقنا ؟ . . لقد كان خيراً لو بقينا في مسكننا القديم إذا لم نشعر نحن ، ولم يشعر الناس جميعاً بالفارق الكبير بين السكتين ، وسيتم الإصلاح عما قريب وتنتهى نفقاته ونفقات الفندق وينتهى بذلك ما نشكو منه .
وسكت زوجي ولم يعقب بكلمة . ويومئذ شعرت بأنه رجل عاجز الحيلة ، فليس يضيق بأمر المال في رأيي إلا الذين يعوزهم الإقدام ، فإن من معارفنا من كانوا يتطلعون إلينا أول زواجنا على أننا من الأغنياء واسعى الثراء ، ثم إذا هؤلاء المعارف يصبحون بإقدامهم من أصحاب الألو ، بل من أصحاب الملايين ، والعجز عن الإقدام نقص وأى نقص .

لم يعقب زوجي بكلمة على مراجعتي في هذا الأمر ، ولم يفاتحني من بعد فيه . ولعله استشف ما دار في خاطري أو شعر من ناحيتي بأنى لست راضية عنه كل الرضا على نحو ما عودته ، فقد رأيت مشغول البال ، بادى لهم ، كثير الأرق ، وإن لم يتغير في صلته بي عما عودنيه من مودتي والاستجابة لكل رغباتي ، وهو لم يكن يستطيع أن يتغير ؛ فقد كان يحبنى . وكان يخشى أن أتغير أنا عليه بعد الذى رآه من إعجاب المعجبين بي وإذعانهم لسلطان

جاذبتي وسحر حديثي . والواقع أنني شعرت بعد الذي رأيته من همه وأرفه ،
بأنى أبالغ في محبتي وإكباري إياه ، لأنه لا يجاريني في طموحي ولا يحاول
أن يصعد بي ومعى إلى الصف الأول من صفوف الحياة في مصر .

وتمت الإصلاحات في منزلنا الجديد وانتقلنا إليه ، وإن بقيت فيه
أشياء لم تنل كل رضاي ، وأردت لمناسبة هذا الانتقال أن أقيم حفلة ساهرة
كبيرة ، فاعترض زوجي بأن مألوف عاداتنا المصرية لا يسوغ مثل هذه
الحفلات ، واقترح إن شئت أن أقيم حفلة شاي يتحقق بها غرضي . ورأيت
حفلة الشاي دون ما ترضاه نفسي فأبيت ولم أقم أيًا من الحفلتين ، وكذلك
تم انتقالنا في صمت جنائزي ، كما أنني لم أستطع أن أبلغ كل ما أريد
من تجديد أثاثنا لينسجم على ما أريد مع الدار الجديدة بعد إصلاحها .

على أنني عنيت بتأثيث غرفة النوم عنايتي بزينتي في سريري ، فقد
أدركت إبان مقامي بالفندق ما لهذه الغرفة من سحر وصاحبها في سريرها ،
وفهمت لماذا كانت صاحبتنا الأمريكية في أوروبا تؤثرها على كل ما سواها
من أهباء الفندق الفخم وصلاته ، واصطناع المرض أو التعب الذي يلزم
الإنسان سريريه لا يشق على امرأة ، هما عندها كالدموع تلين بها قلب الرجل ،
وتكسب بها عطفه ومودته . وغرفة النوم أشد إثارة لطلعة السيدات وأدعى
لثروتهن من غرفة الاستقبال ومن كل غرفة أخرى في المنزل .

وقد أرضاني أثاث هذه الغرفة بعد تمامه ، وكان زوجي أشد سحراً به
لأنه كان أعلم بأسراره إذ ذاك من كل من سواه .

وكانت كل واحدة من صديقاتي تزور هذه الغرفة تبدى من الإعجاب بها

ما يزيد رضاي عنها ، أما أزواج صديقاتي الذين كانوا يصحبونهن ، فكان
نظروهم يدور في أرجاء الغرفة دورة خاطفة ، ليستقر آخر الأمر على السرير
وزينته .

كان الصديق الذي عهد إليه زوجي بالإشراف على إصلاح المنزل في
أثناء غيابنا في أوربا ، والذي انقطع عنا أوكاد حين عرف رأيي في الإصلاح
الذي تم بإشرافه ، قد بالغ في انقطاعه منذ انتقلنا إلى المنزل ، فلم يحضر إلينا
فيه إلا في زيارة تقليدية لتهنئتنا بالانتقال . وكان هذا الصديق غير متزوج ،
وكان بطبعه سريعاً إلى رفع الكلفة كثير فلتات اللسان ، وكان ما بينه وبين
زوجي من صداقة قديمة وود متصل قد جعل زوجي يضيق بانقطاعه عنا
وعدم تردده علينا ، وقد قال لي يوماً وكأنه يعاتبني :

« لقد أوحشني انقطاعه عن زيارتنا ، ولم تحسني أنت جزاءه عن إشرافه
على الإصلاح للمنزل في أثناء غيابنا ، ولعله يخشى أن يسوءك مجيئه إلينا » .
قلت :

« عجباً لكما أنت وهو ، إنني لم أزد على إبداء رأيي في الإصلاح الذي
تم في غيابنا ، ولم يدر بخاطري أن يستاء صديقنا من هذا الرأي حتى ينقطع
عنا ، وإنه ليسرني أن يعود إلى سابق مودته ، وليسرني أن يبدي رأيه في المنزل
بعد إصلاحه الأخير ، وتستطيع أن تؤكد له أنني لن أضيق بملاحظاته
ولن أغضب منه إذا أبدى من النقد أشده ، فالأذواق تختلف ولا يدل
اختلافها على شيء يسوء صاحب هذا الرأي أو ذاك » .

وألح زوجي على صديقه فجاء يوماً معه ، فلما فرغ من شرب القهوة

قلت له :

« الآن تفضل ودُر في أرجاء المنزل وقل لي رأيك في صراحة في إصلاحه » .
قال في تهكم : « وهل لمثلئ أن يبدي رأيه فيما يتم بإشرافك أنت يا صاحبة الذوق السليم » .
قلت :

« لا يسوفني أن تهكم بي ولا أن تنقد عملي ، ولكني حريصة على أن أعرف رأيك » ، فقام بعد تمنع ودارمعي في أرجاء المنزل ، فلما أتم زيارة الطابق الأول قال : « وهل كانت الدائرة تسمح لي بأن أنفق ما أنفقتم أنتم ليلبلغ الإصلاح هذا المدى ؟ ! . . والآن أفهم شكوى زوجك من باهظ النفقة ، أنت جبارة لا تخافين الله ، لقد كان خيراً بدل أن بعثت ما بعثت في إصلاح هذا المنزل أن تشتروا منزلاً جديداً يبقى لكم ولأولادكم من بعدكم ! . . »
قلت مبتسمة : « لعلك قلت هذا الكلام لزوجي فكان ذلك سبب تغيره على ؟ ! » .

فنظر إليّ نظرة خبيثة ، وقال :

« زوجك يستطيع أن يتغير عليك ! . . مسكين هذا الرجل ، لقد كبلته من عنقه ومن يديه ومن رجله فأصبح لا يستطيع حراكاً أمامك ، إنه يوم حدثني في شأن الإصلاح ، وما أنفقت فيه استحلقتني بقبر أبي ألا أذكر من حديثه حرفاً ، ولولا غيظي منك لبرت بوعدى له » .
قلت :

« ألا تصعد إلى الطابق العلوي ؟ لقد عنيت به أكثر من عنايتي بهذا

الطابق الذى يزورنا الناس فيه ، فالطابق العلوى هو عشنا الحقيقى ، هو سكتنا بالليل ، والجانب الأكبر من النهار ، هو ملجؤنا من أعين الناس وفضولهم ، ولهذا أخالف الذين يبذلون النفقة إرضاء للناس وخوفاً من ألسنتهم ولا يبذلونها إرضاء لأنفسهم ومتاعاً بحياتهم ! . .

قال : « ألم أقل إنك جبارة لا تخافين الله ، إذا كانت نفقة هذا الطابق قد بلغت ما أرى ، وكنت قد ضاعفت العناية بالطابق الأعلى فأى نفقة كلفتكم هذه العناية ؟ » . .

قلت : « دعك الآن من النفقة وقل لى رأيك فى الإصلاح ؟ » . .
وصعد معى إلى الطابق الثانى فلما دخل غرفة النوم الفسيحة ، ودار بنظره فى أرجائها فتح عينيه واسعتين وقال :

« هذه غرفتك أنت أم غرفة مدام ركاميه ؟ . . أقسم أن غرفة « زبيدة » الملكة زوج « هارون الرشيد » لم تكن فى جمال غرفتك هذه وإبداعها . . الآن أعترف أن ذوقك لا يعلوه ذوق ، ولو أن الأقدار كانت منصفة لوجب أن تكونى من أصحاب الملايين ، حتى لا يقف فى سبيل ذوقك الجميل عائق » ! . . قلت فيما بينى وبين نفسى : « ترى ماذا عساه كان يقول لو أنه دخل هذه الغرفة ، وأنا فى زينة سربرى » ! . . وشرد ذهنى لحظة حين كان هو يتفقد كل قطعة من قطع الغرفة ، ويقف أمامها هنيهة ، فلما عاد إلى ناحية الباب حيث كنت أقف قال :

« كل ما هنا بديع بارع ، لكن هذا لا يمنعنى من أن أقول لك إنك ظلمت زوجك فى النفقة ظلم الحسن والحسين » ! . .

ضقت ذرعاً بتكراره عبارة النفقة وظلمى زوجى ، فقلت :

« وهل يضيق بأمر المال رجل ذو همة وذكاء ؟ ! . . إنما يقعد العجز بصاحبه عن الإقدام لبلوغ ما يريد ! . . وهل أمطرت السماء ذهباً على من تعرف ممن جمعوا مئات الألوف بل الملايين ، أم أن إقدامهم وحسن حياتهم هما اللذان نصبا للمال شباهه فصادته ، وكانوا قبل ذلك فقراء لم يرثوا عن أهلهم ما ورث زوجى عن أبيه ، معذرة عن كلامى هذا ، لكنك أكثرت الحديث عن النفقة وإسرافى فيها ، وقد حملت ما قلته أول الأمر ، على أنه اعتذار عن عدم بلوغ الإصلاح ما يرضينى حين إشرافك عليه . . أما الآن فأنى أشعر أن زوجى يكرر عليك الكلام فيه ولكأنه يوجه إلى الاتهام بشأنه ، وأنا إنما أردت أن يعيش كما يجب أن يعيش ، فإن كنت أسرفت فى حسن ظنى به فاستغفره لى وقل له إنى تبت لعله يقبل توبتى » ! .

قلت هذا الكلام فى حدة روعت الرجل فقال :

« مهلاً مهلاً ! . . لا تسرفى فى التثريب على الرجل إلى حد اتهامه بالضعف والعجز . . إن أولئك الذين تذكرين ممن تصيدوا الملايين لم يتصيدوها فى عام ولا فى بضعة أعوام ، وزوجك اليوم أعمق تفكيراً فى التحايل على المال منه فى الغضب منك أو فى اتهامك . . إنه يريد إرضاءك . . إرضاءك بكل وسيلة لا تخدش شرفه ولا تؤذى سمعته بين الناس . ولست أدرى أيستطيع إنسان أن يجمع بين المال والشرف وحسن السمعة ؟ . . لكن تصيد المال هو ما يشغل زوجك الآن إرضاء لطموحك . ولعلى لو كنت مكانه لما صنعت صنيعه ، ولوقفت فى طريق اندفاعك إبقاء على نفسى من الانزلاق فى سبيل لا يغامر

بالانزلاق إليها إلا الذين لا يعينهم شيء ، فإن تحقق ما غامروا في سبيله ارتفعوا
بثروتهم إلى السماء ، وإن لم يتحقق ظلوا في القاع الذي يحاولون الخروج منه .
ونحنينا كلانا أن يسرقنا الوقت إلى ما يثير هواجس زوجي من بطننا ،
فلما رآه صديقنا قال له :

« هنيئاً لك يا صديقي هذا المنزل الفخم ، بل القصر المنيّف ، لم أكن أتصور أن
يخلق الإصلاح من تلك الدار التي رأيت أول الصيف هذه التحفة التي أرى الآن ! »
ثم التفت إليّ وقال :

« وأنا أهنتك يا سيدتي ، لقد محه إعجابي بذوقك كل غضب أثّره
في نفسي عدم رضاك عن إشرافي . وهو إعجاب لا حد له ، ولو أن أصحاب
هذه الدار كانوا أهل ذوق ومروءة لاحتملوا نفقات هذا الإصلاح كلها .
وأنا مستعد لأن أخاطبهم في ذلك وأحملهم ما أستطيع منها إذا لم يكن لكما على
تدخلتي اعتراض ! »

وشكرناه وقلنا له إنا لا اعتراض لنا على تدخله . والعجب أنه لم يعض
على حديثنا في الأمر غير ثلاثة أيام ثم إذا هو يحمل إلينا النبأ بأن الدائرة قبلت
أن تتحمل نصف ما أضيف علينا من نفقات الإصلاح . وشعرت كأن زوجي
انتشل من وهدة لسماع هذا النبأ السار ، واغتبطت أنا كذلك ، ولكن هذه
الفرحة التي بدت على زوجي جعلتني أشفق عليه لعجزه عن أن يفعل ما فعله
صديقنا ، ويحمل الدائرة على ما حملها هذا الصديق عليه . وكان هو أخرى
بهذا وهو صاحب الشأن الأول والمصلحة المباشرة . ولو أنه فعل لرفع عن
عاتقه همّاً وأرقاً كاد أثرهما يسيء إلى صحته .

وعاد صديقنا سيرته الأولى إلى مودتنا والردد علينا ، وعاد يعاين روجي بفلتات لسانه . . ويعاين أحياناً كذلك ، ولم يكن زوجي يجيب معايشه إلا بالسخر منه وعدم الاكتراث لعبثه ، وكان هذا الموقف وذاك من جانب الرجلين طبيعياً . ولكم عجبت كيف جمعت الصداقة بين طبعين مختلفين هذا الاختلاف ، فزوجي رزين شديد الاتزان يقدر كل كلمة يقولها ويبلغ في احترام الناس احتراماً لنفسه ، وصديقنا على النقيض يلقي الكلام جزافاً ولا يعاب بمظاهر الاحترام ، وزوجي شديد الحياء إلى حد أضييق به أحياناً ، وصديقنا يجد الحياء سخفاً لا معنى له ، وزوجي ودود متخفف مع ذلك في وده ، وصديقنا مسرف في الود سريع مع ذلك إلى المغاضبة ، ولكن صداقة الرجلين اتصلت منذ كانا طالبين معاً في المدرسة الثانوية ، وصداقة الصبا قل أن يعدو عليها الزمان وإن أمكن أن يعدو عليها النسيان ! . .

وكان صديقنا يعرف صديقتي التي مات زوجها منذ عامين فطمع أهله في تركته ومنعوها وذريتها الضعاف من الاستيلاء عليها أو على إيرادها . وكان صديقنا كذلك صديقاً لزوجها ولأمها ، وكان فيما يجيل إلى معجباتها وبطبعها ، وقد كان زوجها شديد الغيرة عليها ، وكان يعرف في طبعها خفة لا تؤذى وفاءها وعفتها ، ولكن تؤذى غيرته ، ولذلك انتقل بها إلى الضواحي وسكن معها فيها ومنعها من أن تنزل إلى المدينة إلا بإذنه وفي رفقته ، فلما مات عادت إلى القاهرة وأظهرت من الحزن عليه ما رق له قلب صديقنا وفاء للزوج المتوفى ، وإعجاباً بالزوج الأرملة . ولقد عرف بعد قليل ما تضطرب فيه هذه الزوج الأرملة من مشاكل ميراث مع أهل زوجها لا قبل لها وحدها

بحلها ، ف تبرع مشكوراً لمعاونتها واضطر من أجل ذلك أن يكثر التردد عليها .
واقضت هذه المشاكل مشورة طبيب فأشرك صديقنا زوجي معه في مهمته .
ولم يبد زوجي بادئ الأمر حماسة لهذه المعاونة لولا أن دفعته أنا إليها .
وقد أدهشني تباطؤه عن المبادرة إلى عمل إنساني يتفق مع طيبة قلبه وحبه الخير
للناس ، وزادني دهشة أنه كان يعرف صديقتي في حياة زوجها ، وكان يتردد
عليها لعيادتها ، ولعيادة أطفالها ، ثم كان يحدثني عنها حديثه عن أى مريض
أو مريضة يعود أو يعودها ، ولم يبد من مظاهر الإعجاب بجمالها ما يريني . .
لكنه لم يلبث بعد حين من مشاركته صديقنا في معاومتها أن ازدادت حماسته
لهذه المعاونة ، حتى بلغت أشدها ، وأن صار يتحدث عنها وكأنه يقوم بعمل
يمس قلبه بل يحركه . . فإذا حدث ؟ . . أترأه أذعن لفتنتها فصار يبدى
لميراث أبنائها كل هذه الحماسة ؟ ! ثم إنه أخذ يتردد عليها في بيت أمها
العجوز الشمطاء ، وهي في غير حاجة إلى طبه وعلاجه ، فهل تراها تنصب له
شباكه ليقع في حبالها ؟ . هنالك بدأت الغيرة تدب في صدري ، وإن
حرصت على ألا يبدو من أثرها أى مظهر ، وبدأت أفكر كيف أستعيد هذا
الرجل خالصاً لي كما كان . . .

ولم يكن دافعي إلى هذا التفكير محبتي إياه ، بقدر ما كان الدافع إليه
غيرتي ونفوري من أن تأخذ امرأة مني رجلاً ملكته بدى وأصبح طوع يميني ،
فصار لا يستطيع حراكا بغير إرادتي ! . .

واستخلصت صديقتي ميراثها بمعونة زوجي ومعونة صديقنا ، وأصبحت
بذلك في سعة تسمح لها أن تنهض بحياتها وحياة أولادها في رخاء ونعمة .

فأقامت في مسكن اختارته لنفسها ، ولم يكفها أن تذهب إلى الأقصر في الشتاء لزمتهما ، بل كانت تصطاف في أوروبا وتقضى في ربوعها شهور متاع ومرح ومسة .

ولم ينقطع زوجي عن التردد عليها بعد أن استخلصت ميراثها ، ولم تنقطع هي عن زيارتنا برغم قلة زيارتي بيتها . . وكانت غيقي تزداد لذلك ضراماً ، وكنت أومئ إلى زوجي أن الناس يتحدثون في تردده عليها . فلا يأبه لهذا التلميح ، مكثفياً بقوله : « ما دمت واثقة في مطمئنة إلى فإن كلام الناس لا يعنيني » . وكانت كبريائي تأتي على حين أسمع منه هذا القول أن أخبره بمكنون صدي ، وإن استبد في التفكير في التماس الوسيلة للتخلص من هذه المرأة ومن تردد زوجي عليها . وإني لأقلب هذا الأمر على وجهه إذ أخبرني زوجي أن الألمانى الذى عرفنا في الأقصر قد جاء إلى القاهرة ، وأنه تحدث إليه بالتليفون ، وأنه دعاه لتناول الشاي معنا . قلت : « إذن فادع صديقنا لنحدث التعارف بينهما ، وإذا لم يكن لديك مانع فادع كذلك صديقتي فإنه يسرها لا ريب لقاء الألمانى بالقاهرة ، بعد أن تلاقيا طويلا بالأقصر . . » ولم يجد زوجي بأساً بدعوتهما فكدت أطير من الفرح مؤمنة بأن الحظ الذى جاء بالألمانى إلى القاهرة في هذا الوقت لا بد مسعدى في تنكيري . . وستتمخض هذه المصادفة الطيبة عن نتائج أرضاها .

وجاء المدعوون ساعة الشاي ، وأقبل على الألمانى يحييني وتكاد عيناه لا تنظران إلى غيري ، وكانت أول عبارة قالها : « لم لم تحضري إلى الأقصر هذا العام يا سيدتي ؟ . . إن جميع معارفك والمعجبين بك كانوا يسألون

عن موعد مجيئك بشغف ليس كمثله شغف ! . . سلى صديقتك . لقد
عرفت من ذلك ما عرفت . . وأظنها أبلغتك تحياتهم واحتراماتهم ! . . »
لم يثر هذا الكلام من صديقتي أى صدى ، بل تشاغلته عن الإصغاء
إليه بالحديث إلى زوجي وإلى صديقنا ، وزادني ذلك إقبالا على الألماني ،
وترحيباً به . وعملا على أن أصل الحديث بينه وبين سائر الحاضرين .
لم توجه صديقتي إلى الألماني في أثناء الشاي إلا كلمات متقطعة ، لكنها
كانت المودة مع زوجي كل المودة ، وكانت تلهم صديقنا بعينيها التهاماً ،
وتكاد تأكله بهما أكلا . وكان صديقنا يجاهد لكي لا يغيب عنا مسحوراً
بهاتين العينين الفاتنتين ، زانهما حور زاده الكحل الرقيق سحراً وزاد صاحبه
فتنة ، وكانت صديقتي تعرف سحر عينيها وتعرف كيف تزيد نظراتهما فتنة
وسحراً ، ومع ذلك جزى الألماني صدها عنه بالإقبال على وتوجيه الحديث
كله إلى إلا عبارات كان يبعثرها هنا وهناك حتى لا يحسب زوجي أو صديقنا
أنه نسبهما لفرط اشتغاله بي .

فلما فرغنا من الشاي قلت : « ألا تريد أن ننزل إلى الحديقة ؟ . . »
قال : بكل سرور ، فدعوت صديقنا ونحطيت مع الرجلين غرف الطابق
الأول ونزلنا من السلم الخلفي إلى حديقة الدار . أما صديقتي فقد اعتذرت
وآثرت المكث حيث هي ، واضطر زوجي للبقاء في صحبتها . ولم تطل
دورتنا في الحديقة ، فلما عدنا منها قال الألماني موجهاً الكلام إلى زوجي :
« ما أجمل داركما ! . . إن براعة الذوق في نظامها وتنسيقها لتتطابق بأن
السيدة قد بثت فيها من روحها بعض ما تنطوي عليه من تناسق وجمال . . »

وشكره زوجى . ثم ودعنا ضيوفنا وأوصلناهم إلى الباب الخارجى .
فلما خلوت إلى زوجى قلت له : « ما رأيك فى أن ندعو الرجل للعشاء
غداً ؟ » . إنه ينزل فندق الكونتنتال ، وليس أيسر من أن تحدثه بكرة الصباح
تليفونياً . وما أحسبه إلا قابلاً دعوتنا » . . وأجاب زوجى فى هدوء مصطنع
لا يتفق مع ألفاظ عبارته : « ألم يكفك أنى دعوته اليوم للشاى إرضاء لك :
أنت تعلمين ، كما أعلم أنه لم يخاطبني فى التليفون حين جاء إلى القاهرة . حرصاً
على مقابلتى ، بل حرصاً على مقابلتك أنت ، فإذا دعواته للعشاء غداً أثار
ذلك حديث أصدقائنا حولنا . ولا أحسبك تغبطين بأن يذاع هذا
الحديث ! . . . » .

قلت وأنا أكظم فى نفسى سروراً كادت تلمع به عيناي : « وماذا عسى
يستطيعون أن يقولوا ؟ . . هذا رجل مسافر بعد غد إلى بلاده فى أوروبا ،
ليقيم بها ستة أشهر أو تزيد ، وقد أكرمنى فى الأقصر العامين الماضيين ،
فلا عجب أن تكرمه بمناسبة مروره بالقاهرة . . وأنا مع ذلك لا ألح عليك
فى دعوته ، وإن كنت أعجب لكلامك عن حديث الناس وكأنهم لا يتكلمون
اليوم عنا لمبالغتك فى العناية بصديقتى . ولو أنك عرفت ما يقولون لما ذكرت
حديثهم فى دعوة بريئة لرجل أكرمنا من قبل ، وأكرر أنى لا ألح فى دعوته .
بل أعتذر إليك وأرجوك أن تنسى أنى طلبتها ! » .

وتلجلج زوجى حين سمع هذا الكلام وكأنما طعنته فى صدره ، فوجم
هنيهة ، ثم قال : « يغفر الله للذين يتحدثون عني . . إنما دفعتنى للعناية
التي تذكرين عاطفة نبيلة لأطفال ما أحوجهم إلى ميراث أبيهم ، وللعطف

عليهم . أما أمهم فلا شأن لى بها ، ولا شأن لها بى إلا أن تشكرنى على العناية بأطفالها ، وصديقنا هو المعنى الأول بالأمر ، وهو الذى يحفزنى كلما ظن أنى بحاجة إلى حافز لمضاعفة عنايتى ، وقد لا تعلمين أن صديقنا يفكر فى الزواج من هذه السيدة ، أو أنها هى التى تفكر فى الزواج منه .

كنت أسمع أحاديث عن هذا الزواج وكنت فى ريب منها . فلما أكدها زوجى كنت كمن فوجئ بها ، والعجيب أنى شعرت حين تحققت منها كأن صديقتى تخوننى ، وفكرت لذلك فى إفساد ذلك الزواج الذى تعترم . كيف نبت هذا الشعور فى نفسى وصديقتى مخلصه فى مودتها لنا ، ولا جناح عليها وهى أرمل أن تفكر فى الزواج ، ولا حق لى وأنا متزوجة أن ألومها فيه ؟ . . ولم أكن أحسب أن بينى وبين صديقنا عاطفة تسوغ مثل هذا الشعور ! . . لا جواب على هذه الأسئلة . ولكن ذلك ما حدث . . وسرعان ما ترعرع هذا النبت فحرك شجونى وأنسانى الألمانى ، وأنسانى زوجى ، وأنسانى حديث الناس ، وجعلنى لا أعنى بشيء إلا بإفساد هذا الزواج ! . .

ولطالما فكرت من بعد : أى داع دفع هذا العزم إلى نفسى ؟ . . وكل ما اهتمت إليه بعد طول البحث والتحليل أنى كنت أجد فى زيارات صديقنا وأحاديثه متعة أستعين بها على الملل . بل أسعد بها فى الساعات الطويلة التى كان العمل يشغل زوجى فى أثنائها ، وأن عقلى الباطن أوحى إلى أن زواجه بهذه المرأة سيشغله عنى ويأخذه منى . ومن يدرى ، فلعلها يوم تتزوجه تجعل من دارها ندوة يأوى إليها زوجى فتم بذلك عزلتى ، ويصبح انتصار هذه الفاتنة للعبوب على حاسماً يحطم كبريائى ويمرغها فى التراب ! ؟ . . فأما

إن استطعت إفساد هذا الزواج فسيتبقى صديقنا يؤنس وحدتى ، ويبعث المسرة إلى قلبى ، وسأجد فى أحاديثه مسلاتى ، بل هناعى ، وسيتبقى منزل مقصده ومقصد زوجى ، هذا ما اهتمت إليه من بعد ، تفسيراً لعزى على إفساد هذا الزواج .

وأحكمت يومئذ تديبرى ، فمارضت ولزمت سريرى ، وكنت إذا أصبحت وخرج زوجى إلى عمله تزينت للسريـر أجمل زينة وأشدها إغراء ، وبقيت به طيلة النهار واستقبلت زائرائى وأزواجهن فى غرفة نومى ، وجاءنى زوجى غداً اعتكافى ، وأخبرنى أن صديقنا يستفسر عن صحتى ، وأنه فى بهوال استقبال !.. قلت : لو أن صديقى كانت هنا لما رأيت بأساً باستقبالهما فى غرفة النوم ما داما يعتزمان الزواج .

ولم أعجب حين رأيت صديقتى تجيء الغداة ومعها صديقنا ، بحجة أنها تريد محادثة زوجى فى بعض الشئون المتعلقة بأبنائهما ، فلما خلا الجو لصديقنا قال : « أشكرك على السماح بزيارتك وأنت فى هذه الزينة البارة ، لقد ضاعف وجودك هنا من جمال هذه الغرفة وزادها سحراً » . . قلت : « دعك من هذا الحديث فأنا متعبة لا طاقة لى بسماعه . وأين جمال هذه الغرفة وساكنتها من جمال عروسك وسحر عينيها الفاتنتين ؟ . . فلا تكادان تنظران إلى رجل حتى يخر على قدميه ساجداً ! . . » وسكت لحظة ثم قلت : « إننى هدنى التعب والمرض ، وأنا أشكرك لتفضلك بالسؤال عني ! » قلت هذا وصحبته بابتسامة حار فى دلالتها ، أهى التهكم أم الصدق أم مجرد الإغراء ؟ . . ونظر الرجل إلىَّ بعينين واسعتين وقال : « يا ماكرة ! أمتعبة أنت

حقاً أم تريدان أن تتعبي من يزورنك هنا لأنهم لا يستطيعون الإمساك عن التفكير في صورتك الجذابة ، وفي الإطار البديع الذى أحطت نفسك به . .
وعادت صديقتى فأمسكنا عن الكلام ، على أن صديقنا عاد الغداة مع زوجى وصعد معه إلى غرفة نومى ، وقد أقنعتة سرعته إلى رفع الكلفة بأنه لم يبق ما يمنعه من زيارتى فيها ، وابتسمت فيما بينى وبين نفسى لنجاح الخطوة الأولى من خطتى ، فلولاً أننى أذنت بصعوده إلى مع صديقتى لبقى كارهاً فى تحفظه . ورأى حين دخل الغرفة فى زينة غير التى رآها لأمسه ، فاتهز فرصة خرج فيها زوجى لبعض شأنه وقال : « ما أجمل المرض فى هذا السرير ! » قلت : « وما لك أنت وذاك وأنت موشك أن تتزوج ؟ . . احتفظ بمثل هذه التحيات لتقولها لأهل بيتك . . متعك الله فى الحياة الجديدة التى تنتظرك ، وأرجو يومئذ أن تنسيك هذه الحياة أصدقاءك » ! . .

وبعد هنية سألته : « ما بال صديقتى لم تحضر معه كما فعلت أمس وهى تعلم أنى متعبة » ؟ . . قال : « مررت بها فالفيتها غادرت منزلها ، ولم تذكر لخدامها أياها ذهبت ، وسألت عنها فى بيت أهلها فلم أجدها هناك » ! . .

كنت أعرف فى هذه الصديقة خفة تستسيغ معها أن تصحب المعجبين بها إلى نزوات خلوية ، وكنت أعرف من أقاربنى شاباً جميل الطلعة يتردد إليها مسحوراً بجمالها وبفتنة عينيها ، وقد شجعته هذه الفترة الأخيرة على مصاحبته . وعلمت فى هذا اليوم أنهما سيخرجان لنزهة على طريق السويس بعد مصر الجديدة ، فأوحيت إلى صديقنا أن يذهب إلى هذه المنطقة فإذا صادف قريبى هناك ، فليبعث به إلى لأمر هام أريد أن أحدثه فيه . ولم يجد صديقى

بعد زيارته الأخيرة إياي في غرفة نومى مفراً من أن يتزل على رغبتى . وبعد الغروب عاد إلى وعيناه تقدحان الشر وهو يقول : « أهنتك يا سيدتى بنجاحك في إفساد هذا الزواج ، وأشكرك لقد رأيت قريبك مع صديقتك داخل السيارة في جوف الصحراء وهما في وضع لا أستطيع أن أصفه ! » قلت : « هون عليك يا أخى ! . . فقد حملنى الوفاء لصداقتك على أن أتبع لك فرصة ليس سيراً أن تتاح لإنسان . فإن كان قد ساءك ما فعلت فلى من حسن قصدى عذير ! . . » قال : « ولكنك قاسية ، وكان حسبك أن تنبئنى » ، فقلت : « إتنى أردت أن ترى بعينيك ما لا تستطيع أن تصدقه حين تسمعه ! » فأطرق إطراقة طويلة ثم ارتمى على مقعد ، وكأنما ترقرت في عينيه دمعة ، وقال : « شكراً لك أن أزلت عن ناظرى غشاوة حجبت عنى خطراً داهماً ! .. » وبعد برهة ودعنى وانصرف !

أما صديقتى فلم تخاطبني ولم أحاطبها بعد ذلك اليوم ، ولم يكفها أن قاطعتنى ، بل ذهبت تذيع في كل صالون ، وفي كل ناد ، وفي كل مجتمع في المدينة أنى أحب صديقنا ، وأتنى أريد أن يطلقنى زوجى لأتزوج ، وأن الغيرة دبت في نفسى منها منذ عنى زوجى بشأنها واهتم بميراث أطفالها ، وقد كان عذرها في مهاجمتى أنها تدافع عن نفسها ، فقد أخبرنى قريبى الذى كان معها في السيارة في الصحراء أن صديقنا فاجأها وهو ممسك يدها بين يديه ، وهى ملقبة رأسها على كتفه ، وأنها حين رأت صديقنا سحبت يدها من يديه وصفعته على وجهه قائلة : « أو بلغ من سفالتك أن تدبر مع قريبتك هذا الموقف المشين يا نذل !؟ » وأقسمت أن لن ترانى ، وأنها ستفضخنى .

وكان مما قالت له والسيارة تعود بهما أدراجهما : « لماذا تدليتم إلى هذا الحضيض يا أحمق من خلق ، هل أخذت منها زوجها ؟ . لقد كان في مقدورى أن أفعل ، فأنا أجمل منها ألف مرة ، ولكنى حفظت عهد الصداقة ورعيت ما بيننا من خالص الود ، هل أخذت منها الألمانى فى الأقصر ، ولم تكن تراه إلا على مائدتى فى « ونتر بالاس » ؟ . . وإذا كانت تعشق هذا الذى كنت أريد أن أتزوجه فلماذا لم تجربنى ، فأدعه لها وألقيه صاغراً تحت أقدامها ؟ . . أم حسبت أننى أنافسها فى محبته فتآمرت معك هذه المؤامرة الدنيئة ! . . إن يكن ذلك ظنّها فهى مخطئة ، إنه رجل ماجن ولكنه أظهر صدق الإخلاص إثر وفاة زوجى ، وعمل جهده لمعاونتى على استخلاص ميراث أطفالى حتى استخلصه ، فقدّرت له هذا الصنيع وأردت أن أجزيه عنه بالتزوج منه ، فإن كانت قرينتك قد ظنت رغبتي فى التزوج منه عشقاً أوحباً فهى مخطئة ، وليس بين الرجال من يستحق فى سنى أن أحبه ، وإن كان منهم من يستحق أن أحترمه ، ولست أنت ممن يستحقون الاحترام بعد أن انحدرت إلى هاوية المؤامرة التى انحدرت إليها !! . . » .

قصّ علىّ قريبى هذا كله غداة حدوثه واشتدّ فى لومى أن أوقفته هذا الموقف ، وطمأنته بكلمات لم تزل غضبه ، ولم يرعنى هذا الغضب وأنا أحسب أنى فى أوج انتصارى ، لقد دبرت فنّجح تديبرى ، وكنت أعلم أن نجاحى معناه القطيعة الحاسمة بينى وبين صديقتى ، وأن تديبرى لن يضرّ قريبى وهو شاب وسيم ومن حقه فى نظر الناس جميعاً أن يخرج للزّمة مع أى امرأة يغريها شبابه وجماله ، فلن يروعنّى إذن أن ينتج عملى كل آثاره .

وانقضت أيام انقطع صديقنا في أثنائها عن المجيء إلينا حتى خشيت أن يكون قد خاصمني ، وإنني لفي مغرفة زيتي إذ دخل على زوجي متجهماً صامتاً ، فسألته ما به ؟ فقال : إن صديقنا مريض نزلت به الحمى منذ غادرتي آخر مرة عائداً إلى منزله ، وأنه قص عليه ما كان بين صديقتي وقريبي ، وأنه اليوم أحسن حالا ، وسكت زوجي بعد ذلك طويلاً ثم قال : « وقد سألته لم لم يدعني لعيادته لأول ما نزل به المرض ، فقال : إنه لم يرد إزعاجك ، ولست أدرى كيف سولت لك نفسك أن تقدمي على ما أقدمت عليه . » قلت : « لقد كنت أحسبك أكثر ولاء لصديقك وأشد حرصاً على طمأنينته في حياته ! . . » قال : « أو قاصر هو لتنصبي نفسك وصية عليه ! . . » قلت وقد بدأ هدوئي يرايلني : « وهل بلغ من حرصك على عواطف صديقتي وعلى رقيق مزاجها أن تلومني من أجلها . تزوجها إذن أنت إن كانت قد فتنتك ! . . » لقد طالما حدثتني نفسي عن سرعاتك بشأنها ، وطالما حاولت أن أقنع نفسي بأن إنسانيتك وطيبة قلبك وشفقتك على أطفالها هي مصدر هذه العناية . . أما الآن فقد فضحت شرك واستبان لي خفي أمرك ! . . اذهب فتزوجها أنت إن شئت . اذهب يا منافق ! . . » .

قلت عبارتي الأخيرة في ثورة غضب حاولت أن أكظمها فلم أُنجح . وأبت كبريائي على أن أصبح لأنفس عن نفسي ، واستلقيت منهدة في مقعدي ، وانهمرت الدموع من عيني ، وأخذت أبكي بكاء الطفل ، وأراد زوجي أن يسكن روعي فدفعته عنى ملقية نظري إلى الأرض ، لأنني كرهت أن أرى وجهه . ووقف الرجل قبالي وانتظر حتى هدأ روعي بعض الشيء ،

ثم نظر إلى نظرة إشفاق وقال : « أولو كان بيني وبين صديقتك من الود ما تنزعجين له ، أفكنت أنظر مغتبطاً لزواج صديقنا منها ، لينقطع الود بيني وبينها ، أم كنت أصنع صنيعك فأفسد هذا الزواج لتخلص لي ؟ ! . . .
لقد كنت أحسبك أوفر ذكاء من أن تفضل الغيرة الحمقاء بصيرتك ،
وتدفعك إلى صنيع غير لائق بأمثالك ! . . . » .

قلت وقد غالبت نفسي حتى ملكت ما استطعت روعى : « أنت تهم ذكائى وتحسب حجتك تقنعنى ! . . كلا يا سيدى ، أنت تعلم كما أعلم أنها إذا تم زواجها بصديقنا فسيفتح هذا البيت أمامها على مصراعيه ، وسيكون لك من الحرية فى استدامة ودها أضعاف ما لك اليوم ، ولن أستطيع أنا يومئذ أن أقول شيئاً ، فتخير إن شئت حجة أخرى أجدر بقدرتك على استنباط الحيل ! » قال وقد كاد يخرج عن طوره : « يا عجباً ! . . أوبلغ من الحطة أن يسلب رجل زوجة صديقه ، أو تسلب امرأة زوج صديقها . ذلك أمر لا يمكن أن يدور بخاطرى ، وأنت فوق ذلك تعلمين أن لك عندى من المكانة ما كنت أحسبه يسموئى عندك فوق كل شبهة ! . . لقد أصفيتك وأصفيت أولادنا حبة قلبى ، فإن كنت فى ريب من ذلك فالذنب ذنبك لا ذنبى » ! . . .

ثم إنه أخذ بمجامع بدنى وجذبنى نحوه وضمنى إليه ليسكن من ثائرتى ، ولم أستطع إزاء عطفه ورقته أن أتابع المعركة . وإن شعرت بأن شيئاً بيننا قد تحطم . وأن حياتنا الهائثة الهادئة قد أسدل عليها ستار كثيف ! . . .
وبعد أيام جاءنى صديقنا ، ولا تزال عليه آثار العلة ، فلما رأيته امتلاً قلبى

رحمة وشفقة ، وشعرت أنى أئمت فى حقه ، فلما استقر به المجلس وتناول بعض المرطبات قال : « جئت اليوم أسألك وأرجوك أن تجيبني فى صدق وصراحة . إني أعرف صديقتك منذ سنين ، وأعرف خفتها ، لكننى لم أعلم أن هذه الخفة جنت قط على عفتها أو على وفاتها لزوجها الأول . فهل تستطيعين أن تذكرى لى بشرفك أنك تعلمين غير ما أعلم ! . . وأحسست من نبرة صوته أنه يريد أن يضعنى موضع الاتهام فقلت : « وما شأنى أنا بهذا ؟ . . إن كنت تريد أن تتزوجها فلست أنا التى أمنعك من زواجها ، إنما دفعنى الوفاء لصداقتك لنا على أن أفتح عينيك على ما أعرف ، فإن لم تجد فيما رأيت ما يريك فأنت أعلم بما يسرك وما يسوءك ، وأنا لا أعرف عن صديقتى أكثر مما تعرف أنت عنها ، وأنت كنت تعرف زوجها ولم أكن أعرفه ، وكنت تزوره يوم أسكنها الضواحي ولم أكن أزورها ، فلا تسلى عما لا علم لى به ، وأنت صاحب الشأن فى زواجك منها بعد أن انقطعت صلتى بها ! . . وتركنى صديقتنا وخرج ، تركنى حيرى أنعى ما فرحت به من نجاحى ، وأنعى إخفاقي المشين ، وأنعى ما تحطم بينى وبين زوجى ، وأنظر إلى المستقبل بعين كلها اليأس والأسى . والحقيقة أنى لم أكن أعلم عن صديقتى برغم خفتها ما يجرح عفتها ، فأى شيطان دفعنى إلى ما أقدمت عليه ، وما نفر منى كل من أحب ، وضرب حول نطاقاً جعلنى أدور حول نفسى فى عزلتى ، كما يدور الحيوان المفترس الحبيس فى قفصه ؟ . . »

أولوتزوج صديقتنا صديقتى برغم ما رأى فإذا يكون موقفى منه ، ومنها ، ومن زوجى ؟ . . وإذا حدث ذلك ودعيت مع زوجى لحضور قرانهما فإذا

أستطيع أن أفعل ؟ . . آدعه يذهب وحده فيصدق الناس ما أذاعته من
أنى أحب زوجها ، وكنت أريد أن يطلقنى زوجى لأنزوجه ؟ . . أم أذهب
معه قطعاً لألسنة الناس ؟ . . وإذا ذهبت فبأى وجه ألقاها ؟ مرت . بخيالى
أمثال هذه الأسئلة المخرجة حتى ضقت ذرعاً بها وحتى أظلمت الدنيا فى
عينى .

وهب صديقنا لم يتزوج فهل تظل صلته بى كسابق عهده فى الأيام الأخيرة إذ كان يرورنى فى غرفة نومى وأنا فى سريرى ، أم تراه ينقبض عنى ولا يلقانى إلا بحضرة زوجى كما كانت الحال من قبل ؟ وبأى وجه ألقى الناس فى الحالين ، حال إقباله وحال إعراضه ؟ فهم لا ريب سيقولون وسيعيدون ، ولن نفتأ صديقتى تذيع ثم تذيع لتجعلنى أحدوثة المجتمعات ، يتندربقصتى المتندرون ، ويرثى لحالى الشامتون ، ويذهب من شاء مذاهب أيسرها أن الحب والغيرة دفعانى لأزدرى ما تقضى به المروءة وتفرضه الصداقة !

وعدت أسأل نفسي : « أى شيطان وسوس إلى ما أقدمت عليه ؟ فلو كنت أحب صديقنا حب غرام وعشق لكان حبي إياه عذيري عن مؤامرتي ، أو لكنت التمسيت وسيلة أخرى لإرضاء حبي . ولكني لا أحس نحوه بنار الحب المحرقة التي تبيح لمن تحب أن تفعل ما فعلت . . إنني أغتبط بمجلسه وبحسن إصغائه ، لكنه ليس وحده الذي يتمتع عندي بهذه المترلة ، بل إن غيره من أصدقائنا المهلبين المثقفين من أحب مجالستهم ، وأغتبط بإصغائهم وإعجابهم بحديثي ، وإن قلّ منهم من كان مثله كامل الرجولة ، جم الوفاء .

وإذا لم يكن حبي صديقنا حب غرام دافعى إلى فعلتى ، أفكانت غيرتى على زوجى ومخافتى أن تغصبه صديقتى منى هى هذا الدافع ؟ لقد ابتسمت ساخرة حين عرض لى هذا السؤال ، فزوجى آخر من تغار امرأة عليه ، لقد تزوجته فراراً من زوج أبى ، ومن بيت أبى ، وتزوجته طفلة غريرة لا أعرف شاباً غيره ، فأصفيته ودى ، ومنحته قلبى ، وشعرت بأنه يبادلنى حباً بحب ووداً بود . وربما دام شعورى ذاك لو أن الدنيا بقيت كما كانت فلم أعرف رجلاً غيره لكننى ما لبثت بعد سنوات قلائل أن رأيته يحبنى بحكم الواجب لا من أعماق قلبه ، ورأيت فى طبيعتنا تفاوتاً ينأى بى عنه ، فليس عنده من الطموح ما عندى ، وليست فيه رجولة العقل أو القلب ، أو أى من ألوان الرجولة التى تجعل المرأة تتعلق بالرجل وتفنى فيه . . إنه طيب بالغ الطيبة ، فيه صفات رب الأسرة العطوف الذى يبذل غاية جهده لإرضاء أسرته ، لكنه ليس بالرجل الذى يثير الغيرة لأنه لا يعرف الحب الذى لا يرضى بما دون قلب المحبوب وعقله وروحه وجسمه ليملكها جميعاً ملكاً تاماً مطلقاً ! . . .

ما الذى دفعنى إذن إلى ما فعلت ؟ . . لا أدرى ، وهأنذى أشعر الآن بأنى خسرت المعركة وأضعت كل شىء ، أضعت حتى كرامتى وأذلتت نفسى وكانت أعز من أن تذلل لإنسان ، وهأنذى أشعر بالعزلة وكأنى من الحياة فى سجن مظلم ، حتى أطفألى أشعر حين أراهم أنى غير جديرة بأن أقبلهم ، لقد خانتى ذكائى فلم أقدر لكل هذه العواقب ، إننى تعسة وليس على الأرض امرأة أتعس منى .

واستوحشت حتى من نفسى فكنت إذا أقبل الصبح وخرج زوجى إلى



« انتهز فرصة خرج فيها زوجي وقال : « ما أجمل المرض في هذا السرير »

عمله ، خرجت أضرب في الأرض على غير هدى مخافة أن يسأل عني أحد معارف بالتليفون ، أو يسألني من لا أعرف عما اجترحت ويؤنبني عليه ، فإذا كنت في الطريق ورأيت الناس وتعرضت لضجة الحياة عدت إلى نفسي بعض الشيء إبقاء على نفسي أن تدهني سيارة ، أو يرتطم بي إنسان مشتت الذهن لأنه لا يجد قوت عياله ، أو آخر نزلت به كارثة اضطرب أمامها ولا يدري كيف يتخلص منها ، فإذا كان موعد الطعام رجعت إلى الدار ألقى زوجي وأطفالي ، وأنا مضطربة الذهن خائرة القوى .

ودخل على زوجي بعد أيام والتأثر بآد عليه وقال : « مسكين صديقنا ، لقد انتكس ولزم من جديد فراشه يعاني من الحمى أهوالا ، وقد دعاني صبح اليوم لعبادته فلما ذهبت إليه وفحصته تولاني القلق عليه ، وسأعوده كل يوم مرتين لأرى أثر الدواء فيه ، والله يساعدي ! . . . » .

نزلت على هذه الكلمات نزول الصاعقة ، ألا لئن أصاب صديقنا مكروه لأكونن الآثمة الجانية ، وأردت أن أسأل زوجي عما إذا كانت حياته في خطر . فتلجلج لساني في فمي ، وعز على أن يدور هذا الخاطر الأسود بخيالي ، فلما أمسيت تولاني أرق اضطربت في أثناءه بين اليقظة والإغفاء ، فإذا أغفيت رأيت صديقنا ترعده الحمى وسمعته يناديني . . . وحين بدت تباشير النهار هببت من مرقدي كالمجنونة طائشة الصواب ، وحاولت جهدي ضبط أعصابي فإذا بي أرتعد . وكان بي من الحمى ما بهذا الرجل الذي جنيت عليه . . واستيقظ زوجي وتناول فطوره وذهب إلى عمله وتركني مستلقية في غرفة أخرى وقد خيل إليه حين دخل ورآني بهذه الصورة أنني أرقمت ليلي ثم نمت

وجه الصبح . وأن من الخير لذلك أن يدعنى أستعيد بالنوم راحتى .
فلما استطعت أن أجمع قواى خرجت إلى الطريق هائمة على وجهى ،
وجعلت أسير ثم أسير وأتلفت بين الحين والحين ، مخافة أن يرانى
أحد معارفنا ، وكأنى سجين هارب من سجنه . وطال لى السير وأنا لا أعرف
لنفسى غاية أقصد إليها ، ورأيت نفسى بعد حين على مقربة من « كوبرى »
عباس ، فلتت إليه وسرت فوقه حتى توسطته ، هنالك وقفت وأخذت أنظر
إلى صفحة الماء فى النيل . . أو لو ألقيت بنفسى فى النهر فابتلعتنى لجنه ،
ألا تكون هذه الخاتمة خير جزاء لى ؟ . . مر هذا الخاطر بذهنى كلمح البصر ،
ثم استقر فى رأسى لا يبرحها . . ولم أذكر لأول وهلة فجيحة أطفالى بموتى ،
بل اعتبرته الوسيلة الوحيدة لنجائى من الهم المقيم الذى جثم على صدرى منذ
انقلب على انتصارى ، وثبت نظرى على صفحة الماء فسحرت بها ولم أجد عن
إدامة النظر إليها منصرفاً ، وإننى لكذلك تزداد فكرة الانتحار تشبهاً بنفسى
إذا برق طيف الطفلين فى خيالى . وكأنما ينادينى : « رحماك يا أماه ! . . »
هنالك انهملت العبرات من مآقى وغامت الدنيا فى عيني . واستندت يدي
إلى حاجز « الكوبرى » ولم أعد أرى شيئاً .

كم بقيت على هذه الحال ؟ . . ساعة أو أكثر أو أقل ! . . لا أدرى !
وكل الذى شعرت به أن المارة كانوا ينظرون إلىّ ثم يتخطونى لشأنهم ،
ولا يعنهم أمرى . وإننى لكذلك إذ وقفت إلى جانبي سيدة ربت بيدها
على كفتى ، فتنهت فرعة فنظرت إليها فإذا هى زميلة قديمة من زميلات المدرسة ،
فلما استيقنتها واستيقنتنى قالت : « مالك يا حبيبى وماذا يبكيك ؟ . . »

إنني لم أرك منذ سنوات ، ولكني سرعان ما عرفتكَ ، إنكَ لم تتغيري عما كنت عليه أيام المدرسة . . لماذا تبكين ؟ . . هوني عليك فالحياة أهون من أن تذوق عليها دمة واحدة . . انظري إلى هؤلاء الذين يمرون الآن بنا ، أتحسبنهم أسعد منك حالا ؟ بل أتحسبنهم أقل مني ومنك هما وألماً ؟ . . إن منهم من لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس ومنهم العاجز والمريض ، ومن أثقلته الأحزان والهموم . . نعم يا حبيبتي ! . . ومن نظر إلى بلوى الناس هانت عليه بلواه ، فهو في عليك وكفكفي عبراتك وتعالى معي ! . . » .

قالت هذا الكلام ، ولم تنتظر مني جواباً ، بل جذبتني من يدي وسارت وسرت أتبعها كأني طفلة ولا تكاد قدماي تحملاني . فلما جاوزنا الجسر إلى الطريق ، قالت : « أراك متعبة ، فخير أن نركب عربة أوصلك بها إلى بيتك تستريحين فيه ، ونادت سيارة وطلبت إلى أن ألقى إلى سائقها بعنوان منزلي ، وألقيت نفسي منقادة لأوامرها كأني تلميذة من تلميذاتها ، فقد عرفت من حديثها أنها مدرسة ، وأنها مضطرة الساعة للذهاب إلى مدرستها ، ولولا ذلك لبقيت معي حتى أسرد سكينتي . وألقيت إلى السائق بعنوان المنزل فلما كنا عند بابه نظرت زميلتي إليه ، ثم قالت : « أتسكنين هذا القصر ثم تبكين ؟ . . » .

وشكرتها من أعماق قلبي ، لا لأنها أنقذت حياتي ، بل لأنها ردتني إلى الطفلين العزيزين . . قالت : « أسعدك الله بهما وأسعدهما بك » . وألقت إلى السائق بعنوان مدرستها بعد أن اطمأنت إلى أنني دخلت المنزل ، وعبثاً حاولت من بعد أن أرى هذا الملاك الرحيم .

دخلت المنزل منهوكة القوى محطمة الأعصاب لا أكاد أقوى على نزع
ملابسي . فلما استطعت نزعها وألقيت بنفسى فى سريرى إذا البكاء يغلبنى
من جديد ، وإذا عيناى تجردان بدمع هتون . وبعد برهة إذا جسمى كله
ترعده الحمى ، وإذا بى اضطرب فى فراشى اضطراباً جعلنى أصيح منادية
مربية أطفالى ، فلما دخلت علىّ ورأتنى ممتقعة اللون أسرعت إلى « الترمومتر »
ثم سارعت بعد أن نظرت إليه إلى إسعافى ! . .

وبعد سويعة أقبل زوجى لموعد طعامه ، فلما عرف ما بى أسرع يفحصنى ،
ثم أمر بإقفال نوافذ الغرفة وبتركى فى راحة تامة ، وجاء الطفلان بعد ذلك من
المدرسة ، فاستقبلتهما مربيتهما وأخبرتهما أننى مريضة ، ولذلك يجب عليهما
ألا يحدثا أية ضجة أو جلبة تزعجنى ، وأمسكت الطفلين ودخلت بهما علىّ
فاذا هما ساهمان وكأنهما حدثتهما نفساهما البريثتان بأن أمراً حدث ، فلما
وقفنا إلى جانب سريرى اغرورقت عيناى بالدمع ونظرت إليهما كأنما أستغفرهما
أن كدت أجنى عليهما فأيتهمما ، وانصرف الطفلان كسيرى الطرف ثم غلبتهما
الطفولة فسمعتهما يضحكان ، عند ذلك شعرت بأنى كنت مقدمة على عمل
جنونى أنجانى القدر منه بأن بعث إلى ذلك الملاك الرحيم .

ولم يكن يشغلنى أيام مرضى غير نكسة صديقنا وحال صحته ! . . وقد
سألت زوجى غير مرة عن حاله ، فأنبأنى أنه تخطى الخطر وإن كان فى حاجة
إلى زمن طويل ليسترد عافيته ، فلما برئت واستطعت أن أخرج من منزلى
سألت زوجى أن أصبحه يوماً فى عيادة هذا الصديق العزيز ! . .

وإذ رأيت وتبينت حاله رقى قلبى رقة لم يكن يسيراً معها أن أغالب دمعى ،

ثم زادت بقلبي رفته فأمسكت بيده وزوجى واقف بجانبى ، وقلت : « أستحلفك بأعز عزيز عليك أن تسامحنى . . أنا أعلم أن ذنبى لا يسعه الغفران ، ولكنى أعلم كذلك أن وفاءك لصداقتنا يسموبك إلى ما فوق المغفرة ، يسموبك إلى الرحمة وإلى الإشفاق على بائسة منكينة ! . . » .

فنظر إلى الرجل وهو ممدد على كرسية الطويل بعينين يشيع فيهما عطف يكاد يكون الحنان وقال : « لقد سامحتك منذ زمان طويل ، وليسامحك الله وليسامحننا جميعاً ! . . » .

لم أشعر فى حياى بتضاؤل كبريائى مثل ما شعرت فى هذا اليوم ! . . لقد شعرت بنفسى ، أنا المتعالية المعتزة بنفسى ، صغيرة ضئيلة تافهة محتاجة إلى كلمة عطف تسند ضعفى وتسكب ماء البر الطهور على ذنوبى ، وهأنذى قد سمعتها ، لكنى بقيت مع ذلك صغيرة ضئيلة تافهة .

وانقضت الأيام والأسابيع وعوفى صديقنا وعاد يتردد علينا ، لكنى بقيت برغم ذلك محطمة الأعصاب فلا بد لى من جو جديد تتغير فيه نفسيتى ، فلما أقبل الصيف قال لى زوجى : « ما أحسبك احتجت يوماً إلى السفر إلى أوربا حاجتك هذا العام ، فأعدى عدتك ! . وقد لا أستطيع السفر معكم ، ولذلك أعددت جواز سفر لك وللطفلين ، وأرجو أن يفيدكم تغيير الجواز الفائدة التى أرجوها ، وشكرته ، وأخذت أفكر فى السفر وفى إعداد عدته ! . . » .

الفصل السادس

لم أنظر إلى اصطيفنا بأوربا هذا العام مطمئنة النفس قريرة العين .
أنا حقاً في أشد الحاجة إليه ، فهذا الجو الذى يحيط بى خائق . ولم يبق لى
طاقة باحتماله ، وأعصابى مرهقة يثيرها مس الهواء ، لكن الهواجس كانت
نفزعنى وتبلىل خاطرى وتزيد نفسى قلقاً وأعصابى اضطراباً . . فإبال زوجى
لا يريد أن يصحبنا إلى أوربا ؟ . . أى شىء يمسكه بالقاهرة ليصلى صيفها
لقائظ ؟ . .

وهنا ارتسمت أمامى صورة صديقتى وهى تنظر بعينها الجميلتين الساحرتين
إلى هذا الطبيب الذى وهبها كل عناية لإنقاذ ميراثها وميراث أطفالها ، أولاً تكون
هذه المرأة هى السبب فى تخلفه عن مصاحبتنا وبقائه بالقاهرة ؟ . . أنا أعلم
أنها تصطاف بالإسكندرية . لكن الذهاب من القاهرة إلى الإسكندرية ،
آخر كل أسبوع لقضاء يومين أو ثلاثة على مقربة منها ، والتقاءهما كلما شاءا ،
أمر يسير ! . .

وإذا أنا كنت قد فعلت ما فعلت لأمنع زواجها من صديقنا ، أفأسافر
إلى أوربا وأدعها تغصب منى والد أطفالى ، على حين أنتقل أنا بهما بين بلاد
المياه ، وفى أعالى الجبال الأوربية الجميلة .

ودار بخاطري أن أعتذر عن عدم السفر ، وأن أكتفي بالذهاب إلى الإسكندرية أقضي الصيف بها . وإني لأفكر كيف أصور الأمر لزوجي إذ مر بي صديقنا ، وأخذ يسألني عن موعد السفر وبرنامجه ، قلت بعد حوار طويل : وما اهتمامك أنت وزوجي بهذا الأمر ؟ كأنما تريدان إبعادى عن مصر لأمر تدبرانه ؟ . .

فبهت الرجل لسماع هذه العبارة ، وقد قلبتها بنغمة كلها الجذ والحزم ! . .
وقال بعد هنية :

« أوهجست بنفسك هواجس جنونية جديدة لتقولى مثل هذا الكلام السخيف ؟ » قلت : « فلم إذن لا يصاحبنا زوجي إلى أوروبا ؟ » . .
هنا تبسم الرجل ضاحكاً وقال :

« إذن فاعلمى أنه استدان المبلغ اللازم لسفركم ، وكنت أنا واسطته وضامته ، وهو يريد أن يشتغل في الصيف ليسدد ما استدان ، أو يكفيك هذا العلم لتهدا نفسك وتسكن أعصابك » ؟

قلت وأنا أحاول التسكين من وساوس نفسى :

« ما كان أعناه عن هذه الاستدانة وأغنانى عن التعرض لهذه الهواجس ! . .
إننى لم أرغب إليه في السفر ، بل هو الذى عرضه على ! . . ولو علمت أن الأمر يقتضيه أن يستدين لما قبلته ، بل لكفانا أن نقضى معاً شهراً بأى مصيف وأن نقيم بقية الصيف هنا في وكرنا وملجئنا » ، وأجاب صديقنا مبتسماً :
« ثم تبقى أعصابك مضطربة وحسك مرهفاً طيلة العام المقبل فتجعلين حياته جحيماً ! لا تحسبي يا سيدتى أنه نسي في هذا الأمر نفسه ولم يفكر إلا فيك .

فقد ذكرت له حين طلب إلى التوسط في الاستدانة وضمانه فيها هذا الكلام الذي قلت أنت الآن ، وعرضت عليه أن تذهبوا إلى مكان قصي كمرسى مطروح ، فحدثني بلغة الطبيب الذي يعرفك خير معرفة أنك لا دواء لك إلا السفر إلى أوروبا ، وأن ما يتكلفه في ذلك من النفقة أيسر عليه من بقائك فيما أنت فيه مما ينغص عليه وعلى الطفلين عيشهم . ألا ترين أنه يحسن التقدير والحساب ؟ فاطرحي من خيالك المريض هواجس لا وجود لها إلا في هذا الخيال ، واستقبلي سفرك بنفس راضية لتعود إليك صحتك ولتعود إلى طفليك مرحهما وابتسامهما . وسأمر بك بعد ثلاثة أيام لأعرف كيف أعددت لرحلتك وبرنامجهما .

وصدق الرجل وعده ومررتي بعد ثلاثة أيام فألفاني أكثر هدوءاً وطمأنينة ، ذلك بأنني كنت قد أخذت أثق به وأطمئن إلى كلامه بعد أن أبقت من خلال أحاديثه المتكررة أنه لن يتزوج صديقتي . وداربيننا في رفق حديث هادئ أطلعته في أثناءه على خطة سفرى وعدته ! .

وصحبتني هو وزوجي إلى الإسكندرية حتى ودعاني ساعة تحركت الباخرة ، فلما بعدت عن الشاطئ وغابت عنا آثاره ذهبت أستقبل هواء البحر أملاً منه صدرى ورثتي ، مقتنعة بأن فيه الدواء الناجع لعلتي ، واستنشقت هذا الهواء ملء خياشيمي فأحسست فيه حياة تنعش قلبي . وترفع عن صدرى عبثاً كان يثقله ، وتمددت على مقعد طويل أرحت إلى مسنده ظهري ليكون صدرى أكثر استقبالا لهذا الهواء المحسن . وتطلعت بنظري إلى الأفق الممتد بين السماء والماء وكأنما يتهدى مع الباخرة فوق لج البحر العظيم . وانقضت ساعة

وأخرى وأنا على هذه الحال ، أزداد كل ساعة شعوراً بأن الأعصاب النهار
التي كانت تتحكم في وجودي تستقيم وتقوى شيئاً فشيئاً ، ألم يقل صديقنا إن
السفر إلى أوروبا فيه دواء عليلي . وهأنذا أشعر بفعل هذا الدواء منذ اللحظات
الأولى .

وأقبل المساء فكنت أهدأ يوماً ، وتقضت أيامنا على الباخرة وأنا أشعر
كل يوم بأنني أحسن حالا مما كنت عليه في اليوم الذي سبقه . وكان على الباخرة
سيدات رقيقات رأيتني ورأين أطفالاً فكن يداعبن الأطفال ويحدثني في
مألوف ما يتحدث المسافرون فيه ، فلما أصبحت اليوم الأخير والباخرة تتأهب
لإلقاء مراسيها على رصيف المرفأ ، جئن يودعني ، ثم قالت إحداهن وكأنها
تهمس في أذني :

« أهنتك من كل قلبي يا سيدتي ، لقد أشفقت عليك ساعة رأيتك
تصعدين الباخرة في الإسكندرية . . كان وجهك شاحباً وملامحك متعبة ،
وكان الجهد بادياً عليك ، وكأنما قضيت زمناً طويلاً في غرفة مظلمة ،
أما الآن - ولا حسد - فوجهك مشرق وملامحك باسممة وكللك حيوية
ونشاط » . فشكرتها وقلت : « لقد كنت أحسن الإعياء حقاً ، لقد مرت بي
أحداث أرهقتني ، وأشعر الآن أنني أفقت وحييت ! » .

وسافرنا توأ من المرفأ إلى الجبال وأخذت أنتقل مع الأطفال من مصيف
إلى مصيف وقد نسيت كل شيء إلا أنني حييت . فلما اطمأنتت إلى العافية
وإلى أطفالى أخذت أستعيد هذا الماضي القريب في دهشة ، وأعجب لما حدث
فيه . فإذا رأيته بدأ يشغل حيزاً من تفكيرى لم يكن أيسر من أن أهز أكتافى

وأعود إلى متاعى بجمال الطبيعة من حولي ، لكن أمراً واحداً لم يرح ذهني .
ذلك أمر صديقتي وعناية زوجي بشأنها وبميراث أطفالها عناية غير مألوفة .
فلن تحرك الرحمة والإنسانية وحدهما رجلاً ، ليعرض نفسه إلى ما تعرّض له
زوجي من أجل هذه الفتاة ؟

وفيما تنتقل بين المصايف صادفتني السيدة الأمريكية المعنية بزيئة سريرها
أكثر من عنايتها بزيئة خروجها ونزهتها ، وهي التي عرقها الصيف الماضي
إذ كان زوجي معنا في أوروبا . فقد صادفتني أسير في بهو الفندق وطفلاي
يسيران معي ، فلما رأتني أقبلت عليّ وعانقتني وأبدت من السرور بلقائى
ما أنعش نفسي ، وعدنا سيرتنا العام الماضي ، وزدنا عليها أنني جلست وإياها
على مائدة واحدة في غرفة الطعام .

وكانت تدعو بعض أصدقائها وصديقاتها أحياناً لتناول الطعام معنا ،
فيتيح ذلك لنا فرصة الحديث في شئون شتى . وهؤلاء الغربيين جرأة على
موضوعات يمتنعنا الحياء في مصر أن نعرض لها . ولست أنسى لهم حديثاً
ترك في نفسي من بعد أثراً عميقاً ، وكان للسيدة الأمريكية فيه رأى جرىء
لم أجده مثل صراحته فيما سبق من مطالعائى . فقد تحدثوا عن الحب وعن
صلات الرجل والمرأة ، وأيد بعضهم ما يقوله الروائيون من أن الحب عاطفة
يقصد بها الرجل تملك المرأة ، وأيد آخرون مذهب شوينهور من أن الحب
أسطورة تقصد الطبيعة من ورائها إلى تخليد النوع وتحسينه . قالت الأمريكية :
« أما أن الحب عاطفة يقصد بها الرجل تملك المرأة فحديث خرافة ابتدعه
الرجال إرضاء لغرورهم ، فلست أعرف رجلاً تملك امرأة في غير الكتب التي

يزوقها القصاصون ، أما الواقع فإن النساء هن اللواتي يمتلكن الرجال ويسخرنهم كما يشأن لأغراض الحياة . وقصة آدم وحواء تصور هذا الواقع خير تصوير ، فحواء هى التى أرادت أن تطعم من شجرة الخلد فسخرت آدم لما أرادت فأذعن لها وهو يعلم أنه يخالف بهذا الإذعان أمر به . والمرأة هى التى تخلق من الرجل ملاكاً أو شيطاناً حسب هواها ، ترتفع به إلى الذروة أو تهوى به إلى الحضيض ، وقلّ أن كان العكس صحيحاً ، والرجال أنفسهم لا ينكرون على المرأة هذا السلطان ولا يأبونه . ألا يتحدث الشعراء من أقدم العصور عن ربة الشعر على أنها مصدر وحيهم وإلهامهم ، والغزل فى الشعر من فنون الرجال يتغزلون به فى المرأة ويتخذونه زلفى إليها ؟ . . وقلّ أن روى التاريخ لامرأة شعر غزل إلا أن يكون الرجال قد زيفوه لينزلوا بالمرأة إلى مثل مكانتهم ، وماذا يمتلك الرجل من المرأة فيما يزور القصاصون؟ جسمها. إنه يملكه سوية يذل لصاحبه بعدها ما عاش ، وفى طبعها ما فى طبع كل أنثى مما يذكره شوبنهاور : أن تخلق النوع . والرجل يحسب أنه يملكها حين تسخره هى ليتم أسمى غرض فى الحياة وأرفعه ، ذلك أن تخلق جيلاً جديداً ! . . »

قالت سيدة من الحاضرات : « إن ما ذكرته يصدق على الزواج أو على التناسل إن شئت ، لكنك لم تذكرى شيئاً عن الحب ، والحب لا صلة له بالتناسل ، بل هو عاطفة مجردة مكثفة بذاتها كالصدقة ! . . والحب كلما ازداد تجرداً ازداد سموً ، وكلما كان خالصاً لوجهه وحده كان رحيق العواطف وخلاصتها جميعاً . »

أجابت الأمريكية . « إن هذا الحب الرقيق الذى تذكرين ، وهذه

العاطفة السامية المكتفية بذاتها ، حب ملائكى لا يعرفه بنو الإنسان ، وهو على كل حال ليس الحب الذى يذكر القصاصون أن الرجل يقصد به إلى امتلاك المرأة ، ولئن وجد هذا الحب الملائكى بين شاب وفتاة ، أو بين رجل وامرأة . ونذر كلاهما لله أو للعذراء ألا يقرب أيهما صاحبه ، وألا يكون بينهما قط شىء من صلة الجسد ، إنهما إذن لمن أتى أبناء الكنيسة الكاثوليكية البررة المطهر ، وليس من أبناء عالمنا نحن . عالم الحياة والتجدد . أما حب الرجل والمرأة فى عالم الحياة فغايبته إنشاء الشركة اللازمة لأداء واجب الحياة على خير وجه ، ووسيلته التجانس والتجاذب بين الشريكين على نحو يكفل انتقاء أحسن بذرة للتربة التى تصلح لها ، والتى تتكفل هذه الشركة بتعهد ثمراتها هذه صورة مادية قد لا ترضى الخيال الشعرى ، لكنها الصورة التى تنتقل مع تاريخ الإنسانية منذ عرفنا تاريخ الإنسانية . فالتشريع الذى وضعه الرجال فى مختلف العصور يقررها ، والواقع الذى تراه أعيننا يشهد بها . فإذا أراد رجل أو أرادت امرأة أن تسمو على هذه الصورة المادية فقد أنكر كلاهما واجب الحياة وتنكر له ، وهذا - مع الشىء الكثير من الأسف - ما تيقنته أنا بعد تجارب كثيرة مريرة ! . .

قلت - ملقية الكلام إلى الحاضرين من غير أن أوجهه إلى أحد بذاته :

« والغيرة ! . ، ألها صلة بالحب ؟ أم أنها مستقلة عنه قائمة بذاتها ؟ . » .

قالت الأمريكية - وكأنما حرك هذا السؤال عندها شجناً دفيناً :

« غيرة المرأة عاطفة طبيعية باعثها الدفاع عن النفس ، وعن الملك . فالمرأة كما ذكرت تملك الرجل الذى تحب وتحرص على ألا تفرط فيه ، وهى

لذلك تحوطه بالعناية التي يحيط بها الإنسان أعز ما يملك . وهي تعتبر ماله ملكها ، وصحته ملكها ، وقلبه ملكها ، وسمعه ملكها ، ومكانته في المجتمع ملكها ، فإذا حاولت امرأة غيرها أن تغضب هذا الملك منها فن حقها أن تدفع هذا الاعتداء بكل وسائلها . وفي مقدمة هذه الوسائل أن تنصب شباكها حول الرجل نفسه حتى لا يفلت منها ، فإن نجحت فذاك ، وإن تغلبت عليها غريمتها أو حاول رجلها أن يفر منها فن حقها أن تعلن عليهما حرباً شعواء ، قد تكون الهزيمة في هذه الحرب نصيبها ، ولكن خوف الهزيمة لا يجوز أن يشنها عن النضال ، فلا تفرط في قيد أئمة من ملكها إلا مغلوبة على أمرها . وإذا هزمت مع ذلك فلها العذر ولها من استماتها في النضال عن ملكها عزاء عن فقده آخر الأمر ، وإن لم يرد هذا العزاء فائثاً ولم ينجها من أن تفرق نفسها فيما يذيب الهم ويذهب الحزن .

قالت الأمريكية عباراتها الأخيرة وقد شردت نظراتها وانخفض صوتها وكأنما حركت نفسها هواجس ماض قاست فيه أهوالا ، وانهزمت فيه بعد دفاع طويل مجيد . . عند ذلك أدركت حرصها على الشراب ، تفرق فيه همها . وقد رأيتها ذلك اليوم أشد إكباباً عليه كأنما هاجت الذكرى أشجانها فاستعانت بالشراب على نسيانها وخشيت أن يعاودها من هذه الذكرى رجوع يثير من نفسى ما لا أريد أن يثور وأنا حريصة على أن أفيد لصحتي ولأعصابي ولكل حيويتي من هذا الاصطياف ما استطعت ؛ فانتقلت إلى مصيف آخر أكثر مرحاً وأخذت أعبت أنا وأطفالي وأرتع معهم ، نرتفع إلى قنن الجبال ، ونلعب في الثلوج البيضاء المتراكمة عليها ، ونهبط إلى الوديان نستمع بخضرتها

وبياها وانتقل ثم تنتقل حتى لا يدع لى المقام فى مكان واحد فرصة للتفكير فى غير المرح والمتاع .

وعدنا آخر الصيف إلى مصر ، واستقبلنا زوجى على ظهر الباخرة أول ما أرسى بالإسكندرية ، وفرح الطفلان بأبيهما فتعلقا بعنقه وأخذوا يقلبانه . فسألنى هوكيف أمضينا صيفنا ، فذكرت له طرفاً مما رأينا ، وذكرت الأمريكية التى زارها معى العام الماضى فى غرفة نومها ، ولكنى لم أذكر شيئاً من أحاديثها وأحاديث أصحابها . وسألته بدورى كيف قضى صيفه ؟ ورجوت ألا يكون قيظ القاهرة أرهقه ، وأجابنى أنه استطاع أن ينتهز فترات جاء فى أثنائها إلى الإسكندرية يستريح من عناء العمل ويستنشق هواء البحر يسرى به عن نفسه ويعتاض به من قيظ بلغت درجته الأربعين فى بعض الأيام ، وذكرتنى زوراته الإسكندرية حيث مصطفى صديقتى بهواجسى قبيل سفرى إلى أوربا ، على أنى آثرت الصمت فلم أقل شيئاً .

وانتقلنا إلى القاهرة ، وجاء صديقنا محمد الله على سلامتنا فأبدى اغتباطه بما أفدت لصحتى من رحلتى وسروره بما عاودنى من سكونى وطمأنينتى ، وتقضت أوائل الخريف بعد ذلك رتيبة متشابهة تبعث إلى النفس السأم والملال . فلما كنت فى الأيام الأولى من شهر ديسمبر أقبل زوجى يوماً يذكر لى أن جماعة من أصدقائه الذوات ، سيدات ورجالا ، يريدون أن يستمتعوا تلك الليلة بضوء القصر عند سفح الأهرام ، وأنهم يدعوننا لمشاركتهم فى هذا المتاع . وأنه ذكر لهم أن مثل هذه التزهة الليلية غير مألوقة لى ، فألحوا عليه فى أن يقنعنى بمشاركتهم وقبولى دعوتهم ، وأنه وعدهم أن يفعل ، وسألنى بـمَ

يحييهم . قلت : « وما رأيك أنت ؟ فأنا في هذا الأمر على ما تحب . إن شئت ذهبنا وإن شئت اعتذرنا » .

وإنما أردت بهذا الأدب الجمل أن ألقى عليه كل التبعة . . على أنني كنت أود من كل قلبي أن يقبل هذه الدعوة . فهي لون جديد من الحياة يشوقني أن أعرفه ، وأصحابها طراز من الجمعية القاهرية الراقية يسرني أن أتعرف إليهم . ولقد كنت فوق هذا وذاك أفكر في الوسيلة التي أسترد بها زوجي إلى حظيرتي ، فلا يبق لي لدى خيال شك في تعلقه بصديقتي . وقد استبدني هذا التفكير بعد أن ذكر لي حين استقبلنا على الباخرة بالإسكندرية أنه جاء من القاهرة إليها غير مرة في أثناء غيابنا في أوروبا حين كانت صديقتي تصطاف بها ، فإذا قبلنا هذه الدعوة فتحت أمامي باباً أنفذ منه للغرض الذي أقصد إليه .

وبدا على زوجي بعض التردد بعدما ذكرت أنني تركت الأمر له . قلت : « فم تتردد . . إن لم يكن في هذه الدعوة ما يغريك فلا أيسر عليك من أن تعتذر عنها ، وكل الذي أرجوك فيه ألا تحتج في اعتذارك بي حتى لا يفسر القوم ذلك تفسيراً يسوءني . . تستطيع إن شئت أن تحتج بعملك ، فأنت طيب معرض لأن تطلب في كل وقت ، أما إن راقك أن تقبل الدعوة فأبلغ أصحابها شكرى إياهم واعتباطى بالتعرف إليهم » .

وسكت زوجي هنيهة ثم قال : « أما وأنت لا ترفضينها فأنا أقبلها ، وسأبلغهم ذلك الساعة ، وإنني لوائق من أنك ستسرين بمعرفتهم . فهم غاية في الرقة رجالاً ونساء ، وقد أبدوا من الحرص على التعرف إليك ما شكرته

عليه . وإنتى لوائق من أنكم ستصبحون أصدقاء عما قليل » .

ما أشد غبطينى وما أسعدنى بما قال ! فهذا يتفق مع ما دار بخاطرى وما فكرت فيه من وسيلة أسترده بها إلى حظيرتى ، لا بد أن أثير الغيرة فى نفسه حتى لا يظل متوهماً أننى لا أعرف غيره ، ولا أحب غيره ، ولا أقدر غيره . مما دعاه إلى الاكتفاء نحوى بأداء واجبه رباً لأسرتنا ، وأن يتناسى شخصيتى وما حبأنى القدر من مواهب يعجب بها غيره أشد الإعجاب .

وأقبل المساء وأشاع القمر بضياؤه الرطب الندى معانى النعيم فى أجواء القاهرة واشتملها كلها . وتزينت لهذه الزهرة الصحراوية زينة جمعت إلى البساطة الإغراء . ودق التليفون ، وقال زوجى : إن القوم فى طريقهم إلينا . فهبطنا إلى الطابق الأول حتى إذا سمعنا نفير سياراتهم خرجنا إليهم فألفيناهم نزلوا من السيارات لتحتينا ، وتعرفت إليهم ، ودعانى أحدهم لأجلس فى سيارته إلى جانبه وهو على عجلة القيادة ، وذهبت زوجته فى سيارة أخرى ، وتفرقنا حتى لا تجلس زوجة مع زوجها فى سيارة واحدة . وانطلقنا مسرعين حتى إذا بلغنا طريق الهرم سرنا على هون مبطين ، وما كان لنا ألا نفعل ، فقد سكب القمر على ما حولنا من المزارع والمساكن أمواجاً من نور غمرت ما بين السماء والأرض وجعلتنا نسبح منها فوق أثير شعرى رقت معه قلوبنا وسمت عواطفنا حتى كادت تلتقى وتتعانق ، قلت لزميلى فى السيارة : « لست أدرى كيف أشكر لكم هذه الدعوة ، فلست أذكر أنى رأيت القمر أبهى سناً وأروع جمالاً فى حالته البديعة مما هو اليوم ، لقد طالما اجتزت هذا الطريق فى ضوء عاشق السماوات فلم أره يرنو إلىَّ ويحدثنى بمثل هذه اللغة التى يحدثنى بها الليلة ! » .

وأجاب صاحبي : « أنت يا سيدنى التى أوحيت إلى القمر كل هذا الشعر الذى يوقع لنا الليلة أنغامه ، وستريه على سفح الأهرام وعلى وجه أبى الحول أروع شعراً وأبدع إيقاعاً بفضل وحيك وإلهامك . . » واتصل بيننا بعد ذلك حديث رقيق حرصت ما استطعت على أن يزداد ظرفاً ورقة وسحراً ، فإذا تحدث الرجل بعد ذلك عنى حديثاً بلغ سمع زوجى عرف أنه ظالمى وأن من حق أن أثور بهذا الظلم .

وبلغنا سفح الأهرام وأوغلنا فى الصحراء ثم تركنا السيارات وأخذنا ننعيم فى هذا الجو الشعرى الساحر بأعذب ألوان الحس . . كنا نتطلع إلى ناحية الأهرام فنراها قد كساها القمر من ضيائه حلة زادت بها بهاء ومهابة ورهبة . ثم نتطلع إلى رمال الصحراء المتموجة تحت أشعة القمر فى ارتفاع وانخفاض يخلفان منها بحراً لجيئاً وإن لم يصطبخب له موج ، وإن كان صامتاً صمت الليل ، وارتفاع يبصرنا أحياناً إلى السماء فإذا الجو كله معطر بعبير هذه الساعة اللذيذة المنعشة ، وإذا القمر قد أذاب فى هذا الجو نوراً مطمئناً تستريح له العين وينهل منه القلب . وتنتشى بسحره العواطف ، ويعبث الهوى فى أثنائه بالأفئدة بين الجوانح ! . .

وسرعان ما أقام القوم مرقصاً على أنغام أسطوانات جلبوها وجلبوا « فونوغرافها » معهم ، وشاركت وشارك زوجى بطبيعة الحال فى الرقص ، وإن لم نرقص مرة واحدة معاً خلال الساعات المتعاقبة التى شهد فيها ساهر السماوات هذا المرح السابغ المجنون ، وقد ألقى نفسى فى أثناء هذا الرقص بين أذرع الرجال من أصحابنا جميعاً ، وجعلت أكثر رقصاتى مع زميلى فى

السيارة ، وكنت فى أثناء رقصى معه أتابع الأحاديث الحلوة التى بدأناها فى طريق الهرم .

فلما أخذنا من الرقص حظنا كاملاً ، جلسنا على سجادة جىء بها لهذا الغرض وتناولنا طعاماً خفيفاً نكظم به صيحات معدائنا بعد أن هضم الرقص ما كانت تحتويه ، وجعل القوم فى أثناء الطعام يشنون أطيب الثناء على رقصى وينسبون لقوامى البارع أكبر الفضل فيه .

وعدنا أدرأجنا بعد أن شكرت القوم من كل قلبى ، لأنهم أتاحوا لى فرصة متاع لا عهد لى بمثلها من قبل . . وأجاب القوم بأنهم هم الذين يشكرونى . لأننى دفعت إلى سهرتهم من حيويتى ومن رقى حياة ورقة لم يعرفوها فيما سبق لهم من مثلها .

وانطلقت السيارة بى وبزوجى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فلما شعرت أنى وإياه فى خلوة قلت : « ألم تحدثك نفسك طيلة ساعات الرقص أن تطلبنى لرقصة معك ؟ ! . . » وكأنما أدهشه سؤالى هذا فأجابنى : « لقد رأيتك فى أثناء الرقص كله فى غبطة لم أرد أن أفسدها عليك أو أنتقص منها ! . . » قلت : « لست أنكر أننى اغتبطت بهذه التزهة الساحرة من أولها إلى آخرها ، لكنك كنت أكثر منى اغتباطاً ، فقد رأيتك ، تائهاً فى أحلام أفسح سعة من الصحراء . . وأقسم أننى لم أكن خطرت بأحلامك ، ولو أننى خضرت بها لدعوتنى ، ولو مرة واحدة إلى الرقص معك . . » .

وأجابنى - وكأنما أخذ لهذا الجواب عدته : « لكن ذلك لم يكن يليق . فنحن مدعوان إلى هذه الحفلة فيجب ألا يشعر أصحابها بأننا ننكمش عنهم

إلى ناحية ، لحظة واحدة ، ولأى اعتبار ! . . . قلت : « وما لهم لم ينعوا ذلك فيما بينهم ، فقد راقصت كل سيدة زوجها مرة على الأقل ، أما أنت فقد تعمدت إهمالي لغرض لا أفهمه » ! . . . وأدريت وجهى غاضبة واستمر هو يقود السيارة إلى منزلنا .

ومررت بـ صديقنا الغداة فقصصت عليه أبناء سهرتنا وما دار بيني وبين زوجي حين عودتنا ، فابتسم وقال : « مسكين زوجك ، إنه رجل طيب ، ولكنه لا يفهم العواطف كما تفهمينها ، هي ليست في نظره لوناً من ألوان الفن الجميل الذي يشهد الناس صوره المختلفة على المسرح ، ولكنها بعض واجبات الحياة الزوجية يؤديها الرجل فيما يبيده من عناية براحة زوجته وأولاده . وعذره عن هذا الفهم أنه فلاح ، هو من أبناء الأعيان يرون الحب المسرحي عيباً غير لائق بالناس الطيبين ، وهو مقتنع بأنه يؤدي لك ولطفليك ما لكم عليه من حق ، ويحسب أنه يؤدي هذا الواجب على الوجه الأكمل ، وهو يظهر لي دهشته أحياناً ويسألني أمقصر هو في حقكم في شيء برغم ما يحمل نفسه من أعباء يخشى أن ينوء بها يوماً من الأيام ؟ » ! . . .

وقلت في نفسي : « نعم . هو فلاح وفيه خبث الفلاحين ، وكل ما درسه وكل ما رآه في أسفاره إلى أوروبا ، وكل ما تعلمه من معاشره الذوات وأبناء الذوات لم يغير طبيئته ، وإن أسعج عليه طلاء ظاهراً من الثقافة والتمدن ، فإذا حك هذا الطلاء ، ظهر الفلاح بقسوته وضعفه وخبثه ، ألا يتزوج أحدهم زوجة ثانية ثم لا تعلم زوجته الأولى بما فعل سنين متعاقبة ! . . . وما يدريني لعله تزوج صديقتي ! . . . وهو لا ريب يحبها وإن لم يتزوجها . . . إن هذه الطيبة

التي يتظاهر بها ليست إلا ثوب رياء يستر به مكره وخبيثه . . أفلا يجمل بي
أن أحاربه يمثل سلاحه ، فأظهر غير ما أبطن ، على بذلك أستل منه سره
وأقف على مكنون صدره ؟ ! . . . »

وفي الغد كان القمر بديراً كاملاً ، فاتفقنا مع أصدقائنا الذوات على أن
نوغل في الصحراء ، وأن نجعل الاستراحة القائمة في منتصف الطريق بين
القاهرة والإسكندرية غايتنا ، وقضينا وقتاً ناعماً استمعنا فيه من « الجراموفون »
أحلى الأغاني وأعذب الأنغام ، وتناولنا من الأحاديث ، كل جماعة في
ناحية ، ما أرضى هواناً وأمتع أرواحنا وقلوبنا . ألا ما أروع الصحراء في
ضوء القمر ! . . أنت منها في لجة تجمع السماء والهواء والأرض في غلالة من
غمام مضيء ، لا تعرف العين له بداية ولا نهاية ، ولا تعرف أين منه مساكن
الشياطين وأين منه منازل الملائكة ؟ . . كل شيء فيه مبهم أمام العين واضح
أمام البصيرة تقرأ سطور الغيب في لوحه المحفوظ ، فأنت تشعر وأنت في هذا
المحيط الباهر الوضاء ، كأنما كشف عنك غطاؤك ، وكأنما اتصلت على موج
الأثير بعوالم الكون جميعاً وهي مع ذلك محجوبة عنك ، لا ترى فيها الدقائق
التي ترى في وضوح النهار ، وأنت مع ذلك معجب بما ترى ، تحسب أنك
استبطنت أسرار الكون وعرفت منها ما كان وما يكون ! . .

وعدنا أدرأجنا حين تكبد القمر السماء ، وإننا لنهب الطريق إلى القاهرة إذ
وقفت إحدى السيارات ، واندفع نفيها يعلن نداء الاستغاثة ، وفي لمح البصر
اجتمعت السيارات كلها حول السيارة المنكوبة ، ونزلنا جميعاً رجالاً ونساء
نتساءل : ما أصابها ؟ ولم يكن العطب فادحاً ، إنما هي عجلة انفجرت ويجب

تبدليها ، يكفى إذن أن يتعاون رجلان فى هذه المهمة . وكان أحد الرجلين زوجى ! . وانصرفنا جميعاً سستع من جديد بالهواء المنعش ، والفضاء الرقيق ، والحديث العذب ، والضحكات الناعمة تتأرجح على أرج النسيم فتنشئ بها أسماع الرجال نشوة تترجمها بسمات ثغورهم ، وبريق عيونهم ! . وكنا إذ ذاك فى طريق الصحراء على بضعة كيلومترات من طريق الهرم ، فلما استعادت السيارة المنكوبة مقدرتها على السير ركبت كل سيدة مع زوجها حتى بلغنا منازلنا .

لذلى عيش هؤلاء الذوات ، واستراحت نفسى للون حياتهم ، وأعجبنى فيهم ظرفهم وحسن ذوقهم فى الحياة ولطف مسلكتهم فيها ، وارتبطت لذلك معهم بأوثق صلة . ولقد كنا حين لا يسعفنا ضوء القمر بسهرات فى الهواء الطلق نؤثر أن نجتمع فى منزل من منازلنا نقضى فيه سهرة لا تقل عن سهرات الصحراء متاعاً ومرحاً ، كنا نرقص ونغنى ونستمع إلى الموسيقى تثير من ألوان الطرب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا عدت مع زوجى إلى منزلنا فى الهزيع الأخير من الليل كان الجهد قد أخذ منا ، فنمنا إلى الضحى ، فإذا استيقظت علمت أن زوجى قد بكر إلى عمله كعادته ، وأمر ألا يزعجنى عن فراشى أحد ! . .

ولم أكن أحسب أن هذا اللون من حياة الذوات باهظ النفقة . لكنى سرعان ما تبينت خطئى ، فالولائم والأزهار النادرة والحلى والثياب ، وما يتصل بذلك من ملحقاته لا ينتهى حين يبدأ ولا تنتهى نفقاته . ونحن نعيش من قبل عن سعة اضطرت زوجى للاستدانة سداً لنفقات سفرنا إلى أوروبا ،

وليس في مقدورنا الآن وقد عرفنا هذه الألوان الجديدة من الحياة ، وتعرفنا إلى أصحابها أن نرتد عنها ، حتى نترع منها ويفيض بنا كأسها ، ولم يدر بخاطر زوجي أن يخالفني في ذلك حذر المستقبل . ولعل عقله الباطن هو الذي صده عن أن يفعل مخافة كلام الناس . . إنه يحسب أنه انتقل بي إلى مصاف الذوات ، ومن العار عليه أن يرتد بي عن هذه الصفوف خشية إملاق . . فאלله يرزق من يشاء بغير حساب . . أليس صاحبه المليونير كان إلى بضع سنوات متواضع الثراء ، وكان يقترض منه ثم يرد له ما اقترضه ، فما ضره وقد أصبح الرجل مليونيراً أن يقترض هو منه في انتظار أن يسد الله عنه دينه ! . .

ولكن ! . . كيف يحتال لذلك من غير أن يجرح إباءه الذاتي . . دعا المليونير إلى وليمة فاخرة عندنا وأوصاني أن أبالغ في اللطف معه والتودد إليه وحسن اللقيا لزوجته . ولم أجد في تنفيذ الوصية مشقة . . فقد أعجبتني هذه الزوج وحلت أجمل مكان من نفسي ، فبالغت في تحيتها عن رضا مني واطمئنان إليها . وكان المليونير قليل الكلام ، كثيراً ما يغيب بذهنه عن المجلس وكأنه يفكر في مشروعاته وحساباته ، وقد بذلت جهدي لاستدراجه إلى الكلام في الشؤون الجارية مما تنشر الصحف أو تتداوله المجالس ، فكان يحصر ذهنه ليحسن الإصغاء إليّ ، ثم يحييني في عبارات موجزة جديدة محكمة .

وزرنا الرجل بعد ذلك وتردد علينا . لقد طالما سمعت عنه من رجال ذوي ثقافة أنه محدود الأفق لا يستطيع أن يسمو بعقله فوق الماديات ، وفوق ما يتناول الناس من منافع الحياة . وقد أردت أن أسبر غوره ، لأعرف مبلغ ما في هذا الكلام من دقة وصدق ، فدلني ما شهدت على صحته ، لكنني رأيت

ذلك التفكير المادى الذى ينسبونه إليه واسع المدى إلى غير حد ، إذا تكلم فى أحد مشروعاته تناول تفاصيله فى دقة غاية الدقة ، وقصص ما أنفق للحصول على هذا المشروع من جهد ومال قصصاً يستهوى اللب ، ويكاد يذكر الإنسان بالقصص البوليسية . وهو يؤمن بالمال إيماناً لا حد له . وقد ذكرنى إيمانه هذا بغنى آخر نعرفه جعله الإيمان بالمال شحيحاً غاية الشح ، إلا أن يكون له من وراء السخاء منفعة مادية ، هنالك ينفق عن سعة ولكن بحساب . عابه أحد أصحابه يوماً لعبادته المال وحرصه عليه ، وكان صاحبه هذا مولعاً بالتحف والصور الزيتية ينفق فى اقتنائها الشيء الكثير . وكان جواب الغنى الشحيح على ما عابه به صاحبه صريحاً واضحاً ، قال : « أو تستطيع أن توضح لى سبب اقتنائك هذه الصور ، التى تزين جدران بيتك ، وهذه التحف الكثيرة المثورة فى أرجائه ، وهى تكلفك الألوف ؟ ! » ، ودهش صاحبه وقال : « عجباً لك يا أخى . . . ألا تعرف شيئاً اسمه الجمال وذوق الجمال والمتاع به ، إننى إذ أقف أمام هذه الصور وهذه التحف أتأملها أشعر بمتاع يتضاءل المال إلى جانبه ، ويهون فى سبيله . . إنما المال يا أخى وسيلة للمتاع بالحياة وجمالها ، فإذا نحن لم ننفقه واكتنناها لم نعرف للجمال قدراً ولم نسع للحياة طعماً ! . . قال المؤمن بالمال : « إنى أوافقك على كل ما قلت ، ولا أخالفك إلا فى استتاجك الأخير . . أنت تعشق الجمال وترى فى اقتناء الصور والتحف وإن كلفتك من المال ما كلفتك وسيلتك إلى المتاع بالحياة ، وأنا أرى فى المتاع بالحياة رأياً آخر . . إنى حين أتناول كشف حسانى من البنك آخر كل شهر وأرى رصيدى فيه يزداد ، أشعر بمزيد من العزة والسلطان

يضاعف متاعى بالحياة ، ولا تريب على ولا عليك إذا اختلف ذوقنا في المتاع بالحياة ، واختلفت وسيلتنا إلى هذا المتاع » ! . .

ولم يكن للمليونير كذلك إيمان عميق بغير المال ، فكان غرامه بالنساء هوى طارئاً لا عمق فيه ، وكان تعلقه بمتع الحياة سطحياً لا يعنيه منه إلا المظهر البادى للناس يرضى به غرور نفسه وكبرياء سلطانه . كان لكاتب صحفى دالة عليه ! . . ولقد زاره يوماً وأخذ يتحدث وإياه فى أمور جارية لا نتيجة لها ، ودخل السكرتير وأخبر المليونير أن أحد أصحاب الدولة السابقين يستأذن عليه ، وكان صاحب الدولة السابق هذا عضواً منتدباً لإدارة شركة من شركات المليونير ، وأجاب الرجل سكرتيره : « قل له فلينتظر فى حديث معه . » فلما انصرف السكرتير قال الصحفى : « ليس بيننا حديث ذو شأن حتى تنظر رجلاً فى مقام صاحب الدولة هذا » ! . . وكان جواب المليونير : « بالله عليك خبرنى . أتحسب أنى ، ولى من الثراء مالى ، آكل خيراً مما تأكل ، أو ألبس خيراً مما تلبس ، أو أنام فى فراش أوثر من فراش نومك ؟ . لا شىء من كل هذا ، فأى قيمة للثراء إذن إذا لم أشعر أنى أستطيع بفضل سلطانه أن أدع صاحب الدولة هذا وأمثاله ينتظروننى إن أمرت ويدخلون علىّ إن شئت ؟ ! » .

كنت قد سمعت هذه القصة وخشيت أن ينال زوجى ما نال صاحب الدولة يوم يعلم المليونير أنه يطمع منه فى قرض . على أن زوجى لم يخبرنى من ذلك بشىء ، ولم أسأله أنا عن شىء ! . . لكننى لاحظت بعد أن تم القرض أن المليونير قل تردده علينا ، وكان أكثر مجيئه حين يكون زوجى فى عمله .

وكنـت ألقاه متلطفة فى مودة ، فإذا عاد زوجى من عمله أخبرته بمحبته وقصصـت عليه ما دار بيننا من حديث فلا يعلق على ذلك بكلمة . وكان رجلا لم يقابل زوجته ولم يقل لها عبارة مجاملة .

أدهشنى هذا الجمود من زوجى فلا تحركه أية غيرة على ، أنا التى فعلت ما فعلت لغير شئ إلا لعنايته بميراث صديقتى وأطفالها . أترانى أحبه وهو لا يحبنى ؟ . . أم أنه طراز من الرجال لا يعرف كيف يعبر عن حبه برغم تعلقه بى ! . . أنا لا أطلب إليه أن يكون شاعراً يتغزل فى ، ولكنى أريد منه أن يتحدث إلى ويصغى لحديثى فى إعجاب كما يفعل صديقنا ، وكما يفعل غيره من الرجال الذين يقضون الساعات مصغيين وغيونهم تناجينى فى صمت وإذعان . ألا تعساً ليوم ربط الزواج بينى وبينه فيه !! ولكن ماذا عساي أن أفعل وهذان الطفلان يوثقاننا فى رباط يتعذر الفكك منه ؟ . ولم أكن أستطيع أن أشكوه إلا لصديقنا ، فزوجى اليوم طبيب مشهود لطفه بين زملائه وبين مرضاه ، ولو أننى شكوته إلى أبى لرمانى بالجئون ، ولنسب جنونى إلى خلة ورثتها من أمى ، فذلك دأب الرجال ينسبون فضائل ذريتهم إلى ما ورثوه منهم ، وينسبون عيوبها إلى ما ورثوه من أمهاتهم ، ذلك شأنهم ولو كانت الأم لا تزال معهم وكانوا لا يزالون يحبونها ، ما بالك بهم إذا انفصلت الأم عنهم أو ماتت وحل غيرها محلها عندهم ؟ .

والآن ماذا أفعل إزاء ذلك الجمود الذى يلقانى به زوجى ! إنه لا يريد على أن يسألنى عن حاجاتى وحاجات أطفالى ، فإذا ذكرته قضاها أو أتاح لى فرصة قضائها ، لكنه لم يعن يوماً بشوب جديد ارتديه ، ولا بقبعة ألبسها ، ولا بحذاء

تعله . ولم يقف أمام شيء من ذلك مثنيًا في إعجاب . وهو إنما يتحرك
بعض الشيء للجديد الذى يلبسه الطفلان . هذا وما حبانى به القدر من
جاذبية استهوت كثيرين لا يحركه نحوى ، ولا يثير غيرته على . وقد حاولت أن
أحرك هذه الغيرة في نفسه في أثناء مرحنا في الليالى القمرية التى نعمنا بها مع
أصدقائنا الذوات فلم أنجح . أترانى انهزمت ويجب أن ألقى سلاحى ! لكنه
لم يجرحى يوماً بكلمة ولم يغض يوماً عن تلبية رغباتى ما استطاع . ولم تتغير
معاملته لى قط . ولم أعلم من صلاته بصديقتى ما يثير شهبانى ، وإن أثار
غيرتى .

ولم يكن صديقنا يزيد حين أذكر له ما يعينى من خلجات نفسى على أن
يسخر منى ومن نزعاتى الخيالية نحو رجل لم يهبه القدر ذرة من نعمة الخيال ،
وانتهى بى الأمر إلى أن أستسلم للمقادير وأن أذعن لقضاء الله فى .
وأقبل الصيف فقضى زوجى جانباً منه فى ربوع لبنان ، وبقيت أنا وأطفالى
بالقاهرة ، والعجيب أنه كان يحدثنى كل يوم بالتليفون من مصيفه يسأل عن
صحتنا وحاجاتنا ، مما يشهد بشديد عنايته براحتنا وطمانيتنا . وعظيم حرصه
على أن يطمئن علينا ، أم تلك نعمة الفلاح يريد أن يتظاهر أمام أصحابه
الذين يصطاف معهم بأنه أكثرهم جميعاً برّاً بأهله وعطفاً عليهم ؟ !
وبقيت فى حيرتى ، تضيق نفسى أحياناً وتدفعنى إلى الثورة على ما أنا فيه .
وأستسلم أحياناً أخرى إشفاقاً على طفلى أن يصيبهما من ثورتى ما يفسد حياتهما .
وأفكر فى أثناء ثورتى وأثناء استسلامى فى هذا القضاء الذى نزل بى ، وفرضته
الأقدار على . والذى جعلنى أضطرب فى حياتى ولا أعرف لها مستقراً .

وهداني تفكيرى آخر الأمر إلى خطة رسمتها ، واعتزمت تنفيذها ، فما الذى
يمسكنى فى هذا الوضع ؟ . . هوشورى بأنه مفروض على ولا فكاك لى منه ،
ومبعث هذا الشعور حرصى على مستقبل الطفلين ، فلو أننى تخلصت من هذا
الشعور واسترددت استقلالى لاستطعت أن أصور حياتى على ما أريد ،
وأن أطرح كل ما أضيّق به ، فكيف أبلغ هذه الغاية وأحقق هذا الغرض ؟ . .
فكرت أولاً وقبل كل شيء فى أمر الطفلين ، وقررت أنى لن أنخلّى بحال
عنهما وأدعهما لأى سبب لأبيهما . . هما منعانى من الانتحار مخافة يتمهما ،
فليس يجوز أن أراهما بعينى يتيمى الأم وأنا على قيد الحياة . إنيهما يتقدمان
الآن من الطفولة إلى الصبا ، وهما مبعث سرورى ومصدر ما أشعر به أحياناً
من السعادة ؛ فمن الحق الذى لا حمن بعده أن أحرم نفسى منهما ،
وأحرمهما من حنانى وعطفى ، وهما لن يشعرا قط بالحرمان من أبيهما ،
فعمله يشغله عنهما ، وهو قليلا ما يراهما ، لابد لى إذن من أن أحتفظ
بهما وأن أبذل فى سبيل ذلك كل ما أستطيع بذله .

ثم يجب أن أوفر من المال كل ما أستطيع ليكون سندى فى تنفيذ
خطتى ، ولهذا فتحت لنفسى حساباً خاصاً فى البنك ، جعلت أودع
فيه كل ما يصل إلى من والدى ، وكل ما أقتصده من نفقات المنزل
ومن أى مصدر أحصل عليه لى ولطفلين ، قد لا يكون ذلك وفيراً ، وقد
يحتاج اقتصاد مبلغ ذى قيمة إلى سنوات ، لكن الخطة التى رسمتها للنضال
كان أساسها الصبر والاحتمال ، فليس يسيراً أن ينجح فى نضال من ليس
يستطيع الصبر ، وأنا بعد أدافع عن حريتى وعن كرامتى ، وذلك نضال

لا أذكر أن مصرية سبقتني إليه ، بل قلَّ أن سبقتني إليه في غير مصر امرأة يحيط بها وبمجتمعها ما يحيط بي من ظروف ! . .

وكانت الخطوات الأولى لتنفيذ هذه الخطة بطيئة بالفعل ، انقضت الشهور الأولى ولم أستطع أن أقصد شيئاً يذكر ، وشعرت إثر انقضائها بشيء من اليأس في نجاح ما اعتزمت ، وبدأ لي أثنى لوسلكت خطة أخرى ، فهاجمت زوجي في سمعته الطيبة - وبخاصة فيما يتصل بعنايته بصديقتي وبميراث أطفالها - فقد أختصر الطريق إلى غايتي ، ولعلني أشرت إلى شيء من هذا في حديث جرى بيني وبينه في نوبة غضب لم أملك معها صوابي ، فقد جاءني صديقنا يوماً متجهماً ، فلما سألته عن سبب تجهمه قال : « هو هذا الجنون الذي قام برأسك وجعلك تهددين زوجك بتحطيم سمعته ، بل بتحطيم حياته ، أولاً تعلمين أن ما يمس زوجك يمس طفليك في صميم حياتهما ؟ . . إنهما ابناه رضيت أنت أم أبيت . فإذا حاولت أن تشوهي سمعته أو تحطمي حياته فاعلمي أن الحجر الذي تقذفينه يصيبهما قبل أن يصيبه ، ولن يقول الناس يومئذ إنك زوج غاضبة أو عاقاة ، بل سيقولون إنك أم شريرة . وقد يقولون أكثر من هذا ، وقد جئتكم الآن لتقسمي أمامي بحياة طفليك أنك لن تجازي بشيء من هذا الجنون ، الذي يضربك قبل أن يضرب أي إنسان آخر ، ولن أقبل يمناً أخرى غير حياة هذين الطفلين العزيزين عليك ، فأنا أعلم أنهما أعز عليك حتى من نفسك » .

ووجمت برهة غير قصيرة تردد في أثنائها أمام خيالي طيف الطفلين فانحدرت من عيني دمعة قلت بعدها : « أعدك بالأأ أفعل ، وأرجوك في

ألا تلح علىّ في هذا القسم الذى نطلب ، فلن أستطيع أن أقسمه . لكن هذا الوعد الذى بذلته لك وعد قطعته ولن أخل به إلا أن يكون ذلك بعلم منك ! .
ويظهر أن موقفى هذا قد كان له أثره ، فقد بدأ زوجى يسخو فى سقته سخاء لم يكن لى به من قبل عهد . لم أكن أطلب شيئاً للمنزل أو لى أو للطفلين إلا أجابنى إلى ما أطلب ووضع فى يدى من المال أكثر مما أرغب فيه .
بذلك بدأت خطى المرسومة تنجح على نحو لم أتوقعه ، وبذلك أخذ رصيدى الخاص فى البنك يزداد شهراً بعد شهر ، وأخذت أشعر أنى أمهد بالفعل لاسترداد حريتى ، وأن شيئاً من الصبر كفيل بأن يفتح لى باب الخطوة الحاسمة لاستكمالها ! . . .

وتوفى والدى وأنا فى صميم هذه المعركة الصامتة أناضل نضال امرأة مست عزتها وجرحت كرامتها . وقد حزنت أشد الحزن لوفاة هذا الوالد البر الحنون الذى لم يذكر والدتى يوماً بسوء ، وطالما أسدى لى أصدق النصيح وأحكمه ، على أن وفاته قربتنى من الأمل الذى كان يداعبنى فى استرداد حريتى . ولم يكن ذلك لأنى ورثت عنه مالاً يعتمد عليه ، فقد رزقت زوجه الثانية عديداً من الأطفال . فتت تركته وجعل الاعتماد على حصة كل وارث فيها غير مستطاع لمن كان فى مثل مكانتى ، ولكنى أحسست بوفاته أنى أصبحت طليقة من قيود معنوية ، كان وجوده يفرضها علىّ .

على أننى رأيت أن أدع العيدين يمران على وفاته قبل أن أتخذ أى موقف حاسم . وذلك إرضاء لذكراه ، وحتى لا يقول الناس إنه ، عليه رحمة الله . هو الذى كان يحمل زوجى على إمساكى . بذلك انقضت شهر ستة تابعت

فيها خطتي ، وازداد خلالها رصيدي في البنك ، ورأيت بعدها أن أحضر الخطوة الأخيرة ، أضطره بها أن ينزل على كل ما أريد .

استغرقت خطتي منذ بدأت تنفيذها إلى ذلك اليوم ما يزيد على ثلاث سنوات خيل إلى أن ما أتممته فيها كفيل بأن يثير زوجي ويحمله على التسميم من غير قيد ولا شرط ، فقد عزلته في غرفة في أقصى المنزل نقلت إليها سرير نومه وكتبه وأدواته الطبية ، وكنت أتناول الطعام أحياناً وأخرج من المنزل قبل أن يحضر ، وكنت أقصُّ عليه أحياناً في ازدهاء وعلو ما يغمرنى به المعجبون من عبارات الثناء التي تثير غيخته ، وكنت أبالغ في الإنفاق مبالغة ينوء بها إيراده من عمله ، وإيراده من ثروته ، وتحمله من غير شك على الاستدانة . وكنت أفعل هذا كله متعمدة إساءته ، وإثارته ، وكنت أحسب أنه سيجيء يوماً وقد فاض معين حلمه وطار صوابه ليقتلني أو ليضربني غير عابئ بالنتائج ، أو أنه سيقول لي يوماً : « لك ما شئت على أن تنفصل وأتخلص من هذا السعير الذي أعيش فيه » ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل ظل الرجل يتحمل كل ما يلقيه مني في صبر . وكأن حبنا المتبادل أو زواجنا لا يزال يملأ قلبه ، وكأن ما أوجهه له في وجود أصدقائنا وصديقاتنا لا يحرك شعرة من إباهه وكرامته ، ولقد عجبت لهذا الإذعان المطلق من جانبه حتى ظننت يوماً أنه مدبر أمراً ضدي ، وفكرت ما عسى يكون هذا الأمر لأفسده . ولكن مر الأسابيع والشهور أقنعني أن إذعانه عجز ، وأنه أضعف من أن يقف رافع رأسه أمامي .

وأعجب من ذلك أنه لم يكن يناقش قط في أثناء هذه الفترة الأخيرة

فى أمر الطفلين وطريقة تربيتهما وتعليمهما ، بل كان يقر كل تصرفاتى بشأنهم من غير بحث . فكانا يلبسان كما أشاء ، ويذهبان إلى المدرسة التى أختار ، وكان لمربيتهما رأى تأخذ وتعطى فيه معى حين لا يقول هوشياً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأنهما ليسا ولديه .

وكانت حالته هذه تثير إشفاقى عليه أحياناً . فقد بدا لى أنه انحلت همته . وتضعف عزمه ، وتداغت إرادته فأصبح كأولئك الذين يصيبهم الانهيار العصبى . فهم يبتون كل إنسان شكواهم ، ولا يعرفون كيف يواجهون الحياة وأعباءها . وهم يخشون يومهم وغدهم ويحسون الخطر فى كل لحظة يهدد وجودهم . وطبيعى أن تأثر بهذا الاضطراب عمله فى عيادته ، وترعزت ثقة مرضاه به ، ولكنى مع ذلك لم أكن مستعدة لتخفيف طلباتى المالية منه . لذلك اضطر أن يلجأ إلى كبير فى الدولة يرجوه أن يسند إليه منصفاً طبياً فيها . وكان هذا الكبير يعلم من أمره لكثرة ما سمع به ومنه ما أثار شفقتة . فأسند إليه عملاً محترماً لا يحتاج إلى مجهود فكرى ، فهو إشراف إدارى على طائفة من الأطباء الناشئين فى مصلحة كبرى . وما لبثت حين علمت بذلك أن اطمأنت إلى أننى فى حل من أن أمتص مرتبه هذا أو معظمه ، فطفلاى أولى به من أبيهما ، ومن الواجب على وحدى أن أفكر فى مستقبلهما .

ترى هل بقيت فيه بعد كل الذى مر به بقية للنضال ، أم تراه أصبح كالجدار المتداعى ، لا يلبث حين تعصف به الريح أن ينقض وينهار ! . . لقد خيل إلى يوماً أننى لو طلبت إليه أن تنفصل بالطلاق فإنه لن يتردد فى ذلك ، بل يتلقاه شاكراً متنفساً الصعداء مؤمناً بأنه قد آن له أن ينتقل من

البحيم إلى المطهر في انتظار يوم تم عليه مغفرة الله فيه . لكنني خشيت إن أنا أقدمت على هذه الخطوة بنفسى أن يعاوده عناد الفلاح فيرفض لغير شيء إلا التثبث بهذا العناد ، لهذا آثرت أن ألقى على صديقنا هذا العباء . فإن نجح فيه في غير مشقة فذاك ، وإلا أقدمت على الخطوة الحاسمة التي اعترمتها .

ودعوت صديقنا واتفقت معه على أن يذكر لزوجى أن الحال التي يعانيها لا تحتمل ، وأنه رحمة به يرى أن يخاطبني في أن انفصل بالطلاق ، فإن أنا قبلت ذلك ولم يدفعني العناد إلى للد في الخصومة كان ذلك خيراً له . ولى . واضطلع صديقنا بهذه المهمة وخاطب زوجى كما اتفقنا ، لكنه عاد يذكر لى أن زوجى أجفل حين سمع كلمة الطلاق وقال له : « وماذا يقول الناس عنا ؟ وماذا يكون مصير طفلينا ؟ إننى احتملت وأحتمل ما تعلم ، وأكثر مما تعلم ، حتى لا يشمت الشامتون بنا ، وحتى لا يشعر الطفلان بأنهما ليسا كغيرهما من أبناء طبقتهما ، وأنا لا أزال أطمع في أن يرد الصبر إلى زوجى رزانتها وحكمتها ، بل إنى لأعتقد أنها لو خطبت في هذا الأمر الذى تخاطبني فيه لكنت أكثر منى إنكاراً له وتقزراً من الكلام فيه » ! . .

وعجبت لما سمعت . . لقد كنت أتوقع أن يغتبط الرجل بفكرة انفصالنا ، وها هوذا يفرع منها وينفر أشد نفار ، ولست أحسبه يفرع وينفر تعلقاً منه بى ، أو تلبية منه لداعى محبته إياى ، فلو أنه أحبنى كما أحب ليل المجنون لما تى قلبه أثارة من هذا الحب بعد الذى صنعتته معه ! . .

وهنا برقت أمامى فكرة آمنت بأنها التصوير الصحيح لما بعته على أن

يرفض طلاقى ، لقد خيل إليه أن صديقنا يريد أن نفصل لأتزوجه ، فقد
أذاعت صديقتى هذا الحديث بعد انقطاع ما بيننا وألحت فى إذاعته ، وأكبر
ظنى أن ما تذيعه صديقتى يؤمن به زوجى ، ولذلك عاند وتشبث بعناده . .
نعم . . ! ذلك باعته على رفض ما عرض عليه أن نفصل بالحسنى . أما وذلك
شأنه فلم يبق لى مفر أن أنفذ خطتى ، ولا أظنه يستطيع مقاومتها ، ولو جمع
فى نفسه مكر الفلاحين جميعاً ، بل مكر النساء جميعاً .
وقررت أن أنفذ هذه الخطة منذ غد ! . .

الفصل السابع

لزوجى أصدقاء كثيرون من خيرة طبقات القاهرة يجتمع بهم فى ناد من أنديةها ، وقد كان يتناول طعامه فى هذا النادى فى أثناء غيابنا فى أوروبا . كما كان يتناول بعض وجباته فيه إذا اضطره عمله للتخلف عن الحضور إلى المنزل فى الظهر أو المساء ، أو لو حملته على أن يتناول أكثر وجباته هناك ، وأمعت بذلك فى إبعاده عنا وعن المنزل ، أولاً يشعر بالوحدة شعوراً يهون عليه أن يقبل الانفصال الذى أريده .

وتنفيذاً لهذا التصميم كنت كثيراً ما أطلبه فى المساء فى النادى وأبلغه أن المنزل لا طعام فيه ، وأنه إن شاء أن يتناول طعاماً فليتناوله فى النادى . ولعله لم يكن يضيق بذلك ويتأذى منه ، ولعله كان يجد فيه فرصة لإطالة المقام بين أصدقائه ، فإذا جاء إلى المنزل فى موعد النوم لم يزد على أن يبادلنى تحية المساء ويذهب إلى غرفته . ولم أكن صادقة فى كل المحادثات التليفونية معه ، فكثيراً ما كان يتناول العشاء معى فى تلك الليالى أصدقاء وصديقات يسر زوجى بالوجود معهم ، وفى هذه الليالى كنت أشد حرصاً على بقاءه بعيداً عن المنزل حتى لا يجد ما يحبه فيه ويدعوه إليه ! . .

وللمصادفات فى حياتنا الإنسانية تصاريف عجب ، فقد كلمته ذات

مساء ليتناول طعامه فى النادى ، وكانت عندى ليلتها وليمة دعوت إليها عدداً من أصدقائى الذين يسرون بلاقائه ، فلما حضروا ودعينا إلى المائدة سألت بعضهم عنه فذكرت أنه اعتذرلى فى اللحظة الأخيرة لأمر طرأ عليه . وإننا لتتناول الطعام إذ دخل هو علينا ووقف واجماً ينظر إلى هذه المائدة الفاخرة ويذكر قولى له إن المنزل لا طعام فيه ، وأخذت حين رأيت فى موقفه منها وكدت أضطرب ، لكنى ملكت نفسى وقلت فى عبارة حاسمة إنه لا مكان له على المائدة ، وأراد بعض الحاضرين أن يفسح له مكاناً فقلت فى لهجة الحزم : « فليبق كل فى مكانه ، أما هو فلا مكان له بيننا » . وساد الحضور ، وبينهم صديقنا ، وجوم استمر حتى خرج زوجى من قاعة الطعام معتذراً فى ابتسامة متكلفة بأنه أكل قبل أن يحضر إلى المنزل ، ثم عدنا إلى أحاديث تافهة نقطع بها جو هذا الوجوم .

وفى الغد تناول زوجى طعام الظهيرة خارج المنزل ثم جاء مبكراً فى المساء فألفانى وحيدة فى غرفة نومى وقد ترينت لسريرى زينة كلها الإغراء . وقد ألف بحكم مهنته أن يجلس على سرير المريض حين يفحصه ، وكثيراً ما كان يجلس إلى جانبنى هذه الجلسة فيما مضى . أما اليوم فلم يفعل ، بل جر كرسياً إلى جانب السرير جلس عليه وارتم على وجهه من سباب الحزم مالم أعوده منه قط ثم قال : « اسمعى ، إننى أريد أن أحدثك فى هدوء فأياك أن تفسدى على هدوئى ! . . إن ما حدث منك أمام ضيوفك أمس لا يصدر عن سيدة ولا عن امرأة من حثالة الناس . . لقد تحملت منك ما تحملت حتى اليوم لغير سبب أعلمه ، ولقد تحملته لا خوفاً منك . ولكن خوفاً عليك ،

وخوفاً عليك من نفسك ، فأنت امرأة مريضة النفس ، لا تنظرين إلى الحياة بالعين التي ينظر بها الأصحاء ، بل متأثرة بعاملين هما مصدر علتك وسبب مرضك النفسي ، هذان العاملان هما : الغرور والغيرة ، برغم ذلك أحبيتك ولا أزال أحبك ! . . . وحيي إياك ، من أجلك ومن أجل طفلك ، هو الذي يجعلني أحتمل منك ما احتملت ، وأن أصبر عليه ما بقى أمره بيني وبينك ، آملاً أن يشفيك الله يوماً فيثوب إليك رشداً . أما أن يبلغ الأمر إهانتى على نحو ما حدث أمس فذلك ما لا قبل لى باحتماله ، ويجب أن تعلمي أن هذا البيت بيتي أنا ، وأن الذين يدخلونه يدخلون بيتي أنا . وأنت تقيمين فيه وتدعين أصحابك إليه لأنك زوجتي وأحسبك تقرين هذا ولا تجهلينه ، فلو أننا انفصلنا غداً بالطلاق كما طلب إلى صديقنا أن أفعل لما بقى لك في هذا البيت مكان ، ولما استطعت أن تستقبلي فيه أحداً .

كنت أسمع كل كلمة من كلماته هذه وكأنها خنجر يطعنني في صميم كرامتي ، ولكنني كظمت غيظي وحبست دموعي حتى إذا أتم مقاله أجبته في هدوء . . « وماذا عليك إذا أرحت نفسك وأخرجتني من هذا البيت ليكون لك وحدك ، أولمن يرضى قلبك أن يحل فيه مكاني . . »

لم أكد أتم هذه الكلمة حتى رفع يديه وقال : « الآن أيقنت أني أخطئ في تقديري ، فصديقنا لم يحضر ولم يكلمني في طلاقك من تلقاء نفسه ، بل اتفقنا معاً لغرض تضمrane ، لكنني لست من السذاجة بما تتوهمان ، إنني لن أنيلكما ما تبغيان ولن أجعل نفسي وأجعلك وأجعل طفلينا أحدىة الناس ، كلا ! . . لن أفعل ، لن اطلقك وإن تحملت في سبيل إمساكك أضعاف

ما تحملت . . كلا ! . . لن أنيل هذا الجاحد للأخوة الخائن للصدقة ما يريد .
أو تستطيعين أن تقولى كيف عرفته . . أو لم يكن صديقى الحميم وأنا الذى قدمته
إليك واثمنتته على شرفى وعرضى واتخذت منه أخصاً فخا مودق وتسلل إلى
قلبك مكافى . ياله من غادر مخادع ! إني أحذرك مغبة السيوراءه والالتخداع
بمعسول كلامه . . إنك لا تزالين فى أعين الناس السيدة المحترمة الشريفة التى
تحمل اسمى فلا تدعى هذا الماكر الخائن ينفث فى قوادك سمومه ، ويدع
الناس يتقولون عليك ما أنت بريئة منه . ويتهمونك باطلا وأنت الطهر والعفاف
والكرامة والشرف » ! . .

وهنا بدأ الرجل يضطرب كأن به الحمى ، وأمسك برهة عن الكلام ،
ولم أجد وهو فى هذه الحال ما أجيبه به ، فقد غلبتنى الرأفة بحاله وخشيت
إن أنا قلت شيئا أن يزداد اضطرابه .

وبدأ عليه شيء من الهدوء الظاهر ، لكن نفسه كانت تتعذب ، وكانت
عيناه تنان عن هذا العذاب الذى يتأجج فى صدره ، ولقد مر بخاطرى فى
أثناء صمته أن تمنيت لو أنه ثار هذه الثورة منذ شهور وسنين ، وتمنيت لو أنه
يومئذ حطم كبريائى وإن أدت به الحال أن يضربنى ، فلو أنه فعل يومئذ
لاعتقدت أن لى عنده مكانا وأنه يريد أن يدافع عنى غيرة على . . وإنى
لتمرنى هذه الخواطر وأشباهها إذ رأيته يمد يده ويسحب يدى فى رفق ويقول ،
وقد تندت عيناه ، وانخفض صوته : « بالله خبرينى ، لم تعاملينى هذه
المعاملة ؟ . . إنى لا أزال أحبك كما أحببتك يوم زواجنا ومن قبل زواجنا ! . .
وهذا الحب هو الذى يجعلنى أحتمل منك ما لا يمكن - لولا الحب -

احتماله ! . . أو يرضى قلبك أن ينخدع بصديقنا فينكر ماضيها وينكر أبوق
لطفليها ؟ بالله عليك ! بحق هذين الطفلين العزيزين ! . . إلا ما راجعت نفسك
واتقيت الله في نفسك وفينا جميعاً » ! . . .

كدت أشفق عليه وأضعف لضعفه ، بل كدت أتلف معه وأعتذر
عما بدر مني أمس له ، ولكني ما لبثت أن رأيت طيف صديقتي يتبدى في
خيالي ويخفف في عيني عبرات كانت توشك أن تنحدر . عند ذلك سحبت
يدى من يده واستويت جالسة في سريري ونظرت إليه بعينين انقلب حنانهما
حزماً ، بل قسوة ، وقلت : « يرحمك الله يا صديقي ! لقد كدت تمس قلبي
كما لم تمسه من قبل قط ، فما عهدتك في كل ما خلا من سنى حياتنا تتقن
التمثيل المسرحي وتستطيع أن تتلاعب بالعواطف ! . . أما اليوم فما أبرعك
مثلاً تتقن الأدوار المتناقضة ، فأنت « روميو » وأنت « عطيل » في وقت
معاً . أتراك لعب بك إغرائي ، وأنا في هذا السرير فانتقلت من التهديد الذي
حفظت دوره قبل أن تحضر إلى ، إلى الاستعطاف وإلى الحديث عن الهوى
والغرام . وإني لأسأل نفسي ، ولك هذه المقدرة : أى دور تمثل حين تلقى
صديقتي ؟ . . أحسبك حين تراها لا يبق أمامك من الوجود كله سواها ،
فهى أمامك الشمس والقمر ، ولعلها في نظرك أبهى من الشمس والقمر » ! . .
أيقظته عبارتي الأخيرة فنظر إلى بعينين فيهما عطف وفيهما حزم وقال :

« حسبك الله ياظلمة ، فأنت تعلمين أنى لو أردت أن أتزوج صديقتك بعد
وفاة زوجها لما عزت نفسها على ، وأننى لو أردت أن أتزوجها بعد أن بدا اليأس
لها من صديقنا لاستجاب في غير تردد ، وأننى لو أردت أن أتزوجها اليوم

أوغداً لقبلت في اغتباط أى اغتباط ، لكنى لم أفكر قط في أن أتزوجها ،
ولن أفكر في ذلك . . فهي لى منذ مات زوجها بمثابة الأخت المحرمة على .
وأنت تعلمين أنى أعرفها وأعرف أسرتها منذ بدأت أمارس مهنة الطب . ولعللى
فكرت في أن أتزوجها قبل أن أعرفك وأن يكون بيننا من الود ما أدى إلى
زواجنا ، ولم أجرب عليها من يومئذ إلى اليوم ما يحس شرفها وعفافها برغم
ما تنهم به من خفة وبرغم جمالها الفاتن ، فبالله عليك لا تسرفى في تصوير
عواطفى نحوها ، فعواطفى كلها لك ، وليس بينى وبين صديقتك إلا الإخاء
يدفعنى إليه سابق معرفتى بها وبأسرتها وبزوجها ! . .

دهشت لهذا الدفاع الحار عن امرأة قاطعتنى وأذاعت في كل مجتمعات
القاهرة ما أذاعت عنى ، فلوأن عواطف زوجى كانت كلها لى كما يقول لغضب
لى من صديقتى ولما ذكر جمالها الفاتن وريقه يتحلب ، وكأنا يريد أن
يطير إليها ليستمتع بنظرة من عينيها الساحرتين ، لذلك قلت له : « إنك
يا صديقى لست ممثلاً بارعاً وكفى ، بل أنت محام بارع كذلك ، وكنت أود أن
تكون قضيتى أقرب إلى قلبك من قضية صديقتى فتدفع تحركاتها عنى في
كل مجالسها بهذه الحماسة التى تدافع بها عن عفافها وشرفها » ! . .

وبعد هنية أردفت : « ولوأننى أردت أن أدافع عن صديقتنا - كما تدافع
أنت عن صديقتى - لما أعوزتنى الحجة الصادقة . فهو لم يخنك كما تزعم
ولم يحاول التسلل إلى قلبى ، ولكنى أشعر بأن حديثنا الليلة طال ، وأن من
الخير أن تنسحب أنت إلى غرفتك وأن تدعنى أستريح في مخدعى » ! . .
وابتسم هو وقد بدا عليه شئ من الاطمئنان ، أو من الإذعان ، وأطفاأت

أنا مصابيح الغرفة ، وحاولت أن أنام فذهبت محاولتي عبثاً ، فقد أخذت
أستعيد الحديث الذى دار بينى وبين زوجى كلمة كلمة وحرافاً حرفاً ، ثم أخذت
أفكر كيف أواجه هذا الموقف . فلو أن هذا الحديث جرى بيننا قبل أن أوجه
إليه فى وجود أصدقائنا تلك الإهانة التى أدمت قلبه ودفعته لما فعل لكان لى
فيه رأى . أما وقد شعر بأنى أتعمد إحراجيه ، فأراد بما فعل أن يفسد خطتى
فلن أمكنه مما أراد ! . . لقد تحطم ما بيننا منذ عهد طويل ، وهو قد واجهنى
خلال هذا العهد كله بمحمود يدل على أنه لا يحس نحوى بأى عاطفة ،
فجئته اليوم بعد اللطمة القاسية التى نالته منى يتحدث عن قلبه وحبه ليس
إلا أحبولة يتوهم بها القدرة على تغيير ما استقر عليه عزمى ، وذلك مالا سبيل
إليه ! . .

وفكرت فيما عسائى أفعل فى هذا الموقف الذى خلقه هو بأسلوب لا يخلو
من براءة ، واستقر بى الرأى بعد طول الروية على أن أكتب إليه خطاباً يكون
عريضة اتهام ، وإنذاراً نهائياً فى الوقت نفسه ، وأردت بالفعل أن أبدأ الكتابة
رغم تقدم الليل ، ولكنى شعرت بالجهد ، فأطفأت الأنوار من جديد ولزمت
سريرى ! . .

وكان النهار ضحى حين استيقظت فى الغداة أجمع أعصابى المهدمة ،
وسألت عن زوجى فإذا هو قد استيقظ وتناول فطوره وخرج كعادته إلى عمله .
وشعرت بالضيق يكاد يخنقنى وبالحاجة إلى الهواء أتففسه ، وكأن المنزل
على سعته لم تبق فيه أثارة من هواء . . ولذا قمت فتناولت فنجاناً من اللبن
والقهوة واكتفيت به عن كل فطور ، وخرجت إلى الشوارع ألتبس فيها

متنفساً ، وجعلت أسير حتى انتهيت إلى حدائق الجزيرة ، هنالك وقفت على شاطئ النيل أستنشق الهواء ملء رئتي أسترد به نشاطي وهدوء أعصابي ، فلما ردت إلى حيويتي أخذت أفكر فيما حدث أمس وفي الخطاب الذي أكتبه إلى زوجي .

ولم تطاوعني نفسي على العودة إلى المنزل ساعة الظهيرة ، وتابعت السير حتى بلغت حديقة الحيوان ، فدخلتها وذهبت إلى جزيرة الشاي وتناولت فيها طعام الغداء ، جالسة إلى مائدة على حافة بحيرتها الصغيرة ، ونظرتي كله إلى الماء وإلى الطيور الجميلة التي تعوم فيه ، وفكرتي مشتت يحاول أن يجمع ما يحويه خطابي إلى زوجي ، فلما كانت ساعة الشاي أقبل قوم وعليهم سباحة المرح وفي أصواتهم زئير المسرة ، وأفسدت ضجعتهم الطروب على خلوتي فغادرت مكاني وخرجت من الحديقة وناديت سيارة أقلتني إلى المنزل ! . .

فلما احتواني المنزل عاد الضيق يأخذ بخناق ، فذهبت إلى غرفتي ، وجلست إلى نضد زينتني وهيات منه مكتباً ، وأخذت أدون ما أريد أن أكتبه لزوجي . لقد كانت الكتابة تستعصي عليّ حين ألجأ إلى الحجة والمنطق ، فإذا أرخيت العنان لعاطفتي وما تنفس عنه اندفع قلبي لا يكبو ولا يتعثر ، وسطرت بضع صفحات أعدت قراءتها فإذا هي ليست عريضة اتهام وكفى ، بل تأنيباً موجعاً في لهجة مقذعة لا تتفق ومألوف رزائتي واتزان ، ولا مع الهدوء الذي حاول زوجي به أن يصوغ كلامه لي ، لذلك أعدت الكتابة وحاولت التخفيف من حدتي . لكنني لم أستطع أن أكون هادئة ولا موجزة .

بل كتبت عشرات من الصحف كانت سطورها تندافع إلى قلبي ولا تكاد
يبدى تحاربها في سرعة تدفقها لتدوّن كل كلمة من كلماتها ، فلما فرغت من
تدوين الكتاب وراجعته بعثت به إليه وأقمت أنتظر النتيجة التي يربتها عليه .
ولست أريد أن أنقل نص ذلك الكتاب إلى هذه القصة ، وأنا كلما
تلوته بعد السنين التي انقضت على كتابته خجلت وتولّنتي الدهشة كيف
استطعت أن أفرغ كل ما فيه من قحة وإقذاع ! وحسبي أن أذكر أنني قلت
فيه إنني لم أشعر بالسعادة منذ زواجنا يوماً من الأيام ، وإن مسلكه فيما ادعاه
من معاونته صديقتي للحصول على ميراثها وميراث أبنائها كان معيباً دينياً ،
وإنه أهملني وأهمل ولدينا وكأننا من سقط المتاع ، وإنه عاملني كما لو كنت
خادمة أبيه ، وإنه كان يغتبط بسفري إلى أوروبا ليخلوله الجوليلندفع في تيار
أهوائه ومفاسده ، وإنه ضيق الفكر ريني العقلية إلى الحد الذي جعله يقول
لي في آخر حديث له إن هذا البيت بيته وإنني أقيم فيه بأمره وإذنه وتسامحه .
وذكرت أنني لن أبقي في هذا البيت ولن يعرف هو بعد ذلك مقرى ، وأنه
يستطيع إن شاء أن يطلبني إلى بيت الطاعة ، وإنني أتحداه أن يفعل ليتيح لي
فرصة الدفاع أمام القضاء عن نفسي وعن حياتي التي حطمها ، ولأتمكن بعد
ذلك أن أطلب الانفصال عنه ، ويومئذ لن يتردد قاض في الحكم لي ،
ثم يعلم الناس كم قاسيت في سبيل المحافظة على سمعته وسمعتي ، لا حباً
إياه ولا حرصاً على الحياة معه ، لكن من أجل طفلينا حتى لا يصيبهما
رشاش من مسلك أبيهما المشين .

ولم أخرج حين الحديث عن معاونته صديقتي في أن أصفها بما أعتقد

أنها أهل له ، وأن أذكر أن صلاته بها أوحى بها الأهواء ولم توح بها المروءة ولا الإنسانية ! كما أننى ذكرت له أنه سبى سبباً قبيحاً حين تكلم عن صديقنا وزعم أنى دبرت معه أن يتحدث إليه فى أمر طلاق منه لغرض فى نفسينا . وأعدت فى خاتمة الكتاب أننى لن أراه ولن أسمع له بأن يرانى . وأننى لن أبقى فى بيت يسميه بيته ، وأنه لن يعرف لى مقراً ، وأننى أحتقر نفاقه حين يزعم لى أنه لا يزال يحببى ، وأنا أعلم علم اليقين أن قلبه لغيرى ، هذا إن كان قلبه يعرف الحب ، أو يملئ عليه عاطفة كريمة صادقة ! . .

ماذا كان شعوره حين قرأ هذا الكتاب ؟ لا أدرى ، لكن صديقنا جاءنى بعد أيام يقول لى إنه التقى بزوجى مصادفة ، وإنه رآه فى حال من الهم والأسى تأثير الشفقة ، وإنه تحدث إليه محاولاً أن يخفف عنه فإذا عيناه تدمعان ، وإذا هو يخرج من جيبه خطابى ويدفعه إليه ويطلب إليه أن يقرأه . قال صديقنا : « وقد تصفحت بعض صحفه فأدهشنى أنه لم يحضر إليك ولم يضربك ولم ينتقم لنفسه من بذاءة لم أقرأ ولم أسمع قط مثلها من سيدة أو امرأة من السوق أو سواد الدهماء ، ولو أنه فعل لما استطعت إلا أن تعتذرى له عن هذا الطيش الجنونى الذى أملى عليك ما كتبت ، أنت حرة فى أن تكرهيه أو تحبيه ، لكنك لست حرة فى أن تهينه وتسبيه » ! . .

قلت : « أترك عاودتك نروائك السابقة حين أردت أن تتزوج من صديقتى ، وأن هذه النزوات هى التى دفعتك للتطاول على الساعة » .

نظر الرجل إلىّ فى صمت حين سمع منى هذا الكلام نظرة تأنيب وعتاب ، ثم استدرك هذه النظرة بعد برهة وقال : « وماذا يعنيك أنت من أن تعاودنى

نزواني أو لا تعاودني ؟ أم تريدين أن تسمعي مني مرة أخرى أني لن أتزوج صديقتك ؟ إذن فاعلمي أني لن أتزوجها . . . نعم ! . . . لن أتزوجها ، وليس ما تتوهمين من نزواني هو الذي دفعني لأخاطبك بهذه اللهجة التي خاطبتك بها . لكنك أسرفت في إهانة رجل لا يسوغ لك أن تهينه وأنت لا تزالين زوجته وله عليك حقوق أولها احترامه ، فالزوجة قد لا تستطيع أن تحب زوجها ، ولكنها لا حق لها بحال أن تهينه ، أفهمت الآن سبب ما سمعته تطاولي عليك ؟ . . . » .

هذه كلمات قاسية لم أسمع من قبل مثلها ، لكنها نزلت عليّ برداً وسلاماً ، أكان ذلك لأنه أكد من جديد أنه لن يتزوج صديقتي ؟ . . . أم لأنه خالف بزجره إياي ما ألفت من جمود زوجي ؟ لا أدري ، لكنني ابتسمت حين أتم كلامه وقلت : « ما أظرف حديثك وما أرق فلتات لسانك » . ثم نظرت إليه في خبث نظرة حرصت عيناى على أن تكذب بها لسانى وأضفت . . . « وأى شأن لى إن أنت تزوجت صديقتى ، اللهم إلا أن تكون حريصاً على أن تجيء معك لزيارتي » . . . وازدادت ابتسامتى وضوحاً ونظرتى خبثاً وزدت . . . « هذا إلا أن تخشى أن يكون عندى قريبى الذى رأيته معها فى السيارة » .

وكان كل جواب الرجل : « دعيني من صديقتك فقد انقطع ما بينى وبينها كما انقطع ما بينك وبينها ، لكنك ذكرت فى خطابك لزوجك أنك لن تبقى بهذا البيت ، فالى أين تذهبين ؟ . . . وهلا تخشين ما يتقوله الناس عليك وأنت لا تزالين فى عصمة زوجك ، ولا يزال هو مصراً على إمساكك ؟ . . . » . قلت : « أما أنى سأترك هذا البيت فذلك أمر قررتة ولا رجعة فيه ،

ولست أخشى ما يقوله الناس لأنهم لا يعلمون ما قاسيت هنا ، فقلوب الناس كالحجارة ما دام الأمر لا يمسهم ، وإن أوقف هذا الأمر من يعنيه على حافة اليأس ودفعه إلى الانتحار ، لقد دبرت أمري في سر ، ولعلي لا أضن عليك أنت بسرى ، يوم يصبح أمراً مقضياً ، فأنت وحدك الذى أجد فى التحدث إليه السلى عن بلوى ومنقذى من عزلة يحاول زوجى أن يضرب نطاقها حولي بما يذكره إلى أصدقائنا غنى ، فأنا أعلم أنه تحدث إلى غير واحد من هؤلاء الأصدقاء عن الخطاب الذى بعث به إليه وذكر لهم شر ما فيه ، لكن ما يقوله لم يعد يعينى وقد انحسم ما بيننا ولم يبق سبيل إلى غير انفصالنا . وتركنى صديقنا بعد حديث حاول به أن يردنى إلى ما سماه الصواب ، فلما خلوت إلى نفسى أخذت أقلب صفحاتها وأنا مضطربة المخاطر حيناً ، هادئة حيناً ، وعدت بذاكرتى إلى حديث زوجى الأخير معى ووقفت منه عند كلامه عن مرضى وعلتى ، وأن الغرور والغيرة هما مصدر هذه العلة . عند ذلك ثارت نفسى وسمعت بأذنى صوتى وأنا أقول : « يا بؤسى لهذا الرجل ! . . أولوصح ما يزعم أفلا يرضيه أن أغار عليه ! . . أم يريد أن أصنع صنيعه فأختار رجلاً غيره أصفيه مودتى وأهبه قلبى ، أم تراه يحسبني بعض متاع هذا المنزل ، يسكن إليه متى شاء ، ويدعه متى شاء ، ويركله برجله أو يلقيه من النافذة إن أراد ؟ ! . إن يكن ذلك رأيه فليبحث عن موافقه عليه ، ولألقين عليه درساً لن ينساه ما عاش ! . . » .

وشغلت بالتفكير فى ترك هذا البيت الذى يسميه بيته ، فأين أذهب ؟ . . وكيف أنفذ ما ذكرته له من أنه لن يعرف لى مقراً ؟ . . ليس ذلك يسيراً إن

أنا بقيت بالعاصمة . . وليس يسيراً كذلك في مدينة صغيرة تثير أتفه الحوادث فيها طلعة ساكنيها ، فهم يتحدثون عنها ، وتلوّكها ألسنتهم ويتناقلونها ، فلا يبقى فيهم صغير ولا كبير لا يعرفها ! . . إذن فليكن مقرى الجديد بالإسكندرية ولأذهب إليها أبحث فيها عن مسكن لى ولطفلين . فالإسكندرية مدينة فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف ، وحسبى يوم أقيم بها ألا أختلط بأهلها وأن أجعل مقامى فى حى ناء من أحيائها ، وأسأتحلف صديقنا يوم ابوح إليه بسرى الأيواح به لأحد ، ولن أقبل منه إلا أن يقسم بقبر أمه ، فذلك قَسَمٌ لا يحث هوبه أبداً .

فلما صح منى العزم ترددت على الإسكندرية ، ثم اخترت فى ضاحية من ضواحيها النائية بيتاً صغيراً أنيقاً تحيط به الأشجار ، وكأنما بناه صاحبه للغرض الذى أقصد إليه ، وبعد أيام مربى صديقنا فأخبرته بما فعلت بعد أن أقسم لى بقبر أمه أنه لن يبوح بسرى ، وبعد أيام جاءت إلى المنزل عربية من عربات نقل الأثاث حين كان زوجى فى عمله فنقلت ما أخذت إلى الإسكندرية وقبل أن يحضر زوجى كنت قد سافرت أنا والمرية والطاهى إلى مقرنا الجديد ! . .

وتنفس الصعداء حين نزلت بيتى أنا ، لا بيت زوجى ، وشعرت كأن عيئاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدرى . واستنشقت رثاى هذا الهواء الجديد ، هواء الحرية المطلقة ، وخيل إلى أن السعادة أصبحت فى متناول يدى ، وأنتى ألقىت ما كان يساورنى من هموم فى لجة البحر المترامى بموجه المصطخب أمام نظرى . وزاد فى غبطتى أنى رأيت طفلى مغتبطين بهذا الانتقال كأنما

كانا يعانيان ما كنت أعانى ويضيقان بالجو الخائق الذى كنت أضيق به .
وبعد أسبوع أو نحوه جاء صديقنا يزورنى ، فلما رأى المنزل ونظامه
هنأنى على حسن اختيارى ، ثم تحدثنا فى شئون حرص من ناحيته وحرصت
من ناحيتى على ألا نشوبها بشيء من ذكرى الماضى ، وقد حمدت له
عنايته بسؤالى عن الطفلين وأية مدرسة اخترت لهما ، ونصحه إياى أن أحتفظ
بمريئتهما . وانقضى الوقت وأنا أقص عليه فى مرح كمرح الأطفال ما أجده
فى هذه الحياة الجديدة من مسرة ، أيسرها جلوسى إلى شاطئ البحر ، أسمع
إلى صريف أمواجه ، وأستنشق طيب هوائه ، وأمد ببصرى إلى آفاقه التى
لا تنتهى ، والتى تحجب فى طياتها غيب السموات والأرض .

أتاح لى هذا الهدوء الذى اشتملنى أول مقامى بالإسكندرية ، لبعده
عن موطن النضال وما يثيره النضال فى النفس من غضب ، أن أسبر غور
نفسى لأستظهر عواطفى . لقد بذلت الجهد فى مقاومة صديقتى ، أريد أن
أستخلص من برائتها زوجى لأختصه خالصاً لى ولولدى ، غير مطمئنة
لتوكيده المتكرر لى أنه لا يحبها ولا يحب غيرى ، وأن تردده عليها عناية بشأن
أولادها لا تشوبه قط ريبة . وقد بقيت أمقتها برغم شعورى فى أعماق روحى
بأن حجاباً قام بينى وبين زوجى يحول دون تألفنا وامتزاج قلوبنا ، وقد بلغت
قسوفى فى مقاومتها ذروتها يوم أوحيت لى صديقنا فذهب إلى الصحراء فألفاها
فى سيارة مع قريبى ويدها بين يديه ، ورأسها على كتفه ، فأفسد ذلك عزمه
على التزوج منها ، وكان هذا الزواج موشكاً أن يتم . وأنا إن أحسست فى
نفسى ميلاً لصديقنا واستلطافاً ، فلم يبلغ هذا الميل وهذا الاستلطاف مبلغ

الحب الذى يميز لصاحبه أو لصاحبتة المغامرة بمثل ما فعلت ، ولا أحسب
غيرتى من جمالها باعثى على هذا النضال . وهل تراقى تحركتى غيرة من مثلها
ولم يقف جمالها الساحر حائلا دون فتنة المعجبين بى وقد فتنتهم جاذبيتى وذكايتى
وسحر حديثى وسائر مواهبى ! . . وحسبى أن أذكر الألمانى الذى كان يجالسننا
معاً بالأقصر وكيف دفعه ذكاؤه وواسع علمه وسعة أفقه فقتن بى وسحره حديثى
ولم يفتن بها ولم يسحره جمالها ، فما الذى حركنى إذن إلى هذا النضال ؟ . .
لم أهتد إلى جواب على هذا السؤال بعد أن جهدت أياماً حوسوماً ألتمس
الجواب عليه ، وعند ذلك آثرت أن أدعه واثقة أن الزمن سيكشف لى عن
هذا الجواب ، وعدت إلى طمأنينتى السابقة الجميلة ، وقد زادت حياى
الجديدة فى سعادتى بها واستراحتى لها .

كان صديقنا يزورنى فى عطلة آخر الأسبوع مرتين على الأقل فى كل
شهر . وإننا يوماً لتحدث إذ فتح الباب ، ورأينا زوجى وكأنا يريد أن يدخل
علينا . وأجفلت لمراه وتولتني الحيرة ماذا أصنع ؟ لكنه لم يدع لى فرصة
للتفكير ، فإنه مالبث حين رآنا أن ارتد على عقبه وأن أقفل الباب الذى فتحه ،
وأن هرول مسرعاً إلى خارج الدارحتى خلت أنه طيف لا حقيقة له ، وأن
خيالى هو الذى صور له . لكننى صدمت بهذه المفاجأة صدمة هزت
أعصابى ، واضطر صديقنا أن يدعو المربية لتسعننى ، وانقضى وقت غير قليل
قبل أن أسترد هدوئى . فلما سكنت نفسى ، واستطعت أن أفكر وأن أتكلم قلت :
كيف اهتدى هذا الرجل إلى المنزل ، وكيف سولت له نفسه أن يصعد
إلى هنا ؟ . .

ولم يكن صديقنا أقل منى حيرة ولا دهشة ، فهو لم ير زوجى منذ أطلعته على خطاى ولم يحدث له من أمرى ذكراً . من ذا الذى هداه إذن إلى بيتى ؟ . . وهل تراه يريد أن يفسد علىّ حياتى من جديد بعد أن تركت له العاصمة كلها ، وما فيها ومن فيها ؟ . . لقد كان يخشى قاله الناس فينا إذا هو سرحنى ولم يمكّننى ، أما وقد حسمت ما بينى وبينه بهذا الانفصال من غير طلاق فما مطاردته لى ، كأننى سجين هارب من سجنه ، ولا مفر من إعادة القبض عليه ! ؟ . .

انصرف صديقنا حين أوشك النهار أن يولى ، بعد أن حاول ما استطاع أن يهون علىّ ما حدث . فلما خلوت إلى نفسى ارتسمت أمامى صورة زوجى ساعة فتح الباب علينا ووجدنى فى خلوة مع صديقنا . وكاد يتولانى الدوار من جديد ، ترى أى ظنون قامت بذهنه لهذا المنظر الذى لم يكن يتوقعه ؟ أم تراه جاء وهو يعلم بوجود صديقنا عندى فأراد أن يظهرنى على أنه يعلم من أمرى ما أردت ستره ؟ . . أم أنها المصادفة البحتة هى التى ساقته فى تلك الساعة وأوقفتنى منه موقفاً أرتج علىّ فيه فلم أستطع أن أقول كلمة ، ولم أستطع أن أزجره لاقتحامه علىّ بيتاً هو بيتى وليس بيته ولا شأن له به ؟ . . وكذلك أخذت أقلب هذا الأمر فى نفسى ، ثم ترتسم بين آونة وأخرى أمام خيالى تلك الصورة التى أثارت انزعاجى ، ترى أين ذهب بعد أن ولى مدبراً وأقفل الباب وراءه ؟ . . هل ذهب يدعو من يشهد ما رأى ؟ لكن أحداً لم يحضر ، وهل تراه غادر الإسكندرية أم بقى بها ؟ . . وهل أستطيع أن أراه لأؤنبه على فعلته المنكرة ؟ . . وجفا النوم مضجعى تلك الليلة لكثرة ما فكرت فيما عساي أصنع وكيف

أستطيع أن أعلم كيف عرف زوجي مقرى . ولم يغمض لى جفن حتى الهزيع الأخير من الليل ، فلما استيقظت ضحى الغد ناولتنى مربية أولادى خطاباً عرفت لأول ما رأيت عنوانه أنه من زوجى . وتوقعت قبل أن أفتحه أن أقرأ فيه من فحش القول وهجر الكلام مالا أستطيع الرد عليه ، وما لزوجى كل العذر فى أن يقوله . فلما فتحته وتلوته انقلبت مخاوفى دهشة وعجباً ، وتولانى من الحيرة ما كاد يذهلنى ، فهو كتاب موجز كل الإيجاز ، وفيه يقول زوجى بعد تحية رقيقة إنه لم يحضر إلى بيتى لظنة قامت بنفسه كما قد اتوهم ، ولكن عليه واجبات بصفة كونه زوجاً وأباً لا يمكن أن يهملها . ولا بد له من أدائها ، ويسألنى أن أفكر لصحتى وصحة الولدين أن أسافر إلى أوربا هذا العام لبيعت لى نفقات السفر كما عودنى ؟ ويختم خطابه : زوجك الوفى المخلص .

لم أصدق عينى حين تلوت الكتاب . فأعدت تلاوته مرة ومرة ومرة ثم شعرت بعد هذه التلاوة وكأننى هويت من أعلى السحاب ! يا عجباً ! . . .

أولو كانت فى يد هذا الرجل طبنجة أفرغها فى وفى صديقنا ، أفكان يلومه أحد ؟ . . أولو كانت معه هراوة أدارها علينا ثم طرد صديقنا كما يطرد الكلب ، أفكان الناس جميعاً يرونه محقاً ؟ . . أولو كان قد وجه إلينا أقبح الشتائم وأقذع السباب ، أكان فى مقدورنا أن ندافع عنا بكلمة ؟ لكنه لم يفعل من ذلك كله شيئاً ، بل انسحب وكأنه لم يرنا ، وها هو ذا يبعث إلى بذلك الكتاب العجيب يريد أن يؤدى واجب الزوج والأب . ويعرض على أن أسافر إلى أوربا . . أستطيع مع ذلك أن أهمل الرد عليه ؟ وإذا رددت فإذا أقول ! ؟ . .

وأُسندت رأسى برهة إلى مقعدى أفكر فى الأمر ، على أننى ما لبثت أن مر بخيالى أن يكون هذا الخطاب أحبولة نصب لى شباكها ، فلو أننى قبلت ما عرضه لكان ذلك أقوى سند له إذا أراد أن يكرهنى بحكم القضاء على العود إلى بيته وإلى طاعته . . أأرفض إذن ؟ . . ولكنى إن رفضت أسقطت حجتى فى مطالبته بنفقتى ونفقة الطفلين إذا اقتضى الأمر ! . . وإنى لأفكر فى هذا كله إذ جاء صديقنا يبلغنى أنه عائد إلى القاهرة ، ويسألنى أفى حاجة أنا لأى رأى أو معونة ، ولعله أراد أكثر من هذا وذاك أن يرى الأثر الذى تركته مفاجأة زوجى فى نفسى بعد انقضاء يوم كامل عليها ، فلما أريته الخطاب وتلاه تولاه من الدهشة ما تولاى ، وأخذ يقلب الأمر معى على وجوهه بعد أن ذكرت له ما ثار عندى من ظنون . . ثم إننا اتفقنا على أن أكتب له فى إيجاز كتاباً أقول له إنه أدرى بواجبه أكثر منى ، وإن طبه يسمح له بأن يقدر حاجة الولدين للسفر إلى أوروبا . فإن رأى ذلك ورأى أن أسافر معهما للعناية بهما فإننى لن أقصر فى القيام بواجب الأمومة ، وسأنهض به كما ينهض هو بواجب الأبوة ، أما إن رأى بقاء الطفلين بمصر فلا اعتراض لى على ذلك ، فصحة الولدين غاية همة ، والعناية بهما مصدر سعادتى وهنائى . على أن كتاب زوجى وردى عليه لم يهديانى إلى جواب عن سؤالى : كيف عرف مقرى ؟ . . وقد عرفت من بعد أنه علم بتودد صديقنا إلى الإسكندرية فأيقن أنى أقمت بها ، فاتصل بمحافظها ، وكان صديقه ، وطلب إليه أن يدلّه على عنوانى . ولم يجد المحافظ مشقة فى الاهتمام إلى حيث أقيم ، إذ سأل رجال الإدارة فى أحياء الإسكندرية جميعاً فجاءه من أقيم فى

حيه بالعنوان فأبلغه إلى زوجي ، عند ذلك أيقنت أن من يعيش في جماعة منظمة يصعب عليه أن يحتفظ بأسرار حياته ، وبخاصة ما كان منها واقعاً تحت نظر الدولة ورجالها كمحل السكن ! . .

وأقمت أنتظر تصرف زوجي بعد ردى على خطابه . ولم يطل انتظاري ، فبعد أيام تناولت كتاباً به تحويل على أحد بنوك الإسكندرية بنفقة إقامتنا ، وفي الكتاب أن محل كوك أصدر تعليماته إلى فرعهِ بالإسكندرية ليعطيني تذاكر السفر إلى الولدين وللمربية إلى أوروبا وإلى حيث أريد التنقل بين أرجائها ذهاباً وإياباً حتى عودتي إلى مصر ، وأنه يريد أن يعرف الزمن الذي أعترم قضاءه في تلك الربوع ، ليعث إلى تحويلي بالنفقة اللازمة له .

لم تكن دهشتي إذ تلوت هذا الكتاب بأقل من دهشتي يوم تلوت الكتاب الأول ، فلو أنني كنت مكانه حين رآني أتحدث في خلوة مع صديقنا لأكلت الغيرة قلبي ، ولما ملكت نفسي ، ولما استطعت أن أضبط أعصابي ، وما هو ذا يبعث إلى بالنفقة كأن أمراً لم يحدث ، وكأنني لا أزال أهلاً لعطفه ووجه . أي إنسان هذا الرجل وكيف ظل واثقاً بي ليقع كتابه إلى : « الزوج الوفي المخلص » وكأنني لست دونه إخلاصاً ولا وفاء ، أم يحسب نفسه قديراً على أن يشتريني بالمال ! . . إن يكن ذلك ظنه فقد خاب رجاءه فلست بالجامدة التي تستطيع أن تتحكم في أعصابها وعواطفها كما يتحكم هوفي أعصابه وعواطفه؟! وألفيت نفسي ، بعد أن تلقيت كتابه الأخير ، أمام الأمر الواقع . لذا ذهبت الغداة إلى البنك فقبضت التحويل ، ثم ذهبت إلى كوك لمخاطبتهم في أمر السفر ، واستعنت بهم في تصوير خطته وبرنامجه ووعدتهم أن أعود

الغداة لأبلغهم مطالبي ، وأخذت وأنا في طريق عودتي أفكر من جديد في زوجي وجموده أمام منظر يثير الغيرة في نفس أكثر الناس جموداً وأشدّهم لزوجته - التي لا تزال على ذمته - كراهية واحتقاراً ! ..

على أنني سمعت إذ ذاك صوتاً يناديني منبعثاً من أعماق نفسي : « لك الله يا ظالمة ! ، أو تظنين أنه كان يحمل على نفسه كل ما حمل ويكلف نفسه عبء سفرهم وحالته المالية ما تعلمين ، لولا أنه أراد أن يفرق بينك وبين صديقنا من غير ضجة تفضحكما وتسبب إلى ولديكما ؟ . . خفي إذن من غلوائك واعلمي أن غيرتك الحمقاء وكبرياءك الغرور هما علة ما أنت فيه ، وأنتك لولاهما لاستطعت أن تكوني أسعد النساء » .

أزعجني هذا الصوت ، فلم يبق في قلبي ذرة من عطف على هذا الرجل ، أو عاطفة تقربني منه ليفرق بيني وبين صديقنا ، وإذا صح أن غيرته هي التي دفعته ليحمل على نفسه ويحتمل عبء سفرنا إلى أوربا فأين كانت هذه الغيرة من سنوات مضت ؟ وإذا كان يظن أن هذا السفر يصلح ما أفسد فما أفحش خطأه ! لقد تنافروا قلبي فلم يعد إلى تجاوزهما سبيل . أما غيبي عن صديقنا أشهر الصيف فلا أثر لها في نفسي . فليس بيني وبين الرجل إلا أنه كان شهماً ذا مروءة ، ساندني في أوقات محنتي ، وأظهر من الرجولية إزاء صديقتي ما لم يظهره زوجي ، وأبدى من العطف على ولدي منذ انتقل إلى الإسكندرية ما استحق ثنائي الجميل .

ومر بخاطري برهة أن أرفض السفر وأن أظل بالإسكندرية كيداً لزوجي وامتحاناً جديداً لغيرته ، ولكنني خشيت إن فعلت أن يتمسك عليّ بهذا الرفض

ويتخذ حجة لأمر يدبره ضدى ، فذهبت الغداة إلى كوك ورتبت معه برنامج رحلتنا وطلبت إليه أن يعد تذاكر السفر كلها ، ثم مررت به بعد يومين وأخذت كل ما أعده ، وأبلغ الخل الرئيسى زوجى ما حدث فبعث إلى بكتاب أرفق به تحويلاً جديداً لنفقات السفر ، وبعث معه بالجوازات اللازمة لى ولطفلين والمربية ونمى لنا رحلة سعيدة موفقة .

وجاء صديقنا قبيل السفر يودعنى ويذكر أنه كان يود أن يرانى ساعة السفر ، لولا مخافته أن يلتقى بزوجى على الباخرة لقاء تخشى مغبته . فلما كان يوم الرحيل وذهبنا إلى الميناء ألفت زوجى فى انتظارنا ، فلما رأنا أقبل علينا وقبل الولدين وسلم على وحيًا المربية ، وصعد معنا الباخرة واطمأن معنا إلى حجراتنا منها وإلى موضع متاعنا بها ، ثم ذهبنا جميعاً نستريح فوق ظهر الباخرة فسرت أمامه وسار خلنى ممسكاً كلا من الولدين فى إحدى يديه حتى أجلسهما معه على مقعد طويل . ولقد أخذ يداعبهما ، ويقبلهما وأخذت أرق له وأرثى لحاله . وإننا لكذلك إذ فاجأتنا المصادفة بمنظر ارتاع له قلبى ، رأيت صديقتى مقبلة علينا وحوها عديد من معارفها والمعجبين بها وهى توزع بينهم نظراتها الساحرة وابتساماتها المشرقة وتبادلهم فى صوت خافت عبارات لم أتبينها . وأشحت وجهى حتى لا أراها ، ومرت هى فى استخفاف وكأنها لا ترانى ، ولكنها وقفت عند زوجى وحيته وقبلت ولدنا وبادلت عبارات فهمت من مجموعها أنها تسأله إن كان مسافراً معنا ؟ وأنه يجيبها أن عمله لا يسمح بهذا السفر . إذ ذاك تضاحكت فى دلال وقالت بصوت مسموع : « كم آسف لذلك ، فقد كانت رفقتك تسعدنى ولو لم تظل لأكثر من الأيام

التي نقضها على ظهر السفينة حتى نصل إلى جنوا ! . .

هي إذن مسافرة معي على الباخرة ، وقد كان زوجي يعلم لا ريب بموعد سفرها ، أترأه جاء اليوم ليودعنا ، أم اتخذنا سلماً ليودعها ؟ . . ها هي ذى تنظر إليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينها ، وهو يحدثها ملقياً بنظره إلى الأرض كأنما خجل من أن أراها يتحادثان ! . . وحانت منى التفاتة إلى مربية أولادى فهمت منها ما أريد فأسرعت إلى الولدين وجاءت بهما عندى ، وصديقى تتعمد إطالة الحديث حتى استغرق دقائق خلقتها دهرأً أرهفت أذناى فى أثنائه لأسمع ما يدور بينهما من حديث . ولاحظت منذ جاء الولدان عندى أن زوجي يريد أن ينهى هذا الحديث ليعودا إليه ، وأدركت صديقتى ذلك من ردوده المقتضبة فسلمت عليه سلاماً حاراً وودعته بنظرة بارعة وقالت فى ابتسام ساحر : « أرجو أن أراك حين عودتى مستريح البال موفور العافية » . فلما عاد إلى مجلسه على مقعده الطويل نظر إلى ولديه وأومأ إليهما برأسه فهرولا نحوه مسرعين ، وأجلسهما معه كما كانا من قبل وعاد يقبلهما ويداعبهما . فلما أعلنت الباخرة المودعين بصوتها الضخم تؤذهم بالانصراف ضم كلا من الولدين إلى صدره ثم مسح عينيه بمنديله وأقبل نحوى فسلم على وعلى المربية وقصد نحو السلم يهبط عليه إلى رصيف الميناء ! . .

وجرى ولداى مع المربية إلى الناحية الأخرى من الباخرة حيث السلم ليتمكننا من رؤية أبيهما حين انصرافه ، ومكثت أنتظر عودتهما . لكنهما طال غيابهما لأن أباهما وقف يشير إليهما ويناديهما ويلوح بمنديله الأبيض حتى تحركت الباخرة واستدارت نحو مدخل الميناء إلى فسحة البحر ، عند ذلك

عادة فقبتهما وقلبي يدق وكأنما يقول في دقاته : تستطيعين أن تفصلي عن هذا الرجل بجسدك ، لكنك لن تستطيعي أن تفصلي حياتك عن حياته ، وهذان الطفلان يربطان بينكما بأوثق رباط ! . .

وتخطت الباخرة الميناء إلى البحر وأطلقت محركاتها العنان ، وأخذت الإسكندرية تتوارى شيئاً فشيئاً في حجاب الأفق ، فلما لم يبق أمام ناظري إلا السماء والماء تمطيت على مقعد طويل وحاولت أن أخلى خاطري من كل شيء ، وأن أدع نفسي تموج مع نسيم البحر العليل في عوالم مبهمه لا يشغل الخيال ولا الذهن شيء مما فيها . وإنني لذلك إذ مرت صديقتي مستندة إلى ذراع أحد المسافرين وهي ترسل الحين بعد الحين ضحكات ناعمة تشهد بما يملأ قلبها من مرح ومسرة ، قلت في نفسي : « ما أسعد هذه الأرملة الطروب بالحياة اليوم ، وهي هي التي كانت من سنوات مضت صورة ناطقة لمعاني الهم والشجن ، ومهما وشجنها بالأمس هما مصدر مرحها وسعادتها اليوم ، فلولاها ما بذل صديقنا وزوجي ما بذلا من عناية حتى استخلصا ميراثها وميراث أبنائها وأتاحا لها هذه الحياة الناعمة التي تحياها ، ولا شغل صديقنا ولا شغل زوجي بها إلى اليوم . وهكذا الحياة ، مجموعة من المتناقضات يسعد بها قوم ويشقى آخرون : صحة ومرض ، فقر وغنى ، شقاء وسعادة ، وهذه المتناقضات تتداولنا دراكا فנסعد ثم نشقى ، ونشقى ثم نسعد ، ويتوالى ذلك علينا حتى يدركنا الأجل المحتوم ! . .

لست أدري لم أثار مرور صديقتي هذه المعاني الفلسفية في نفسي وجعلني أفكر في ضعف الإنسان أمام الحياة حتى لترعجه أتفه الأشياء كما تسعده

أفهمها . قد يكون موج البحر الممتد أمام النظر إلى مدى الأفق ، والذي يستر في طياته من الغيب مالا أعلم ، هو الذي أثارها . وقد يكون هواء هذه الساعة برقته وما يهيئ للنفس من استرخاء وسكينة هو مبعثها ، على أية حال فقد بقيت بعدها كأنتى فى حلم متمطية على مقعدى ، أفتح عيني وأغمضهما كما أهوى ، وأشعر بنوع من تخدير الأعصاب الذى يسبق النوم ! . .

فلما حان موعد العشاء وحان للناس أن يبدلوا ملابسهم ارتديت للسهرة ثوباً بسيطاً ثم صعدت إلى سطح الباخرة تلمع عليه أضواء الكهرباء . وبينما أسير ذهاباً وجيئة مرت بي صديقتى من حديد وقد ارتدت للسهرة ثوباً بارع الجمال ، وقد تزينت زينة كلها الإغراء . وقد أمسّت بجماها وزينتها وثوبها تلفت نظركل رجل وكل امرأة مرت به أو مر بها . ونظرت إليها إذ ذاك وأطلت النظر وذكرت كلماتها الأخيرة لزوجى : أرجو أن أراك حين عودتى مستريح البال موفور العافية ! . .

وتناولنا طعام العشاء ثم أديرت بعده حفلة رقص شهدتها إلى منتصف الليل ! . . وقد رقصت صديقتى مع كثيرين كانوا يستبقون إليها ويطلبونها للرقص معهم ! . . وكانت لا تأبى أن تلبى من يتقدم إليها لتراقصه ! . . ثم كان جماها وكانت زينتها حديث الرجال جميعاً ، وكان مرحها وكانت ابتسامتها أشد إثارة لإعجابهم من ثوبها ومن زينتها ! . . وقد خيل إلى ساعة غادرت هذه الحفلة إلى مخدعى إن الرجال جميعاً جنّوا بها جنونا وأنهم لن يدعوا الحفلة تنتهى حتى مطلع الفجر ! . .

وخلعت ثيابى وارتديت ملابس النوم واستلقيت فى سريرى وصورة

صديقتى - وهى موضع الإعجاب بل موضع التقديس عند الجميع - لا تبرح خيالى ، وأغمضت عيني أحاول النوم فإذا هذه الصورة تتوارى لتحل محلها صورة صديقتى يوم التقينا بالأقصر بعد عام من وفاة زوجها . لم تكن يومئذ الأرملة الطروب التى يراها الرجال اليوم ويعجبون بها ، بل كانت سيدة بادية الحشمة ، تؤمن بجماها من غير أن تعرضه نزهة للناظرين ، بل كانت تبدو وكأنها تستحي منه ، وتود لو تستطيع أن تواريه عن الأعين . يومئذ كنت أجلس إليها وأراها شابة جميلة ساذجة لا تجيد أن تتكلم ، ولا تجيد إلا أن تنظر بعينيها الساحرتين إلى من يحالسا ومن يمر بها ، ويومئذ لم أربأساً بأن يهتم صديقنا بأمرها وأن يعنى زوجى بشئونها وشئون أبنائها . أما منذ خلص لها ولأبنائها ميراثهم وحسبت أنها اطمأنت إلى الحياة تبدلت حالها غير الحال وأصبحت امرأة وقاحاً لا تطاق ، ظنت أنها تستطيع أن تنافسنى فى سلاسة العبارة ، وجمال اللفظ ، وأنها تستطيع أن تسحر بهما الناس فوق سحرها إياهم ببارع جماها وساحر فنتها . وقد بلغت من ذلك أن فكر صديقنا فى أن يتزوجها ، وأن قبضت على ناصية زوجى واستبقت مودته .

وكانت صورتها تتبدل أمام بصيرتى وأنا مستلقية فى مرقدى . كلما تصورت حالا من أحوالها التى أثارتنى بها وانتهت إلى القطيعة بينى وبينها ، وكنت أزداد حنقاً على هذه الصور وعلى صاحبها كلما هفا إلى مسمعى صوت موسيقى الرقص آتياً من ناحية بهو الباخرة ، وهى الليلة فى ذروة مجدها وانتصارها .

وأصبحت فتناولت فطورى فى غرفة الطعام وصعدت إلى ظهر الباخرة .

ووقفت أستنشق هواء البحر لعله يذهب عني جهد الأرق الذى لازمنى معظم ليلتى ، وبعد قليل وقفت إلى سيدة حيتنى بالفرنسية ثم أخذنا نتبادل الحديث المألوف فى مثل هذه الأسفار عن الجو والحر ، والرجاء أن يظل هادئاً إلى نهاية السفرة . وإنا لى حديثنا إذ مرت صديقتى مشرقة الوجه باسمه الثغر كأنها نامت كل ليلتها وسعدت بأجمل أحلامها ، وكأنها لم ترقص إلى قرابة الصبح ، ونظرت إلى ساعة مرت بنا نظرة تعال وكبرياء وكأنها تقول لى : « أرأيتنى ليلة أمس ، وهلا ترال الغيرة تأكل صدرك منى ولا تفتين تطمعين فى منافستى ؟ . . إن يكن ذلك فهذا البحر أمامك فاشربى منه أو ألقى نفسك بين أحضانه لتتخلصى من غيرتك ويأسك » .

وسألتنى محدثتى ، وكنت قد علمت منها أنها فرنسية ، أعرف هذه السيدة الجميلة ؟ . . قلت : نعم أعرفها وإن لم تكن أصدقاء ، وهى كثيرة المعارف ، والأصدقاء وأصحابها فى مصر يسمونها « الأرملة الطروب » ، ففيها خفة تقارب الطيش ، وتذكرت وأنا أتكلم أن صديقتى مصرية ويجب لذلك ألا أجرحها ، فاستطردت فى كلامى : « لكن أصدقاءها يذكرون أنها طيبة القلب ، وأن خفتها ومرحها لا يتعديان المجتمع إلى حياتها الخاصة ، أما معرفتى بها فقليلة وليس من حق أن أحكم لها أو عليها » .

وعلقت محدثتى الفرنسية على كلامى فقالت : « أنت على حق يا سيدتى ، فأنا أعرف فى باريس نفسها سيدات اشتهرن بالخلاعة وهن مع ذلك مثال الشرف والسمو عن الابتذال ، وتقولين أنت الآن إن أصدقاء هذه السيدة المصرية يقولون ذلك عنها ، ولا أحسننى فى ريب من ذلك بعد الذى رأيته

أمس ، لقد تركتنا أمس منتصف الليل والمهرة لم يحرم وطيسها ، ولو أنك بقيت إلى نهايتها لرأيت عجباً ، شرب بعض الشبان حتى ثملوا وعرضوا على هذه السيدة أن تشرب ولو قليلاً من الشمبانيا فأبت إباء مطلقاً ، معذرة بأنها تشرب في حياتها ، وأن دينها يحرم عليها الشراب . وألقى هؤلاء الشبان الثملون أنفسهم على أقدامها ، وزعم أحدهم أنه شاعر إنجليزي وألقى مقطوعة ادعى أنه نظمها لساعته من وحى عينيها الساحرتين ، وذهب آخر إلى غرفة الطعام وجاء بما فيها من الأزهار ونثرها عليها ، ولم يكن القبطان أقل الحاضرين افتتاناً بها ، فقد عرض عليها وهو في نشوة شرابه إن لم تكن تعجبها قمرتها ، أن تأخذ قمرة وصالونه ، وضحكت هي لهذا العرض وقالت إنها ستفكر فيه متى أصبحت وأصبح القبطان . والحق أشهد أنها كانت برغم مرحها وطربها شديدة الاعتزاز بنفسها وبكرامتها ، وإن لم تكن أقل من ذلك اعتزازاً بجماها وبسحرها . وسكنت محدثي قليلاً ، ثم قالت : « ألا ليتك تستطيعين يا سيدتي أن تحدثي التعارف بيني وبينها » ! . .

وأخذت لهذه العبارة الأخيرة ، فلن يحملني اعتباراً كان على التحدث إلى هذه المرأة التي سلبتني هناءً وسعادتي ، بل سلبتني كل ما في الحياة من نعمة وجمال ، على أني سارعت مع ذلك وقلت لمحدثتي : « أنت يا سيدتي في غير حاجة إلى من يقدمك لها . وحسبك أن تبادئيها الحديث بإطراء جماها لتكسبي قلبها ، وهي طيبة القلب كما ذكرت لك ، ويسرها لذلك أن تعاملها من غير كلفة ولا رسميات ! . . . » .

لا أستطيع أن أصف ما أثاره هذا الحديث في نفسي من غيرة ومن حيرة ،

لقد كان هذا الانتصار الباهر الذى أحرزته صديقتى خنجراً مسموما صوب إلى صدرى ، ولكنى كنت موجدتى واتخذت من طفلى مسلاة لى أنسى بهما همى وكربتى .

وتناولنا طعام الظهيرة وذهبنا إلى بهو الباخرة نتناول القهوة فإذا إعلان بحط واضح أن الآنسة الإيطالية ، ضاربة الكمان الشهيرة فى الأوساط العالمية جميعاً ، تفضلت بإحياء سهرة هذا المساء فى بهو الباخرة ، وتبدأ الساعة التاسعة والنصف ، والجميع مدعوون .

أقبل المساء وبدل المسافرون ملابسهم لطعام العشاء ، فإذا صديقتى أبدع ثوباً وزينة مما كانت عليه أمس . وإذا العيون تنهبها ساعة دخلت قاعة الطعام . وعجب الناس حين رأوها تنخطى المائدة التى كانت تجلس عليها لليلة الماضية إلى مائدة القبطان لتجلس إلى جانبه ، عند ذلك دوت القاعة بالتصفيق مما أحجل مصريتى . فلما فرغنا من الطعام وذهبنا إلى البهو إذا رجال الباخرة قد استحدثوا فيه منصة للاعبة الكمان ، وإذا على هذه المنصة كراسى ثلاثة لم نعرف لمن وضعت . وبعد قليل أقبل القبطان وعن يمينه لاعبة الكمان وعن يساره صديقتى ، وإذا هم يصعدون جميعاً إلى المنصة . ويجلس القبطان بين السيدتين ، فلما سكن تصفيق الحضور وقف القبطان يقول : « لا حاجة لى إلى تقديم الآنسة ربة الكمان وشهرتها تغنيها عن كلامى ، وكمانها الذى سستمعونه عما قليل أبلغ عبارة منى فى تقديمها . أما السيدة المصرية فقد عرفتوها جميعاً ليلة أمس ، بعد أن قدمها لكم جمالها وظرفها وقلبها الكبير ، والكلمة الآن للكمان البارع ! . . . » .

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا



ولعبت الآنسة عدة مقطوعات لعبت معها بالعقول والقلوب . فكانت كل مقطوعة تنتهى تدمى الأكف بالتصفيق . . وليست أذكر أى سمعت موسيقى بلغت من الإعجاز ما بلغت موسيقى تلك الليلة . سمعنا مقطوعات لبيتهوفن ، ولوزار ، ولفاجنر ، وأمثالهم من الخالدين الذين أشاعوا فى جوال العالم أبدع الأنغام وأعذب الألحان . فلما فرغت الآنسة من إيقاعها البارع البديع الذى سما بنفوسنا إلى أجواء الفن العليا وقف القبطان يشكرها لما أسعدتنا جميعاً به من تلك الموسيقى السماوية ، ثم قال : « ولم أرد أن أروعكم ساعة بدأت هذه الحفلة ، فقد صادف بدؤها بدء عاصفة لعبت بالباخرة ، وستحسونها جميعاً عما قليل ، لكن هذه العاصفة وعبثها بالباخرة لم يكن لهما أى سلطان على الآنسة ، لأن قها ملكها فى أثناء لعبها فلم يكن لغيره ، ولم يكن للعاصفة ، سلطان على أصابعها البارعة ، ولا على جسمها الذى استطاع أن يحتفظ بكل توازنه أكثر مما استطاعت باخرتى أن تحتفظ بتوازنها .

« ولم تقف قدرة الآنسة عند هذا الحد ، فقد أنستكم جميعاً ببراعة فنها أن الباخرة تميل يمنة ويسرة ، لأن أنغامها أمسكتكم فى مقاعدكم تطربون لها وتستمعون إليها ، أفلا يوجب هذا كله علىّ وعليكم أن نضاعف شكرنا لمن أباحت لنا هذا الفن الجميل وأنستنا غضب البحر وهياجه ! . . فباسم هؤلاء الحاضرين واسمى أقدم لك يا سيدتى خالص الشكر وجزيل الشاء ! » . . واندفع الحاضرون نحو المنصة يحيون الآنسة ويشكرونها ، ولكن الأعجب من هذا أنهم كانوا يتجهون بعد تحيتها إلى صديقتى يحيونها هى الأخرى ثم يقفون حولها يبدون من الإعجاب بحماها مثل إعجابهم بالكمان ولاعبته

وحاولت صديقتي أن تنصرف حين انصرف القبطان فإذا المحيطون بها قد ضربوا حولها نطقاً يتعذر اختراقه ، ولم ينجها من هذا الموقف إلا أن أعلنت أنها بدأت تشعر بالدوار وأنها في حاجة إلى الهواء الطلق أو تهبط إلى قمرتها ، عند ذلك أفسح المحيطون بها طريقاً لها وكلهم يكررون آى إعجابهم بجمالها ورقتها وظرفها ! . .

وكنت أشهد ذلك مشدوهة ، لا دهشة أعظم من دهشتي ، ولا حيرة أعظم من حيرتي وغيرتي . ولو أن زوجي اختار لها أن تسافر معي على هذه الباخرة كيداً لى ، لقد بلغ من كيده ما أراد وأكثر مما أراد ، أما إن كانت المصادفة هى التى ساقط ذلك كله إلى فيالبؤسها من مصادفة مشثومة .

وخرجت مع الناس إلى ظهر الباخرة وكأنى أشعر بالدوار يعبث بى ، فهبطت مسرعة إلى قمرتى وقضيت بها ليلة نابغة ، فلما أصبحت كان البحر قد استرد اتزانته فسكن هياجه وعاد سلساً كما كان . والتقيت بالفرنسية بعد الفطور وتبادلنا التحية وأخذت تحدثنى عن موسيقى الآنسة الإيطالية وروعها ، ثم قالت : « وصاحبتنا المصرية ، أرايت تهافت الرجال عليها واستسلامهم لفتنة جمالها ؟ » . . قلت : « نعم رأيت ذلك ولم يدهشنى ، ذلك شأن الرجال ، يترامون على المرأة ترمى الفراش على النور ، ثم لا يعنيتهم أن تحرقهم بنارها وتندرى بقاياهم فى الهواء بيددها كل ربح . »

وقالت محدثتى : « وأعجب الأمر أن أكثر الرجال رزانة وحكمة لا يمتازون فى هذا الشأن عن أكثرهم طيشاً ونزقاً ، وإن اختلفت أمزجتهم فى ذوق الجمال وصاحبته ، وأعجب من ذلك أن البريق الظاهر يفتنهم ويغريهم

أكثر بما يفتنهم الجمال الحق في المرأة الكاملة ، ولا شيء يدل على هذا ما يدل عليه افتتانهم بشباب المرأة وحليها وظاهر زينتها ، وأنهم مع ذلك يذكرون أن المرأة هي التي تخلع على هذه الأشياء جمالها ورونقها . وأما إن رأوا سيدة بسيطة الثياب قليلة الزينة فقل ما يلفتهم جمالها ، وأقل من ذلك أن يلفتهم ما تنطوي عليه روحها وجسمها من كريم المعاني ورائع الجمال ، ثم يقول الرجال بعد هذا إنهم أولو حكمة ، وإن كانت حكمتهم أغلب الأمر هي السخف كل السخف ، ولم يكن لها من سند إلا سخرية المرأة منهم وفتنتها إياهم .

أعجبنى هذا الكلام فانصرفت أكرره في أعماق روعي ، وتبدول من خلاله صررة زوجي وعطفه على صديقتي ، فلا يزيدني ارتسامها أمامي إلا ازدياء له ومقتاً إياه ، فهو الذي أفسد حياتي ودفعني للفرار من بيتي باصطفائه صديقتي على رغم علمه بحفتها وطيشها .

كانت ليلتنا المقبلة آخر ليالينا على الباخرة ، إذ كانت ترسو الصباح بمرقاً جنوا ، ولهذا أقيمت في المساء حفلة تنكرية لم أرد أن أشترك فيها ، لأن صديقتي بارعة في التنكر ، تبتكر له من الأزياء ما لا يرد بالخاطر ، وما يلفت الأنظار إليه ويمسكها عنده ، ولست حريصة على أن أشهد الاحتفال بانتصارها الساحق للمرة الثالثة . لهذا أويت إلى قمرتي وأعددت متاعنا وقضيت بعض الوقت أقرأ وأنا في سريري ثم أطفأت مصباحي .

واستيقظت بكرة الصباح وصعدت إلى ظهر الباخرة فإذا هي ترسو . وانتقلنا نواً إلى محطة السكة الحديدية ، فلما انطلق القطار ولم تكن به

صديقتى تنفست الصعداء وحمدت الله أن استعدت حريتى . وتنقلنا بين شمال إيطاليا وسويسرا وفرنسا وألمانيا مبتعدين عن المدن ما استطعنا ، مستمتعين من هواء الجبال والبحيرات بما رد إلى هدوئى وطمأنيتى . وزادنى هدوءاً أنى انتهيت إلى تصميم حاسم أن أنفصل بالطلاق عن زوجى ، وإن كلفنى ذلك ما كلفنى ، فلم يعد يعينى ما يقوله الناس عنى إذا لجأت إلى القضاء . فالأمر لا يتعلق بسعادتهم بل بسعادتى ؛ ولم أعد أعبأ بما كان يذكره صديقنا من تأثر ولدى بهذا الطلاق ، فالوضع الحاضر أسوأ أثراً على نفسيهما وأكثر إساءة لهما ، وإذا اضطررتى عناد زوجى إلى التشهير به فلن يكون ذلك ذنبى . ولن أكون آخر امرأة طلقت ولا آخر امرأة تطلق ، ولن يكون لى من وراء هذا الطلاق إلا أن أستعيد حريتى وأن أحيا كما يحيا كل من ملك حريته . من يوم صح على هذا رأى عزمى شعرت بديب الحياة السعيدة يجرى فى عروقى ، ورأيت الجبال أبهى منظراً بالخضرة التى تكسو سفوحها ، والبحيرات أبرع جمالا بأضواء الشمس والقمر تنعكس على صفحاتها ، ثم شعرت بنوع من النعمة لم أكن أشعر به من قبل ، شعرت بكمال شخصيتى وبقوة أنوثتى .

وعدنا إلى مصر فالفيت زوجى يصعد إلى الباخرة وهى لا تزال فى عرض الميناء ، وأقبل علينا وجلس إلينا بعد أن قبّل الطفلين وضمهما إلى صدره وقبل يدى وسلم على المربية وكأنه مشوق إلينا أعظم الشوق . وبعد أن اطمأن بنا المجلس وتبادلنا السؤال عن الصحة وكيف قضينا سفرنا نظر إلى ف عطف وحنان وسألنى : « ألا تريدان أن نعود جميعاً إلى القاهرة ؟ » . فأجبته فى

هدوء وحزم : « أشكرك يا صديقي فلم يبق إلى حياتنا المشتركة من سبيل وأنا
أطلب إليك منذ اللحظة أن تشرحني ، ولن أضن عليك بما تطلب لقاء
طلاقي ، فإن أجبتني إلى ذلك شكرت لك ، وإن أبيت فلن تحمد من بعد
إبائك . »

ووجم الرجل لما سمع . ولم تتبادل بعد ذلك كلمة حتى خرجنا من الجمر
وذهبت إلى بيتي بالإسكندرية . وعلى باب البيت ودعنا ولا يزال واجماً
كثيراً . وعاد إلى القاهرة وعدت إلى حياتي أنتظر ما الله فاعل به وبى ! . .

الفصل الثامن

بعد ثلاثة أيام من مقامنا بالإسكندرية جاء صديقنا يسلم علينا ويرحب بنا . وإنما علمت بمقدمه حين سمعت طفليَّ يستقبلانه أول وصوله بالبشر والتهليل كأنه أعز عزيز عليهما . وصعدا معه إلىَّ وجلسا من حوله ينظران إليه بعيونهما البريئة نظرات كلها الحب الخالص . واهتز قلبي لهذا المنظر غبطة وطرِباً ، وبنى هويداعهما تارة ويحدثني تارة أخرى وأنا سعيدة بلقائه أعظم سعادة . واستأذن يريد الانصراف قبيل موعد الغداء فدعوته ليتناوله معنا فاعتذر بأنه على موعد مع أصدقائه من أهل الإسكندرية سبقوني إلى دعوته إذ كانوا معه في القطار الذي قدم فيه ، ثم قال وهو يودعني : « سأعود إليك بعد الظهر لحديث طويل بيني وبينك » .

وحاولت بعد انصرافه أن أتوهم ما عسى يكون هذا الحديث فذهبت محاولتي سدى . وأوحيت إلى المربية بعد أن تناولنا طعام الغداء أن تأخذ الطفلين إلى حديقة التزهة وأن تعود بهما ساعة المغيب ليخلو الجول لصاديقنا في أثناء حديثه ، وبعد قليل من خروجهم جاء صديقنا فألفاني وحدي فقال : « حسناً فعلت حتى يكون لي مطلق الحرية فيما جئت إليك بشأنه » . قلت : « كلى آذان صاغية بعد أن حاولت عبثاً أن أعرف ما تريد مني ! . . . » .

قال : « إذن فاسمعي ، أنت تعلمين أنني لم أر زوجك ولم يرنى منذ انتقالك إلى الإسكندرية ، فقد اتهمني يومئذ أنني حرصتُك ضده ، وأعتك عليه ، ولذلك قاطعني وشهر عند أصدقائي بي . وإنني لفي منزل أول من أمس إذ رأيته يدخل على محمر العينين ، ممتقع الوجه ، متهالكاً على نفسه وكأنه لم يذوق طعم النوم منذ عدة أيام ، وقمت إليه مشفقاً عليه راثياً لحاله فعانقته كما لم أعانقه منذ سنين ، ورجوته أن يجلس وأن يطامن من نفسه وأن يذكر لي سبب همه وكربته ، فكث صامتاً زمناً ثم قال : « معذرة يا صديقي أن لجأت إليك بعد أن قاطعتك ، لقد فكرت طويلاً فيمن ألتجأ إليه لتفريج بلوأي فلم أجد سواك ، فأعني يرحمك الله ولا أذاقك ما أذوق أنا الآن من مرارة قاتلة . لقد ذهبت أستقبل زوجي وطفلي بالإسكندرية ساعة عودهم من أوروبا ، فلما لقيتهم رجوت زوجي أن يعود جميعاً إلى القاهرة ، فكان جوابها أنه لم يبق إلى حياتنا المشتركة سبيل ، وأنها تريد مني أن أطلقها ، فإن أبيت فلن أحمد من بعد إبائي . ولست أدري ما ذنبى عندها ، لقد أحببتها ولا أزال أحبها حب تقديس ، بل حب عبادة ، أحبها لنفسها ، وأحبها لطفليها ، أحبها وأزداد إعجاباً بها كلما رأيت غيري يطرى ذكاءها ورقها وسحر حديثها ، لم تأخذني الغيرة يوماً عليها لأنني أوّمن بشرفها وكبريائها ، كإيماني بالله وبشرفي وشرف مهنتي ، وقد غاضبتني بعد أن استخلصت بمعونتك ميراث صديقتها ، غاضبتني وهي التي كانت تحرضني على ذلك وتدفعني إليه ، وأنت تعلم أنه لم يكن بيني وبين صديقتها يوماً ما يشينني ، وأقسم بالله وبشرفي وبشرفها وبرأسي طفليها أنه لم يكن بيني وبين

هذه السيدة قط ربية توجب أن تغاضبني زوجتي . . فلما غاصبتني صبرت وصابرت مؤمناً بأن الزمن سيفعل فعله . لأن حبي إياها لا يزال اليوم كما كان يوم تزوجنا . . مع ذلك أصرت على مغاضبتي ، كما تعلم ، وبعثت إلى ذلك الخطاب الذي أطلعته عليه . ثم هجرت بيتها وذهبت إلى الإسكندرية . وعدت فصبرت وصابرت ولم أقصر قط في حقها أوحق ولدنا ، ودفعتها إلى السفر في هذا الصيف الأخير إلى أوروبا لعلها تعاود التفكير في أمرنا وأمر ولدنا فكانت نتيجة هذا التفكير ما ذكرت لك من إصرارها على الطلاق . .

«وسكت زوجها برهة بعد ذلك استرد فيها هدوءه . ثم تابع حديثه قائلاً :
« أنا لا أريد قط أن ألومها على شيء من ذلك كله ، لا أريد أن ألومها على مغاضبتي ، ولا على ذهابها إلى الإسكندرية ، ولا على طلبها الطلاق ، لكنني أريد أن أستغفرها ولا أزال أطمع في عفوها ، أريد أن أعترف لها في غير موجب للاعتراف ، بأنني مذنب وبأنني هفوت ، بل أخطأت ، بل أئمت في عنايتي بصديقتها وفيما تقول من أنني أعطف عليها ، أو أميل إليها ، أريد يا صديقي أن أفرض هذا كله صحيحاً ! ألسنا جميعاً معرضين لأن نخطئ ؟ . .
وهل يستطيع الناس أن يعيشوا وأن يتفاهموا إذا لم يغسل العفو بينهم حوبة الخطيئة ؟ إن المرأة لتخون زوجها حتى ليرتاب في ولده منها ثم تطمع مع ذلك في عفوهِ ومغفرته ، ولو أن زوجتي تهمني بأن الأمر بلغ بيني وبين صديقتها هذا المدى ، ولا أحسبها تبلغ من الريبة هذا المبلغ ، أفلا أستطيع مع ذلك أن أستغفرها ؟ تستطيع أنت يا صديقي أن تذكر لها أنني أقسم بأنني لن أرى صديقتها من بعد قط إذا أعدنا حياتنا سيرتها الأولى . أمن المعقول

٢١٩

أن تجزى هذا الحب الخالص لها بكل هذا المقت الذى تواجهنى به ؟ . .
وهل يبلغ من أمرها وهى الرزينة الحكيمة ، أن تنسى ما يجر انفصالنا على
ولدينا من ضياع يفسد كل حياتهما ؟ . . إذا لم ترد أن تسمع فى أمرى إلى
صوت الزوجة فلتسمع فى أمر ولدينا إلى صوت الأم ، إننى أدع بين يديك
يا صديقى بقية رجاء فى أن تعيد إلى أسرة بائسة قسماً من نور الأمل فى وجه
الله ، أفتقبل هذا الرجاء ؟ . . »

« وما كاد زوجك يتم كلامه حتى انخرط فى البكاء ، كأنه الطفل . .
وانقبض قلبي لبكائه وكادت الدمعة تنحدر من عيني رثاء له وشفقة عليه .
أنت تعلمين كم تعينى سعادتك وسعادة طفليك ، وأستطيع أن أؤكد لك
صادقاً أنه لم يكن بين زوجك وصديقتك ما يريب ، فإن لم تصدقيه ولم
تصدقينى ، فهو بعد الذى كان منه ، وبعد حديثه هذا معى ، أهل لعفوك
وغفرانك . أفأنت مع ذلك لا تغفرين ، إن لم يكن من أجله فن أجل
ولديك ؟ . . »

أنصت إلى هذا الكلام وتأثرت به فأطرقت وأطلت الإطراق وفى
إطراقى ذكرت يوم قلت لزوجى إنه مثل بارع ، وإنه عطيل وروميومعاً ،
فلما طال بصديقنا انتظار كلمتى نهينى بقوله : « سمعت الآن ما جئتك فيه ،
فاذا تقولين ؟ . . أم تريدان أن أنظرك إلى غد حتى تفكرى فى الأمر وتقليبيه
على شتى وجوهه . »

قلت : « لا حاجة بى إلى الانتظار يا صديقى . . لقد قلبت هذا الأمر
وفكرت فيه شهوراً إن لم أقل منذ سنين . . . وقد عدت إلى تقليبه فى

أثناء سفرى الأخير إلى أوربا فازداد تصميمى على رأى ثباتاً وقوة . وأنت تعرف هذا الرأى . لست أخفيك أن ما ذكرته لى الآن قد ترك أثره فى نفسى ، برغم اقتناعى بأن زوجى ممثل بارع . . وقد يكون صحيحاً ما رواه لك من أنه يحبنى ، وأنه لم يكن بينه وبين صديقتى ما يريب ، ولكن الأمر فى هذا الموضوع لا يتعلق بروايته وصحتها أو بطلانها ، إنما يتعلق بما أحسه أنا ، وأنا أرى هذه المرأة بينى وبينه كلما مرت بخاطرى صورته ، أراها بينى وبينه فى يفتى وفى منامى ، أراها بينى وبينه لابساً ثيابها وعارية كيوم ولدتها أمها ، أراها بينى وبينه تنظر إليه بعينها الساحرتين ، وتطوق عنقه بذراعيها العاريتين ، أراها بينى وبينه حتى فى سرير نومى . أدع هذا الذى أقوله لك ما شئت ، سمه تخريفاً ، سمه طائفاً من الجنون تحكم فى بصرى وبصيرتى وفى أعصابى ، لكنه الواقع من أمرى . لقد أصبحت هذه الصورة لا تبارحنى ، وكأنما سرت مسرى الدم فى عروقى ، فتأثرت بها أعصابى وتأثر بها عقلى الباطن ، فلم يبق لى فكاك منها ، أما والأمر ما ترى فإننى أقول لك فى شىء كثير من الأسف إن ما تطلب إلى لم يبق إليه سبيل .

وحاول صديقنا أن يعاود الكلام فى الأمر معى فقلت له : « لا تحاول المستحيل وأبلغ زوجى أنه إن أراد بنفسه وبى وبطفلينا الخير فليسرخنى سراحاً جميلاً ، وأنه إن فعل ذكرت له هذه المنة ما حييت ، ولن يكون لى عنده مطلب من المطالب » .

وغادرنى صديقنا عائداً إلى القاهرة كاسف البال أسفاً : فلما استدار الأسبوع عاد إلى ولا يزال الأسف بادياً عليه ، فلما جلسنا نتحدث قال :

« أشهد أن زوجك أكرم منك ألف مرة ، وأنه رجل مروءة لا حد لمروءته .
لقد قصصت عليه ما دار بيننا وذكرت له أنني رويت لك حديثه كلمة كلمة ،
وصورت له إجابتك أدق تصوير ، فاغرورقت عيناه وقال : « أما وذلك
شأنها فلا أرى الصبر ناجعاً في علاجها ، وليس لي إلا أن أنزل على إرادتها
وأن أدع لها بعد ذلك حرية الاختيار كاملة » . ثم إنه رجاني أن أحضر صبح
الغد لأجد المأذون عنده فيطلقك أمامي طليقة واحدة بائة لا يمكن معها
ردك إليه بغير رضاك . وعدت إليه في الموعد الذي ضربه فألقيت المأذون عنده
فأتم الطلاق كما قال ، ولما انصرف المأذون أعطاني قسيمة الطلاق لأوصلها
إليك وقال : أبلغها أنني عند رأيها ما حييت ، إن شاءت يوماً أن تعود إلى
عصمتي فهذا البيت بيتها ، وإن أرادت أن تتزوج بغيري فذلك شأنها
ولن أقصر في نفقة ولدينا ، كما تقدرها هي ، إلا أن يقعدني العجز عن أداؤها .
ثم إن صديقنا سلمني قسيمة الطلاق وقال : والآن فما رأيك يا سيدتي ؟ ! . .
فلم أملك نفسي بعد الذي سمعت منه وبعد أن أمسكت بقسيمة الطلاق في
يدي أن بكيت حتى علا بالبكاء صوتي . فلما عاودني بعض هدوئي : قلت :
أشكرك ، والآن عد أنت إلى القاهرة ، فإذا حدثتك نفسك يوماً أن تزورنا
كنت قد رويت في أمري ، فأخبرك بما يستقر عليه رأيي .

وانصرف الرجل وهو يقول : « أرجو لك من الله التوفيق والسداد ! . . » .
خلوت بعد انصرافه إلى نفسي فقرأت قسيمة الطلاق وأعدت قراءتها
وأخذت أفكر فيما يكون بعد أن بلغت غايتي ، على أنني سرعان ما سألت
نفسى : أين انتصر بهذا الطلاق ، أنا أم صديقتي ؟ لقد كنت أراها بيني وبين

زوجى . وهأنذى الآن نحيث نفسى فأصبحت وحدها معه ، فى ثيابها أو عارية كيوم ولدتها أمها ، ألا تعساً لها فاتنة الرجال ! نعم هى التى انتصرت . أما أنا فأصبحت وحيدة لا سند لى ، أعيش من نفقة هذين الولدين ومما اقتصدت . وهانت علىَّ عبرتى من جديد فأسلمت لعينى العنان ، وخشيت أن يحضر طفلاى وأن يريانى على هذه الحال فدخلت غرفة نومى وأوصدت بابها ، ودقت المربية الباب فناديتها من مضجعى : إبنى متعبة . وطلبت إليها أن تدعنى أستريح .

ولقد شعرت بنفسى متعبة مهتودة بالفعل ، ورأيت بعد قليل أتى عاجزة عن التفكير ، وكأن ذهنى خلا من كل ما يشغله ، وإن لم تطاوعنى أعصابى إلى الهدوء الذى أبتغيه ، فتناولت مسكناً أسرع بى إلى عالم النوم ! . .

استيقظت صباح الغد وأنا أحسن حالا مما كنت ، واستعدت حين صحت ما دار بينى وبين صديقنا من حديث منذ أسبوع . وذكرت ما رواه على لسان مطلقى من أنه لم يحب صديقتى ولا يحب غيرى ، فخف على العبء الذى أثقلنى أمس ، حين تصورت أن هذه المرأة انتصرت على بطلاقى من زوجى ، وشعرت بأن هذا الرجل المسكين قد أصبح بعد تطليقه إياى فى عزلة تامة ، لا يؤنسه أحد ، ولا يؤنسه ولداه وهما بالإسكندرية معى .

وخرجت من غرفتى ألقى الطفلين ، فلما قبلتهما ورأيتهما فى صحتهما ونضارتهما ازدددت هدوءاً وطمأنينة ، وذكرت صديقات لى مات أزواجهن وهن فى ريعان شبابهن وتركوا لهن صبية ضعافاً فكرسن حياتهن لأبنائهن ثم سعدن بهم إذ رأينهم يكبرون بعنايتهن ورعايتهن . أما وقد رزقنى الله هذين

الصبيين الجميلين فأى سعادة غيرهما أبغى ! إن واجبي أن أكرس لهما حياتى
ولا أفكر فى شئ سواهما لأراهما يكبران أمام ناظرى فيصبحان فتى وفتاة ملء
العين ، ثم رجلا وامرأة يحملان عبء الحياة بأحسن وأسعد مما حملته .

وسكنت نفسى إلى هذا الخاطر فضاغت عنايتى بالصبيين وشغلت
بإدخالهما المدرسة وعاهدت نفسى على أن أنقطع لهما ولمعاونتتهما فى دروسهما
وأن أنسى كل شئ فىهما ، ففى ذلك هناءتى وحسن أداء واجبى فى الحياة ،
وانقضت أيام وأنا على هذه الحال ، لا أكاد أفكر فى أيهما ، بل لا أكاد
أفكر فى نفسى ، مؤمنة بأنهما أصبحا كل شئ فى حياتى ، وبأن ما سواهما
لم تبق له أية صلة بى .

وكان لذلك أثره الحسن فى صحتى وطمأنينتى . أذكر إذ ذاك يوماً
جلست فيه إلى شاطئ البحر أرقب أمواجه ، ففرت بخيالى صورة مطلقى
وقد التقي بصديقتى ووقفا يتحدثان . لم تزعجنى الصورة قط بل هزرت كنى
وقلت فى نفسى : « ليس ذلك شأنى ، فهذا الرجل لم يبق زوجى ولم يبق
لى أن أحاسبه ، لقد أصبح بطلاق حراً كما أصبحت أنا بهذا الطلاق حرة ،
وكما أستطيع إن شئت أن أتزوج وأن أختار السيرة التى أرضاها فهو كذلك
حر فى أن يختار لون الحياة الذى يرضيه ، وهذه المرأة حرة هى الأخرى ،
إن صح أن التقيا يوماً فليفعلا ما يشاءان ، حسبى سعادة بالطفلين ، ولغيرى
أن يبحث عن سعادته كما يحب ويهوى » .

وبعد أسبوعين رأيت صديقنا يدخل عندى ويسألنى بعد أن بادلتنى
التحية . « أما فكرت من جديد فى استئناف حياتك مع زوجك . لقد

نقيته في المعادى منذ يومين فدعاني إليه وسألني : ألك في هذا الأمر رأى ؟
ولما قلت له إنني لم أرك منذ أعطيتك قسيمة الطلاق . رجائي في زيارتك
والتحدث إليك في الموضوع . وأدهشني هذا الكلام فقلت في حدة : « وهل
تراني كنت أعبت يوم طللت الطلاق . ذلك أمر لا رجعة فيه ولا محل
للحديث عنه » . قال : « الأمر في ذلك لك » . وقد توقع هو أنك ستجيبين
كما أجبت الآن . أما وقد صح تقديره فإنه يستأذنيك في أن يرى ولديه
ولا يشك لحظة في أنك تأدين . « وأجبت على الفور : « هذا حقّه ولن أحرمه
منه . لكن لي شرطاً واحداً ، ذلك ألا يراني ولا أراه ، فإذا فكر في المجيء
ليراهما فليخطرني بموعد حضوره ، وعند ذلك أدع له البيت ليلقى طفليه
فيه » ! . . قال صديقنا : « أنا أشكرك بلسانه . وسيحضر في الأسبوع المقبل
بأول قطار يغادر القاهرة يوم الجمعة ثم يعود إليها بآخر قطار في اليوم نفسه ! . . » .
وانتقل صديقنا بعد ذلك بالحديث يسألني ، وقد ذكرت له أنني لن
أستأنف حياتي الزوجية مع مطلقى ، عما اعترمت أن أفعل بعد انقضاء
عدتي . . ! قلت : « لا شيء . . كرسيت حياتي لهذين الطفلين اللذين رزقني
الله بهما ، وأكبرهما أرجو أن يساعدني على القيام بواجبهما على نحو يرضيني ،
ويطمئن له قلبي ! . . » قال صديقنا : « فليعاونك الله وليوفقك فيما تقصدين
إليه » ! . .

وفي يوم الجمعة الذى تلا هذا الحديث غادرت المنزل قبل موعد وصول
قطار القاهرة إلى الإسكندرية . وقلت للمربية ساعة خروجي : إنني سأتناول
غداً في الخارج ، وذكرت لها أن والد الطفلين سيحضر ليراهما فلتبق

معهما في البيت حين حضوره ، حتى تنقل إلى عند عودتي ما يدور بينه وبينهما من حديث . فلما عدت ساعة المغيب ذكرت لي أن الدكتور حضر بعد قليل من مغادرتي المنزل ، وأنه ما لبث حين رأى ولديه أن قبلهما وعانقهما طويلا وعيناه مغرورقتان ، وأنه دعاهما ودعاها للتزّه وتناول الغداء في مطعم على شاطئ البحر ، وأن الصبيين كانا سعيدين بأبيهما كل السعادة ، وأنهم قضوا جميعاً يوماً من أسعد الأيام وأمتعها ، وأنه عاد معهم إلى المنزل ، فلما حان موعد سفره ودع الصبيين في تقبيل وعناق تأثرت المربية لهما غاية التأثير ، ثم أعطاهما ساعة خروجه هدية قيمة هي ثلاث ساعات ذهبية ، فلما سألته المربية عن الساعة الثالثة لمن تكون قال إنها لأُمهما ، ثم وعد أن يزورنا في مثل مواعده بعد أسبوعين . وقالت له بنتنا : ولم لا تزورنا كل أسبوع يا والدي ؟ فأجابها بأنه يكون أسعد الناس بذلك إذا أذنت والدتك به . وأخذت الساعات الثلاث وقلبتها في يدي فإذا هي هدية قيمة بالفعل ، وإذا الساعة التي خصني بها أجملها وأقيمتها ، ولقد دهشت لهذا التصرف من جانبه ، فماله ومالي بعد أن طلقني نزولا على إرادتي ! أولو كان يميل إلى صديقتي ، أفما كانت أولى هي بهذه الهدية مني ؟ . إنها لم تتصر إذن على ، والموقف لا يزال في يدي .

وابتسمت لهذا الخاطر ، وجاء ولدائي قبل نومهما يقبلانني ويهديانني مساء الخير ، فلما قبلتهما وأذنت لهما بالانصراف إلى حجرة نومهما قالت ابنتي : « لم لا تأذين يا أماه لأبينا أن يزورنا كل أسبوع ، إنه ظريف ويحبنا ، لقد قضينا معه سحابة هذا النهار أسعد ما نكون ، ولعل هدية الساعات الثلاث

أعجبتك ؟ » ، فقبلتها من جديد وقلت لها : « اذهبي إلى مخدعك وسيكون لي في الأمر رأى » .

وشعرت لساعتي بأننا لن نستطيع أن نفصل حقاً وهذان الطفلان بيننا ، وإذا أردت أن أنفصل عنه انفصالا حاسماً فيجب أن ينسياه لكنهما لا يزالان في حاجة إليه ، على الأقل لنفقتهما ، وليس بمعقول أن أكلفه هذه النفقة وأن أحرمه رؤيتهما ، وليست أشك في أنه سينفق عليهما كل ما أطلب منه ولو أرهقه ذلك من أمره عمراً ! . .

وانقضى الأسبوعان وجاء الرجل من القاهرة يرى ولديه ، وقد تركت له البيت كما فعلت المرة الأولى ، فلما عدت إلى المنزل بعد انصرافه علمت أنه حمل إلى الولدين من الهدايا ما جعلهما يتصايحان ساعة دخولي ، يعرضان عليّ ما جاء به والدهما ، ويذكران كيف قضيا معه نهراً سعيداً ، وأعطتني المربية خطاباً منه فتحته فإذا فيه تحويل على البنك ، ورسالة يذكر فيها أنه آثر أن يحول هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة ، حتى لا يبعث إلى بتحويلات شهرية ، وأنه يرغب إلى أن أحبطه علماً متى نفذ هذا المبلغ ليبعث إليّ بتحويل جديد .

وأنار تصرفه هذا حيرتى . فأنأ أعلم من حاله المالية مالا أشك معه في أنه يستدين الكثير من هذه المبالغ التي يبعث بها إلينا ، سواء تحويله اليوم ، أو تحويله حين سفرنا إلى أوروبا ، أو تحويله الأول ، هذا إلى جانب ما يتفق لحياته الخاصة ، أفلا يحملنى ذلك على التفكير من جديد في الأمر حتى لا أشق عليه إلى هذا الحد ، ولا أحمله ما لا يطيق ؟ ! . .

وجاء صديقنا بعد أسبوع ، فذكرت له ما صنع . مطلقاً . ورجوته أن يبلغه أنني لا أريد إرهابه ، وأنى أفضل أن نتفق على مبلغ شهرى لنفقة الطفلين ، لأننى لا أقبل منه شيئاً لنفسى ، وأنا مصممة على ألا أعود إلى الحياة معه أبداً .

قال صديقنا : « أولاً تزالين تظنين أن له بصديقتك علاقة . أو أن له إليها ميلاً . أو أن شيئاً من ذلك كان ؟ . . . » .

قلت : « كلا . إنى مطمئنة الآن كل الاطمئنان من هذه الناحية وإن لم تعد تعينى . فلو أنه تزوج صديقتى غداً لما اهتز لذلك منى عصب ولا طرفت لى بسببه عين ! . . . » .

قال : « أما وقد زال ما كان قائماً بنفسك من هذه الناحية ، فما هذا التشبث السخيف بأن لا تعودى أنت ووالد ابنك سيرتكما الأولى ، فتجمعى بذلك أسرة تشتتين أنت اليوم شملها وتبديدين سعادتها وهناءها » ! . . .

لم أملك نفسى حين سمعت ذلك منه أن ثارت كبريائى ، فقد أصاب كلامه غزى بطعنة أهاجت كرامتى وبجرح أدمى نفسى فصحت به :

« أو تحسبنى طفلة غريبة لا تعرف ما تريد ! وهل تظننى حفلت يوماً بصديقتى إلى حد أثار غيبتى منها لعناية هذا الرجل بها ؟ . لقد كان الأمر بينى وبين زوجى أعمق من هذا . وإذا كنت قد حدثتك عنها وذكرت لك أنني أراها بينى وبينه فلاأنى لم أرد ولن أريد أن أكشف عن مستور نفسى وحقيقة سرى ، فأرجوك يا صديقى وألح عليك ألا تعود إلى الكلام معى فيما ذكرت اليوم ، فلا طاقة لى بسماعه من أحد ، ولا طاقة لى بسماعه منك أنت خاصة ! » .

لست أدري كيف أفلتت هذه الجملة الأخيرة من بين شفتي . فلو قد
حشيت بعد أن تلفظت بها أن يحملها صديقنا معنى بذاته ، فعدت إلى
هدوئي وقلت له : « إنني لواقفة بأنك أشد الناس حرصاً على شعوري وأكثر معرفة
بما تنطوي عليه نفسي إزاء هذا الرجل ، فلو أن غيرك قال ما قلت أنت لكان عليّ
سماعه . أما وأنت تعرفني حق المعرفة وتعلم أنني لا أصدر في تصرفاتي عن
طيش ولا عن نزق . فقد أثارني كلامك وجعلني أظنك تناسيت ما لا يجب
أن تنساه .

ورحنا بعد ذلك إلى الحسبي . وتناول كلامنا من الشئون ما لا شأن له بي .
فلما انصرف صديقنا حمدت ثورتي أن جعلت العود إلى هذا الموضوع
محالاً ! . . .

وتوالت الأسابيع ولشهور بعد ذلك وزادني تواليها اقتناعاً بأن المربية
أقدر مني على العناية بالطفلين ومعاونتهما على استذكار دروسهما . لذلك بدأت
أشعر بخلو حياتي وبدأ الملل يعاودني . . كيف أملاً إذن أوقات فراغي ؟ . .
لا شيء يستنفد الوقت ما تستنفده القراءة ! . لذا أكببت أقرأ ما لم أكن
قرأت من أمهات كتب الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وما ترجمه إلى
هذه اللغات من أمهات الأدب في غيرها من الأمم . وأعيد ما كان موضع
يعجالي مما قرأت من قبل . . وكثيراً ما كنت آخذ كتيب وأحس إلى شاطئ
البحر أستمع مقفلة لعينين في صريف أمواجه المتكسرة على شاطئ كما
يستمع المغني إلى ألحان الموسيقى قبل أن يبدأ أدوره . فإذا امتلأت أجنحة
لحيال فتحت كتيب وأخذت أقرأ فأستغرق في القراءة فتأخذي روائعها عن

كل ما حول من ضجة الحياة وأحس أنني اندمجت مع المؤلف ومع أفكاره ومع أبطاله ، وأصبحت في جوه هو ، وأصبح الجو من حول مسرحاً لهذه الأفكار ول هؤلاء الأبطال لا يعرف غيرها وغيرهم ولا يتحرك فيه شيء سواها وسواهم .

وطال بي ذلك زمناً استغرق أسابيع بل شهوراً . على أنى شعرت بعد هذا الزمن أنني في حاجة إلى أن أستجم وأستريح . وماكدت أقضى أياماً في راحتي واستجمامي حتى بدأ الشعور بالملال يعاودني . فكرت أنه لا بد من شيء آخر غير القراءة أطرده به هذا الملال وما يجره من سامة ، ودار بخاطري أن أستغني عن المربية وأن أقوم أنا بدورها ، لكنني أشفقت من هذه الأمانة وأبيت حملها بعد أن سبقت لي تجربتها ، واقتنعت بأن المربية أقدر مني على إجادتها . ماذا أصنع إذن لأملأ أوقات فراغي ؟

شغلت نفسي بما تشغل به كثيرات من الأمهات وقتهن فبدأت أطرز لطفلي بعض ملابسهما ، لكنني سرعان ما برمت بهذا العمل وألقيته جانباً . فهو يشغل اليدين ويترك الذهن في حيرة فراغه ، وهو بعد ليس الإنتاج الذي يليق بمثلي وقد تعودت أن أبتاع للطفلين هذا النوع من الملابس الجميل الذي لا يكلف باهظ النفقة . فأى شيء أصنع يليق بي ويملاً أوقات فراغي ؟ . بدأت أغبط هاتيك النسوة الفقيرات بائعات اللبن أو الخضراوات والعاملات في المزارع والمصانع أوفى المنازل ممن يستيقظن مع الفجر ليؤدين واجب الحياة ولا يشعرن بما أشعر به من ملال وسأم . وبدأت أغبط مربية أولادي إذ تنهض بعبء حياتهما وبتربيتهما وتعليمهما، وتولاني الأسف أن لم أتم دراستي

ليكون إتمامها في الموقف الدقيق الذى أقفه اليوم وسيلتى لعمل مثيرملاً فراغ
وقتي . فلست أنا من طراز هاتيك النسوة أمثال صديقتي ممن يستطيعن أن
يقضين نهارهن وجانباً غير قليل من ليلهن في التزين وفي فتنة الرجال استجداء
لعطفهم واستغلالاً بحمايتهم ، أما وذلك شأنى فما عساي أصنع لأملأ
أوقات فراغى ؟! . .

شغلت بهذا الأمر أيما شغل . وزادنى اشتغالا به ما أعلمه عن الناس
وألستهم الحداد يسلقون بها امرأة مثلى تعيش منفردة مع طفلين في حى ناء
من أحياء الإسكندرية . ولئن كانت أحاديث الناس لا تعينى فإننى مع ذلك
لجد حريصة على مكانتى وعلى سمعتى وعلى ألا يشمت الشامتون بى .
وجاء صديقنا يوماً فألفانى في هذه الحال القاتلة كاسفة البال ،
فسألنى : ما بى ؟ . .

قلت : لا شىء . قال : إن وجهك ينم عن شدة حيرتك وقلقك ، فهل
جد ما يزعجك ؟ . .

قلت : كلا ، ولكنه الفراغ يقتلنى ، لقد كنت قبل طلاقى أناصب زوجى
الخصومة وأناضل أوهاماً تقوم برأسى فكان لى من هذا النضال ما يشغل وقتى
كله ، أما اليوم فلم يبق لى في الحياة شاغل ، ولست أطيق هذا الفراغ فهو
يأخذ بخناقى ، دعك ما يتيح للناس من فرصة الثرثرة على والتندربى فذلك
لا يعنينى .

قال صديقنا : أما فكرت في العود إلى القاهرة تستأنفين فيها حياتك
الماضية . إن لك بها لأصدقاء يسرهم أن يروحوا عنك ويذهبوا ملالك وسأمتك .

ولو أنك عدت إليها لسرني أن أكون في مقدمة هؤلاء ! . .

قلت : لم تعد هذه الحياة تروقني ، لقد اتخذتها يوماً وسيلة لغاية هي أن أثير غيرة زوجي ليعود إلى حظيرتي ، أما أن أجعلها حياتي اليومية وأن أطلق بذلك ألسنة الناس في غير موجب ، فذلك حمق لا أرضاه .

قال صديقنا : لا أريد أن أحدثك من جديد في استئناف حياتك الزوجية الأولى بعد الذي سمعته منك في شأنها ، فلم لا تتزوجين رجلاً آخر تبينين معه بيتاً جديداً وحياة جديدة ؟ . .

فأطرقت طويلاً ثم قلت : ذلك أمر لم أفكر بعد فيه ، أنا بطبيعة الحال حرة في أن أفعل إن شئت ، لكنني . . لم أفكر في الأمر .

والواقع أن هذه الفكرة كانت قد بدأت بالفعل تداعبني ، وأني كنت أفكر بالفعل في صديقنا ، لكن اعتراضات قوية ردتني عن هذا التفكير : أولها ما دأبت صديقتي على إذاعته في جميع أوساطي قبل زمن طويل من طلاق من أتى أريد أن يطلقني زوجي لأتزوج من صديقنا ، فلو أن هذا الزواج تم اليوم لصدق الناس ما كانت تذيعه ، ولقال الناس في ما شاءت لهم أهواؤهم فصدقهم الأمر الواقع .

وثاني هذه الاعتبارات وأهمها في نظري أني أريد أن أنسى ولدى أباهما حتى يكون انفصالنا حاسماً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تنبأهما من أتوجه فتسميا باسمه ، وليس يسيراً أن يقبل رجل هذه التبعة أمام نفسه وأمام الناس .

ولما ذكرت لصديقنا أنني لم أفكر في أمر الزواج بعد قال : لعلك تفكرين فيه ثم نعود إلى تقليبه معاً ، وساعود من القاهرة في الأسبوع المقبل ! . .

مد' ترى أقول له يوم يعود ؟ قضيت طيلة الأسبوع ألتمس جواباً لهذا السؤال ولم أكن قد اهتمديت إلى جواب حين عاد . فلما فاتحنى فى الموضوع قلت له : لقد فكرت فى الأمر فلم يهدنى تفكيرى إلى رأى . فهل لى أن ألتمس هذا الرأى عندك ؟

فكث طويلا صامتاً ثم قال : لم أكن أحسب الأمر دقيقاً بهذا المقدار ؛ فلم يعهد الناس أن تقول سيدة إنها تريد أن تتزوج . وإنما عهدهم أن يخطب الرجل السيدة فتقبل أو تأبى .

قلت : أرايت ! . . هانتذا وضعت يدك على جوهر الأمر وله . أما ولم يخطنى حتى اليوم أحد إلى نفسه . فلا يجوز لى أن أفكر فيما أريد وما لا أريد وأضرق الرجل طويلا ثم رفع رأسه وقال : أصارك بأنتى لست راضياً عن هذه الحياة التى تحيينها . سواء رضيت بها أنت أم برمت بها . . فأجيبينى بصراحة . أترضينى زوجاً إذا أنا خطبتك إلى نفسى .

قلت : وما عسى أن تقول صديقتى يومئذ ؟ . . إننى منعتك من زواجها . وبذلت جهدى ليطلقنى زوجى حتى تتزوجنى .

قال : دعيك من صديقتك وما يمكن أن تقول . وإذا كان هذا كل اعتراضك فما أهونه . أنت اليوم امرأة حرة من عدة أشهر . فإذا تزوجت دل ذلك على أنك سيدة عاقلة . وأنتك تؤثرين الحياة الكريمة على هذه الحياة المذمومة التى تحياها صديقتك منذ سنين .

قلت : إذن فاسمع . إننى أرحب بخطبتك وأشكرك عليها إذا قبلت لى شرطاً لا أفكر فى أن أتزوج من لا يقبله . إننى أريد أن أحسم كل صلة بينى

وبين مطلقى ، ولا يكون ذلك ما بقى هذان الطفلان منسوبين له . فلا بد أن يتبناهما من أتزوجه وأن يتسميا باسمه . فإن قبلت أنت ذلك قبلت الزواج منك .

وجم الرجل وتولته الدهشة لهذا الذى طلبت إليه . وبعد أن فكر فى الأمر ملياً قال : لك ما تطلين ، فالأمر فى ذلك أمرك أنت ، وإذا وجه الناس فيه لوماً فسيوجهونه إليك ، على أننى أؤثر ألا نعجل فى ذلك . وألا نعجل فى إعلان زواجنا حتى لا يعرفه مطلقك ، فإذا انقضت على زواجنا بضعة أشهر انتقلت إلى بيتى بالقاهرة ، ودبرنا أمر الطفلين فى هذه الأثناء . عند ذلك أجبته : إذن فأنت وما تريد ! . .

ولم ينقض هذا المساء حتى كان قد أحضر المأذون فأطلعه على وثيقة الطلاق فعقد زواجنا ، وانتهت بذلك حيرتى وقلقى إذ أصبحت فى عصمة رجل أثق به وأطمئن إليه ، وله إلى ذلك الفضل فى أنه هو الذى عرض نفسه لينقذنى من هذه الحيرة وهذا القلق ، برغم ما يمكن أن يتهمه الناس به من أنه خان عهد الوفاء لصديقه ، وخفر ذمته وسلبه زوجته .

وعاد الرجل الغداة إلى القاهرة وكأن شيئاً لم يحدث ، وأخذ يتردد علينا كل أسبوع متحاشياً يوم يجيء مطلقى يرى فيه ولديه ، وانقضت الأيام والأسابيع والأشهر بعد ذلك وقد سكنت نفسى وهذا بالى واطمأنت إلى الحياة ولم يعد يشغلنى من أمرها إلا أن ندير كيف ننسب الطفلين إلى زوجى . ولم يكن تدبير هذا الأمر مستطاعاً قبل أن يعلم مطلقى بزواجنا ، وقبل أن نقطع صلته على وجه حاسم بنا .

وبقيت أتناول من مطلقى ما قرره لنا من نفقة حتى عدت إلى القاهرة .
وحتى علم بأننى تزوجت صديقنا ، هنالك جن جنونه وأيقن أننى لم أفسد
زواج صديقتى بصديقنا إلا لأتوجه أنا ، فأنا إذن كنت أحب الرجل الذى
تزوجته اليوم إذ كنت فى عصمته هو . وأنا لم أغاضبه ولم أناصبه العدواة إلا
لهذا السبب ، وأن صديقنا حرضنى على ذلك وأعاننى عليه ، كما حرضنى على
هجر بيت الزوجية والفرار إلى الإسكندرية . ولم يترك مطلقى وسطاً من الأوساط
التي يغشاها إلا طعن فيها على صديقنا أشد الطعن ، ورماه بالخيانة والغدر ،
وبكل منقصة تنكرها الرجولة وتأباها الكرامة ! . .

ولم يقف أمره عند هذا الحد ، إنه يعلم تعلقى بولدينا وحبى لهما حب العبادة ،
لا حب الأم ، لذا بعث إلى من يخبرنى أننى لم أعد أصلح للقيام عليهما
بعد أن تزوجت وأنه يطلب أن أسلمه إياهما بالحسنى ، وإلا قاضانى لضمهما
إليه . وطلبت إلى رسوله أن يبلغه أننى لا أزال أطمع منه فيما عودنيه من عطف
ونبل ، وألا يحرم الولدين من حنان أمهما وقد تعوداه ، وأننى سأبعث بهما
إليه يوماً من كل أسبوع يقضيان سحابة نهارهما عنده . وتوسلت إلى الرسول
كى يقف مدافعاً عني عند مطلقى وقلت له : « بالله عليك ! أكان يرضيك أن
أبقى بلا زوج فتكثر حالة الناس فيّ وتجرحنى بالباطل ! لقد نذرت نفسى
غداة طلاقى لهذين الطفلين أربيهما ثم لا أتزوج ما عاشا ، لكننى رأيت
نفسى بعد شهر عاجزة عن الوفاء بنذرى ، معرضة لما تتعرض له امرأة فى مثل
موقفى من سوء القالة وإثم الظن ، ولولا أن عرض صديقنا نفسه ليفتدبنى مما كنت
معرضة له لبقيت ينهشنى الناهشون ويدسون إلى قلبى سمومهم حتى أموت

كمداً . لكن هذا الرجل كان صديقاً لمطلقى قبل أن أعرفه . ثم كان مطلقى سبب التعارف بيننا وتوثيق صلتنا . إذ قدمه لى على أنه أكثر أصدقائه وفاء ومروءة . هذا الرجل أدرك حرج مركزى فقدم نفسه منقذاً لى فتشبت باليد التى مدها إلى إبقاء على سمعة طاهرة ما تعرضت يوماً لكلمة سوء . أليس حقاً على مطلقى أن يحمى هذا الصنيع ؟ أم يكون جزاء ولدى أن يحرمنا من حنان أمهما وأن يعيشا مع مريبتهما يتيمين ؟ . .

ناشدتك المروءة يا سيدى إلا ما رجعت إلى صاحبك وأقنعت به بأن ولدنا عندى أعز من عيني . بل أعز من حياتى . وأنى سأبقى مدينة له بهذه الحياة لقاء تركهما فى أحضان عنايتى . أنا أم يا سيدى فلا تكن على فى حرمانى من حبة قلبى . بل كن لى ولك شكرى وثنائى . وادع الله معى أن يوفقك فيما أرفع إليك أكف الضراعة فيه « ! . .

كانت نبرات صوتى فى أثناء هذا الحديث تصور ما ينبض به قلبى . وكنت فى ختامه قد رفعت كفى المرتعشتين ضارعة إلى رسول مطلقى ليكون عوفى . فلما أتممت كلامى ألقىت رأسى بين ذراعى أخفى دموعى التى انهملت وفصحها بكائى . . ثم رفعت رأسى فإذا الرجل كله التأثر يكاد يبكى لبكائى . فلما اسرجعنا بعض سكينتنا قال :

« ليتنى أستطيع فى الأمر شيئاً يا سيدنى . ولو أنك رأيت ثورة مطلقك لعذرتنى . ولو أننى عرفت قوة حجتك لما قبلت رسالته ! . . صحيح أنه حذرني من سحر حديثك . وحديثك ساحر لا ريب . . . ولست أدري والأمر ما أسمع وأرى كيف طابت نفسه بتطليقك . على أنه ذكر لى أنك لو كنت

تزوجت شخصاً غير هذا الذى خال عهدده . وأبعدك عنه لما ثار بك هذه الثورة . مع هذا سأكون رسولك إليه . كما كنت رسوله إليك ، وأرجو أن أوفق معه إلى ما يرضيك برغمه ما فى نورته من عناد وعنف ! . . . »

انصرف هذا الرسول ولم يعد إلى . وحسبت أنه وفق فى إقناع مطلقى بما أردت لأننى لم أسمع عن هذا الموضوع حديثاً أسابيع متعاقبة . بل لقد بعث إلى مطلقى بنفقة الطفلين بعد ذلك مما ثبت عندى الظن بأنه أجاب رغبتى . على أنى علمت أنه سافر بعد ذلك إلى الإسكندرية لغير سبب أفهمه . ولم أعن نفسى بالتماس العلة لهذا السفر ، ولم أتبع خطواته فيه ، ولم يدر بخاطرى أن له بحياتى هناك أية صفة . وكان من أثر سكوته الظاهر عني أن استراح ضميرى إذ قدرت أن أمر الطفلين انتهى إلى ما أريد . وإن اضطرنى ما حدث للتنازل عن المطالبة زوجى بأن يتبناها حتى لا يثور الأب من جديد . لإهدار أبوته فيعود إلى المطالبة بضمهما إليه .

وإنتى فى مخدعى ذات صباح بعد هذه الأسابيع إذ حمل إلى الخادم إعلاناً قال إن أحد المحضرين جاء به واستمضاه على أصله . وقرأت الإعلان فإذا هو من مطلقى يطلبنى به أمام المحكمة الشرعية لسماع الحكم بضم ولديه إليه . لأننى تزوجت وأصبحت لا أؤمن عليهما . . عند ذلك طاش صوابى وخيل إلى أن النزاع الصييين منى معناه انتزاع حياتى من بين جنبي ، ولعلت الساعة التى قبلت فيها أن أتزوج من صديقنا . وحسبت أنى إذا انفصلت عنه بالطلاق حلت هذه العقدة واستبقيت ولدى فى أحضانى . . لكن ماذا يقول الناس يومئذ عني ؟ وبالشماتة صديقتى إن حدث مثل هذا الأمر . إنها يومئذ

لتدق الطبول وتقيم الأفراح وتنادى بأن القدر انتقم لها من مؤامرتي عليها .
رباه ماذا أفعل وأى سبيل أسلك ؟!

وإني لنى حيرت إذ أقبل صديقنا - زوجى - فنأولته الإعلان فقرأه ثم رده
إلى ، وبعد هنيهة قال : « ياله من دنى ! . . أياحسب قاضياً يحكم بما يطلب
ليقيم الطفلان فى بيت لا يرعاها فيه أحد ؟! سأؤكل عنك أروع المحامين
الشرعيين يسلقونه فى المحكمة بالسنتهم الحداد ولا يدعون له أديماً صحيحاً
حتى يمزقه إرباً إرباً ، وسيعلم يوم يحكم القضاء برفض دعواه ومضاعفة نفقة
الطفلين أنه اختار أسوأ ميدان يمكن أن ينازلك فيه ! . . » .

وبعد الظهر أخذ الإعلان وذهب به إلى محام شرعى من أصدقائه وكله
عنى ، ويومئذ أيقنت أنى عدت مع مطلقى إلى خصومة لا تنفع فيها مغاضبة
ولا ملاينة ، لأنها انتقلت إلى عناد عنيف بين زوجى القديم وزوجى الجديد .
ولم يخطئ ظنى ، فقد شغل زوجى بهذه المسألة إلى غير حد ، حتى لقد
كان يذهب إلى المحامى بعد الظهر من كل يوم ، ثم يحىء إلى يقص ما دار
بينهما ويذكر أن المحامى واثق من كسب الدعوى لا محالة .

مع هذا كانت المخاوف تساورنى ، أو لوقضى لمطلقى بضم ولديه فإذا
عسأى أفعل ؟ . . أو سلمهما له فى بسر وإذعان لأننى إن لم أفعل تسلمهما
بقوة القانون ؟ . . لكن حياى تصبح بعد ذلك جحماً لا يطاق ، ويعلم الله
بعد ذلك ما يكون بينى وبين زوجى فى حياتنا الحاضرة ! . .

وبدأت أعصابى تضطرب لكثرة تفكيرى فى هذا الأمر ، وأدى ذلك بى
إلى صنع ما كنت أسخر منه حين يصنعه غيرى ، بدأت أزور الذين يقرأون

الكف وينظرون في فنجان القهوة لعلهم يطمئنوني على مصير الولدين .
وقيل لي إن شيخاً من أولى البركة يستطيع بتعاويذه أن يكفل لي كسب قضيتي
فذهبت إليه من غير أن أعلم زوجي ، وكنت كلما رأيت الطفلين أمامي بكيت
كأنما أصبحا يتيمن ، وكنت أختلف مع زوجي وأغاضبه لسبب ولغير سبب ،
وكان هو يدرك علة اضطرابي وما أنا فيه فلا يغضبه غضبي بل يبذل كل جهده
ليهن علي الأمر ويرد إلي الطمأنينة .

وتأجلت القضية غير مرة بطلب محامي ، ثم جاءت جلسة المرافعة فيها
فأردت حضورها ، فألح علي زوجي ألا أفعل مخافة أن تصدرني كلمة من
غير قصد تكون سبباً في ضياع حقنا ، وترافع المحاميان في الدعوى ، وقالوا في ،
وفي زوجي ، وفي مطلق ما قال مالك في الخمر . وحجزت القضية بعد ذلك
أسبوعاً للحكم فازددت اضطراباً . لقد أفهمني زوجي أن دعوى مطلق
سترفض في الجلسة وفي وجهه ، فما هذا التأجيل ! .

وقضيت الأسبوع كاسفة البال كثيرة التفكير ، فلن يتغير شيء في حياتي
إذا رفضت المحكمة طلب مطلق . أما إذا حكمت له فالويل لي !

وجاء موعد النطق بالحكم فإذا هو يقضي بضم الولدين إلي أبيهما . وقعت
الواقعة إذن وأقر القضاء ما وجه إلي وإلى زوجي من مطاعن . قال زوجي
حين رأى جزعي وبكائي : « لا تجزعي فسنستأنف الحكم . وأمل المحامي في
الاستئناف كبير » ! . . قلت : « وقد كان أمله كبيراً عندما تسلم الإعلان
الأول ، وها نحن أولاء خسرنا القضية في الجولة الأولى ، ولا أريد بحال أن
نغامر أمام الاستئناف فنخسرها مرة أخرى ، إنني أريد أن أرى مطلق

بفسى ، وأنا واثقة من مروءته وطيبة قلبه . . قال : « الأمر لك . فاصنعى ما تشائين ! لكن الاستئناف يجب أن يرفع بعد أن أصبحت أنا هدفاً لمطاعن لا يمكن أن أقبلها » ! . .

وأعلننى مطلئى بالحكم . وكان مشمولاً بالنفاذ المعجل . وقال فى الإعلان : إننى إن لم أسلمه الطفلىن لضمهما إليه فستخذ إجراءات التنفيذ . قلت فى نفسى : أصبح الأمر يقتضى الحكمة وحسن الحيلة ! وهبنى ذهبت إليه بنمسى فأبى أن يقابلنى ، أو قابلنى فى جفاء وأصر على تنفيذ الحكم ! أليس خيراً أن أبعث إليه رسوله الذى خاطبنى فى أمر الولدين ، والذى تأثر بحديثى وكاد يبكى لبكائى ؟!

وبعثت إلى هذا الرسول أرجوه مقابلتى ، فلما حضر عندى قلت له : « لقد حسبت سفارتك عنى أقنعت مطلئى بالعدول عن ضم ولديه ، وهما هو ذا قاضانى فى أمرهما ، وحكم له القضاء بضمهما ورضيت بذلك كرامته . أفأطمع منك مرة أخرى فى المرافعة عنده نيابة عنى ؟ أرجوك أن تؤكد له أننى لم أكن أريد السير فى مخاصمته ، وأن زوجى هو الذى اندفع فوكل محامياً عنى لأن عريضة الدعوى مسته فى كرامته وإيائه . وأن تذكر له أننى طوع إرادته فى كل ما يريد إذا هو ترك الطفلىن يكبران بعينى فى رعايتى وحنانى . إنه يعلم أنه قاتلى لا محالة إذا انتزعهما منى . فإذا قدرلى أن أعيش قضيت ما بقى من أيامى شقية بائسة ، فإن أرضى ذلك مروءته ورحمته وما عودنى طول حياتى معه من بر وعطف فذلك شأنه وذنبى فى رقبته . وإن غلبه ما أعرف من بره فترك لى الطفلىن ، فأنا رهن إشارته ، إن شاء أن يطلقنى زوجى فله

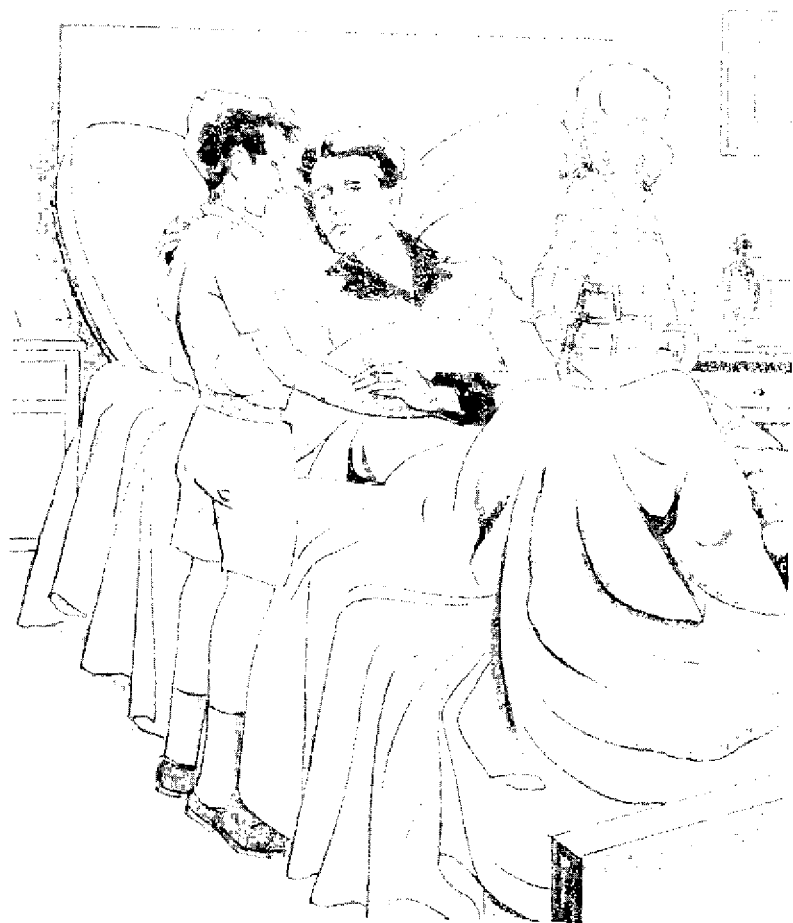


Illustration of a woman sitting on a sofa, with a young girl standing beside her and another woman standing behind her.

ما يشاء . وإن أراد أن أحجر القاهرة إلى أى مكان يختاره فأنا طوع إرادته .
إننى أقبل كل شئ ما بقى الولدان فى أحضان عنايتى وحنانى . إننى أم يا سيدى
فارحموا أمومتى . ارحموا هذه العاطفة التى أودع الله تكويننا معشر الأمهات
وجعل منها نور أعيننا وسبب حياتنا . ارحموني فأنتى اليوم على حافة اليأس .
فإن تفعلوا شكرتكم . أو يكون قضاء الله بينى وبينكم » ! . .

وإنى لأحدثه وعيناي تسحان بالدمع إذا الصبيان يدخلان علينا
ولا يكادان يريان ما أنا فيه حتى يرتعيان على يبكيان وهما يقولان : « نحن
فداؤك يا أماه » . وبكى الرسول لبكائنا . فلما هدأت ثورتنا قال : « لك على
أن أكون عند مطلقك رسول هذين الصبيين قبل أن أكون رسول أمهما .
فإذا أحوج الأمر فسأطلب إليه أن يدعوها ليسألها أبقيان معك أوعيشان
معه . والله يوفقنى لما يرضاه وترضينه يا سيدتى » ! . .

وانصرف الرجل بعد أن شكرته فى توسل تنطق به دموعى أبلغ مما ينطق
به لسانى . ولم يبطئ الرجل على غير ثلاثة أيام ثم عاد إلى مهمل الوجه يقول :
« بشراك يا سيدتى ! لقد نجحت سفارتى عنك كل النجاح » . ثم أخرج
الرجل من جيبه ورقة دفعها إلى وقال : « وهذا هو الحكم الذى صدر لمطلقك
بضم ولديه إليه وقد كتب عليه بخطه وتوقيعه بالتنازل عنه لمصلحتك وبقبوله
إبقاء الصبيين فى رعايتك . »

ولقد كدت أطيّر فرحاً حين تناولت منه صورة الحكم وقرأت تنازل مطلقى
عليها . وكدت لولا الحياء أن أقبل الرسول . ثم إننى شكرته من أعماق قلبى
وسألته : « وفيم كان انقطاعك عنى كل هذه الأيام الثلاثة ؟ أترى مطلقى لم

يقتنع لأول ما حدثته ؟ » وتردد الرجل وطلب منى إعفائه من الجواب عن سؤالى . فزادنى ذلك شوقاً لمعرفة ما كان وإلحاحاً فى السؤال عنه . فكان جوابه : « لم يكن انقطاعى هذه الأيام الثلاثة . لأن الدكتور أبى أو تردد منذ اليوم الأول . فقد ذكرت له رسالتك بكلماتها فذرفت عيناه الدمع وقال : « مسكينة هذه المرأة ! لولا غرورها وغيبتها لما جرّت على نفسها وعلى ولدينا كل هذا البلاء . هـى تعلم ، أننى أحببتها ولا أزال أحبها . لكنها لم تطق إلى جانب محبتي إياها أى عاطفة من جانبي لغيرها . ولا عاطفة الصداقة . ولا عاطفة اللزوة . وإننى ليعز على أن تتألم وأن أكون أنا سبب ألمها . ولست أريد منها شيئاً قط . لتبق مع زوجها الخائن ليمتعها الله بحياتها وحياته . وتحفظ بالولدين فلن أحرمها منهما وأنا أعلم أنها من دونهما لن تطيق الحياة . ومد مطلقك يده إلى مكتبه يريد أن يخرج الحكم منه ليكتب عليه بالتنازل . وإنه ليجر درج المكتب إذ دخلت علينا صديقتك ورأيتنى . وإذ كانت قد سمعت حديثي إليه دفاعاً عنك قبل أن يرفع الدعوى فقد أدركت أننى جئت إليه بسفارة منك . لذلك صاحت به وبى : « ماذا تفعلان ؟ ! » . . وقص عليها مطلقك ما رويت له من حديثك فقالت : « يا للفاجرة ؟ ! » . أفنسيت ما صنعت معك كل هذه السنين ؟ لقد غاضبتك برغم إكرامك إياها لغير شئ إلا لغيرتها منى غيرة حمقاء . وقد فرت منك إلى الإسكندرية . فلما أردتها على أن ترجع إليك أبت منك هذه الكرامة . مع ذلك بالغت أنت فى إكرامها وبعثت بها وبولديها إلى أوروبا . وأرادت المصادفة أن أكون وإياها على باخرة واحدة . ولو أنك رأيتهما إذ ذاك وكيف أدت بها الغيرة إلى حديث

السوء عني مع مسافرة فرنسية كانت معنا ونقلت إلى أقوالها لأيقنت أنها أصيبت في عقلها ! فقد أنكرت أنها صديقتي وذكرت لهذه الفرنسية أن أصدقاني يسمونني (الأرملة الطروب) . فلما عادت لم تعرّف لك بالفضل . بل ألحت عليك في أن تطلقها . فلما طلقها تزوجت هذا الوغد الذي خانك وخنز دمة صداقتك . أهى هذه المرأة التي لا زال حبا يسيل دموعك . وينيلها كل برك وعطفك ؟ ! . » .

واستطرد الرسول بعد ذلك يقول : « هنالك رد مطلقك درج مكتبه وأقفله وقال : « بالله عليك يا أخى إلا ما تركننى أفكر في الأمر سحابة هذه الليلة ! . . » فلما عدت إليه الغداة ألفت صديقتك عنده . وقد أخذت لدخول عليهما وظهر عليهما بعض الارتباك دليلا على أنها كانت تتكلم في موضوعنا . عند ذلك قلت موجهاً الكلام إليها . وكأنها معى في الحجرة وحدها . . « حنانيك يا سيدتى ورفقا بهذين الصغيرين ! . . إنك أم وتقدرين حاجة الصغير إلى حنان أمه . إننى لا أخاطب الدكتور باسم مطلقته . وإنما أخاطبه باسم ولديه . باسم هذين العصفورين اللذين لا يزالان في حاجة إلى دفء هذا الصدر وعطفه . صدر الأم الحنون التي ترى فيهما روحها وحياتها . فكرى في الأمر يا سيدتى من هذه الناحية وانسى المرأة التي تكون قد أساءتك . انسى غريمك التي أثرت غيرتها وأثارت غيرتك واذكرى أبناءك أنت ! أفتطيقين أن يحرموا من حنانك ثم تطمئين عليهم . واسمحي لى بعبارة قد ترينها قاسية : أولو خيرت لا قدر الله بين أن تفقدى جمالك هذا الفاتن أو تفقدى أبناءك فأى النكبتين تختارين ؟ . . أرجوك يا سيدتى أن

تكوني مع الصغيرين لا عليهما فهما لم يسيئا إليك إن كانت قد بدرت من
أمرهما إليك مساء . . . ثم إنني ترحمت بالكلام إلى مطلقك وقت له :
« وأنت يا صديقي ! أوسع رحمتك أم يسع عدلك أن يتحمل هذان
الصغيران وزر صديقتك وحياتك عهدك ! إنك لن تستطيع أن تقطع هما
وعملك يتغل بهارك وبعض ليلك . وليس لك أم تحنو عليهما حنو أمهما ،
وقد أنصفت القضاء وحكم لك . وهذه مطلقتك لا تطمع إلا في مروءتك
وكرمك ونبلك . أفتردني إلى الصغيرين وإليها خائبا ؟ حاشاك أن تفعل ! » .
ففضرت إلى صديقتك ، ملء عينيها اللغائتين وقالت : « ما أرى إلا أن
حديث هذه المرأة سحرك كما سحر غيرك . وقد أدليت بحجتي وأدليت أنت
بحجتك . فلنصرف بسلام ولنترك الأمر لصاحبه . »

قال مطلقك : « فعد إلى يا أخي عدا تناول الغداء معا . وعندها أقول
لك كلمتي الحاسمة ! . . » وانصرفت وانصرفت صديقتك ، فلما دخلت
عليه في موعد الطعام سلمني صورة الحكم وعليها تنازله كما سلمتك إياها .
فلما قرأتها وشكرته قال : « لا حيلة لي في ذلك يا صديقي ، فأنا لا أملك
إغضابها وأنا لا أزال أحبها . وبدلك انتهى الكلام بيننا في هذا الأمر ! » .

فلما أتم الرسول حديثه قلب له : « إنني أكرر شكرى لك يا سيدى من
أعماق قلبي ، ولست أدري كيف أستطيع أن أجزيك بما صنعت ، فאלله
يتولى جزاءك » .

وودعت الرجل إلى الباب حين انصرافه أكرره عبارات الشكر . فوقف
قبل أن يتخطى إلى الخارج وقال : « لا تشكريني يا سيدتى بل اشكرى

مطلقك . اشكرى هذا الرجل ذا القلب الكبير الذى لا يعرف الحقد ولا القسوة . ولو اعتقدت أنك تستطيعين لأشرت بأن تذهبي إليه بنفسك وتبدلى له خالص الشكر على سمو نفسه وعظيم مروءته .»

وفاض بى السرور حين رأيت نفسى وحيدة فى غرقى فارتفع صوتى بالغناء ، وإننى لكذلك إذ دخل على زوجى فجأة وسألنى ما لى ؟ فأعطيته صورة الحكم فقراً التنازل الذى عليها ثم قال : « لم يبق إذن للاستئناف موضع ، ولم يعد فى مقدورى أن أنتقم من هذا الرجل الذى أساء إلى بلسان محاميه شراً سوءاً ! » . قلت : « لا عليك يا عزيزى ، لقد كسبنا الدعوى من غير أن نستأنفها والخاسر اليوم هما المحاميان ، فلم يبق لمحامينا أن يمزق أديم مطلقى ، ولم يبق لمحاميه أن يمزق أديمنا ، فكفانا ما كان من ذلك أمام المحكمة الابتدائية . ولنحتفل اليوم بأن الولدين ظلا فى أحضاننا ، فالיום عندنا هو خير عيد مر بى فى حياتى . »

وأسلمت نفسى بعد هذا اليوم إلى فيض من الغبطة أعتاض به عن قسوة الأيام التى مرت بى منذ بدأ الحديث فى فصل ولدى عنى ، وكذلك خلا بالى وغمرتنى من الحياة نعمة أنستنى كل ما مر بى من متاعها ، وما أيسر ما ينسى الإنسان البأساء والضراء إذا مسته نعمة لم يكن يتوقعها ! . .

وأقبل الصبيان فأخذت أقبلهما كأنهما كانا فى سفر طويل ثم عادا اليوم منه ، أو كما كنت فقدتهما ثم لقيتهما ، وشعر الصبيان ، برغم عبرات جادت بها عينائى ، أننى فرحة مستبشرة فغمرانى بقبلاتهما وأمسكا بيدي يعثنان فى نشوة وطرب ، ويدعوانى بأعذب الأسماء التى تمر بخاطرهما .

وكذلك عمت البيت كله نشوة لم تكن المربية أقلنا غبطة بها واشتراكاً فيها .
ومرت الأيام وهذه الغبطة تملأ البيت بشراً وجبوراً ، وأنا لا أفكر في
شيء إلا فيما غمرنا من نعمة الرضا ، وأنحسب أن أيام الهموم قد ابتلعها اليم في
جوفه ، وأن المستقبل كله سيكون معطراً بشذا السعادة ، بعد أن بدأت
أزاهيره تتفتح عن الأمل الباسم .

الفضل التاسع

لم يكن لى بد من أن أشكر مطلقى على ما أسدى إلى من يد وضوق عنى به من كريم مروهته ونبله . ولم أكن أستطيع أن أذهب إليه بنفسى وأنا فى عصمة صديقنا ، وأنا معرضة إن فعلت أن ألقى عنده صديقتى فأضططر للفرار من وجهها فلا يحمد الرجل أدبى وأنا لا أملك فى هذه الحال إلا الفرار . لهذا رأيت أن يكون ولدانا رسولى إليه عنى وعن نفسيهما . فلما كان الموعد الذى يذهبان إليه فيه كل أسبوع علمت ابنتى ما تقول لأبيها وجعلتها تكرره حتى حفظته عن ظهر قلبها . فلما عاد الصبيان من عند أبيهما ذكرت لى ابنتى أن أباهما بلغ منه التأثير غاية حين قبلت يده وقالت له : « إن والدتى تشكر لك برك ومروءتك من أعماق قلبها . . وأنه ازداد تأثراً حين قبلت هى وقبل أخوها يديه وقالوا له معاً : « ونحن كلانا نشكر حنانك وعطفك ! . » فقد أجلسهما عند ذلك إلى جانبه وأوسعهما تقبيلاً ولم يستطع وعبراته تنهمل من عينيه أن يقول كلمة واحدة .

تعاقت الأيام بعد ذلك وأنا فى غبطة بما ظفرت به من بقاء طفلى فى كنفى وتحت جناحى . فلقد كنت أراهما نهارى . فإذا جاء موعد نومهما ذهبت إلى غرفتهما أتحمسهما بيدى أريد أن أطمئن أطمئناً

مادياً إلى أنهما بجانب وتحت سقفي ، كأنما كنت أخشى أن يختطفهما
أثم فيحرمني متاع عيشي وموجب حياتي .

وفعل الزمن فعله فهدأت بمرور الأسابيع نفسي وعدت سابق سيرتي .
لكن الزمن لا يرضيه أن يبقى مطمئن في طمأنيته ولا سعيد في سعادته .
فقد عاد الصبيان من عند أبيهما يوماً فذكرا أنهما رأيا هناك صديقتي ومعها
كبرى بناتها ، وأنها نظرت إليهما وقالت - توجه الكلام إلى أبيهما : « ما شاء
الله ! . . لقد كبر الصبيان وترعرا » ! . . لقد انتفض جسمي كله حين
سمعت ما ذكرا ، أكان ذلك لأنني خشيت أن تحسدهما عيناها الجميلتان ،
أم أن وجودها مع ابنتها عند مطلقي أثار نفسي وحرك ما كاد يندمل من شجوني؟..
لست أدري ، لكن عاطفة الشكر لمطلقي بدأت من هذه اللحظة تضطرب في
نفسي ، وبدأت أشعربأنني لم أخلق لأكون يوماً على وفاق معه .

وأخذ ذهني يفيق من السبات المسعد الذي كان قد استراح إليه ،
وجعلني أستعيد ماضي حياتنا وآخر أحاديثه غني للرسول الذي كان سفيره
إلى وسفيري إليه . . ولقد وقفت عند كلمة قالها لهذا الرسول وقالها من قبل
ذلك لي ، إنه لولا غروري وغيرتي لما جررت عليه وعلى نفسي وعلى ولدنا
ما أصابنا من المتاعب ، وإنه مع ذلك لا يزال يحبني ولن يحب غيري .
وابتسمت حين استعدت هذه العبارة وخيل إلى أنه لولا هذا الغرور وهذه
الغيرة لما أحبنى ولما ظل متشبهاً بحبي برغم ما أذقته من أهوال . لكن ابتسامتي
لم تلبث على شفتي غير لحظة ثم تلاشت ، لأن طيف صديقتي تعرض
أمامي وكأنها تقول : « لا تخدعي نفسك ، فما يدور بخاطرك الساعة

ليس إلا أثراً من آثار غرورك وغيرتك ! . . » وأزعجنى هذا الطائف ودفعنى لأن أسأله : « إذا كان مطلق لا يزال يحبني وإن لم أحبه فما تردد هذه المرأة عليه ؟ وما استماعه لها حتى كاد يتردد في إجابة مطلبي بقاء ولدى في كني ورعايتي ؟ ! » .

واضطربت في نفسي عاطفة الشكر لمطلق حتى بلغ من اضطرابها أن عدت ألن يوم تزوجنا ، وأسأل نفسي كيف استطعت حينذاك أن أحبه ، وكيف استطعت أن أعيش معه السنين التي عشناها جنباً إلى جنب ، ولم يكن قد جد ما يحرك هذا الشعور عندي إلا إحساس بأنه يخذلني حين يذكر أنه لا يزال يحبني وإن كنت لا أحبه . فلو كان ما يقوله صحيحاً لأقصى عنه صديقتي ولما سمح لها بزيارته منفردة أو مع ابنتها ، ولا سمح لها بأن تتدخل في أخص شئونه . لعل كنت ظالمة ، أو على الأقل كنت مبالغة في ثورتي هذه برجل أحسن إلي ولا يزال يظهر لي خالص الود بإحسان معاملته ولديه ، ولعل كنت يومئذ لا أجد جواباً إذا سألتني سائل : وماذا تقولين إذا تزوج مطلقك صديقتك كما تزوجت أنت صديقه ؟ وهلا يكون يومئذ قد جزاك أعدل جزاء ؟ بل لقد كان حقاً أن أذكر أنا ذلك وإن لم يسألني عنه أحد ، لكنني لم أفعل ، وبقي طيف صديقتي يتبدى الحين بعد الحين أمامي ليزيد ثورتي احتداماً ويزيدني حقاً على الرجل ومقتله وغضباً منه ! . .

على أنني لم أكن أستطيع أن أجاهر بثورتي هذه أو أبرزها في الخارج أثراً ، وهل تراني كنت أستطيع حجب ولديه عنه إعلاناً لغضبي ؟ إنه لم

يقصر قط في حقهما . فلو أننى فعلت لآتهمنى الناس جميعاً بالجحود وإنكار الجميل ، ولم يبق بينى وبينه غير الولدين . فلا أكنم إذن حفيظتى في قلبى حتى إذا حانت فرصة لإظهار هذه الحفيظة من غير أن يلومنى الناس لم أتركها وانتزتها .

لقد كنت أعلم أنه عسير أن تحين هذه الفرصة ، فلم يكن الرجل يقصر في حق الولدين ولا في نفقتهما . وكانا كلما ذهبا إليه أغدق عليهما من فيض حنانه وبره ما يجعلهما يعودان إلى ولساناهما يلهجان بالثناء عليه ومحبته ، فلا بد لى من أن أصبر ، والصبر وحده يحسم الأحداث والنوب ! ..

وتراخت الشهور يتلو بعضها بعضاً وتكاد نفسى تضيق بها ، وإننى لكذلك إذ عاد ولداى يوماً من عند أبيهما متجهمين وفي أعينهما أثر البكاء ! .. قلت : « ما بكما ؟ » قالا : « إن أبانا مريض اشتدت به الحمى ولم نستطع المكث معه إلا قليلا ، ولم نستطع مغادرة بيته قبل الموعد الذى تعودنا أن نغادره فيه ! .. » وخيل إلى أن هذه فرصة سنحت لمنعهما من الذهاب إليه محافظة على صحتهما حتى لا تمتد إليهما العدوى منه ، وجاء زوجى فذكرت له ما مرّ بخاطرى فقال : « ليس هذا من حقلك إلا أن يمنع الطبيب دخولهما عنده . لقد أكرمك الرجل فلا تشقى عليه في عنته ، وسأستفهم عن الطبيب الذى يعالجه حتى نستطيع تتبع أخباره ، والله أرجو من كل قلبى أن يتم شفاؤه ! .. » وبدأت على الدهشة لما قال فأردف : « إننا يا عزيزى عرضة كلنا للسقم وللعجز والموت ! وليس يشمت بإنسان في هذه الحالات

إلا نذل وضع ! . . وقد كان مطلقك زوجك كما كان صديق ! . .
وإذا جاز لنا أن نخاصمه وهو في صحته فأقل ما توجهه المروءة علينا أن نتألم
لحالته وهو في علته وأن نرجوله الشفاء . .

وأطرقت لسماعه وتولاني العجب أن تصدر عنه هذه العبارات بعد
الذي عرف من اتهام مطلقى إياه بخيانة العهد وخفر ذمة المروءة ، وبعد أن
كان حريصاً على أن يستأنف الحكم الذى صدر لمصلحة مطلقى ليتنقم لنفسه
منه في مرافعة محاميه .

عند ذلك أيقنت أن في بعض النفوس الإنسانية عنصراً يسمو على
الحقد ساعة عسرة الصديق ، وأن للصدقة قدسية لا يكفر بها إلا الجاحدون ! .
وأخبرنى زوجي الغداة أنه عرف الطبيب المعالج الذى يتولى العناية
بمطلقى ، وأنه سأل عن حاله فقال له إن ما به من حمى لا يمكن تبين نوعه
قبل بضعة أيام وقبل التحليل ، ولما سأل : أتجوز زيارته ؟ طلب إليه أن
ينظروا خمسة أيام ثم يبدى فى الأمر رأياً ، وفى حتام الأيام الخمسة قال إنه
لا يرى بأساً بالمرارة على ألا تطول . ونهت المربية إلى ذلك وقلت لها إنها
إن استطاعت أن يبقى الولدان لا يدخلان على أبيهما حتى يحىء الطبيب
فيدخلان معه كان ذلك خيراً . وفذت المربية ما ذكرت ثم عادت مع
الولدين لموعد الغداء فأخبرتني بأنها تأثرت أشد التأثر حين رأت مطلقى وقد
هذه الممرض وأضنته لحمى .

وبعد أيام دق الثأنين وأخبرنى المليونير أنه يريد أن يراى ، وجاءنى
في الموعد الذى ضرته له وأخبرنى أن مطلقى دعاه إلى سرير مرضه وطلب

إليه أن يدفع إلى نفقة الولدين ، وأضاف أنه يخشى على حياة الرجل من هذا المرض . فلما رأى المليونير صامته قال : « ولست أدرى إذا أصابه المقدار كيف أقتضى ديني ، لقد باع كل ما يملك جزءاً بعد جزء ، وقد أصبح مستغرقاً ، ولولا مرضه ، ولولا أن ما طلب إليّ أن أدفعه اليوم يتعلق بنفقة طفلين بريئين ، لما قبلت أن أدفع عنه شيئاً إلا أن يجيئني بضمان ملىء يتضامن معه في سداد ديونه » . وسكت بعد ذلك هنيهة ثم قال : « أوتقبلين يا سيدتي أن تضمينه أويضمنه زوجك ولك ما تشائين ؟ » .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وقلت له : « ليتك لم تقبل يا سيدتي دفع نفقة الطفلين اليوم لتأخذ مقابلها ضمان تضامن مع مطلق ، وأنا أعفيك من دفع هذه النفقة إن شئت » . .

قال الرجل : « لقد أسأت فهمي يا سيدتي ، إنما أردت أن تتصل العلاقة بيني وبينك ، إذا حم القضاء في هذا الرجل المريض » ! . . . قلت : « شفاه الله يا سيدتي ولا أحوجك أن تتصل هذه العلاقة ، وما أحسب مرضه من الخطورة بما ترى » ! . . .

وانصرف الرجل بعد أن دفع نفقة الولدين ، كما أراد مطلق ، فلما جاء زوجي وأخبرته بما حدث وأظهرت العجب له ، وبخاصة بعد الذي كان يبيده المليونير من محبة لمطلق وإخلاص لصداقته ، قال : « لا تعجبي . . إن رجال المال هؤلاء لا يخلصون لشيء غير المال ، ولا يؤمنون بشيء غيره . . هو دينهم وعبادتهم بعد أن بذلوا للحصول عليه ما يأنف الرجل الكريم من بذله . . ولو أن مطلقك مات ، لا قدر الله ، لرأيت هذا الرجل

يظهر أمامك وفي يده من الوثائق التي احتاط بها لنفسه ما لا يدور بخاطرك .
وهو إذ طلب ضمانك أو ضماني إنما أراد مزيداً من الاحتياط . . ولعله هو
الذي اشترى ما كان يملك مطلقاً أو أكثره . هذا إذا لم يكن قد ارتنهه
قبل بيعه لديونه ، وحسناً فعلت إذ رفضت ما طلبه منك حتى لا يكون تردده
علينا من بعد مثار شبهة . أيسر معانيها أننا مدينون له . وخير عندي أن يبيع
الإنسان بعض ملكه من أن يستدين من هذا الرجل . . »

لم يعنى أمر المليونير بعد أن رفضت طلبه ، وإنما عناني ما ذكره
من أن مطلقاً باع ما يملك جزءاً بعد جزء . أترى اضطره لذلك ما أنفقه
في أسفاري ، ولإصلاح البيت الذي كنا نقيم به وتجديد أثاثه ، ولغير ذلك
من مطالبتي ؟ . . أم أنفقه مذ كان يعاون صديقتي لاستخلاص ميراثها
وميراث أبنائها ؟ . . وأياً كان سبب إنفاقه ، ألم يكن واجباً عليه أن يقدر
لمستقبل ولديه حتى لا يتركهما فقيرين عالة على غيرهما ، ولكن لا عجب ! . .
فهذا الرجل كما وصفه زوجي من سنين ، من طراز الأعيان الذين يبددون
كل ثروتهم في سبيل التظاهر بأنهم من أهل الثراء ، وكل ما أكسبه إياه
تعليمه العالي . وما أكسبته إياه أسفاره وتجاربه ، لم يزد على طلاء ظاهر
يستر الفلاح الكامن وراءه . ثم لم يغير من طبعه شيئاً ، أولوحم القضاء فيه
فإذا يكون مصير هذين الصبيين ؟ ! أحسبني يومئذ في حل من أن أحمل
زوجي على أن يتبناها وأن ينتسبا إليه . ثم لا يكون لإنسان أن يلومني على
ما فعلت وقد أردت خيرهما وكفالة مستقبلهما .

وعنيت بتتبع الأنباء عن مطلق وسير مرضه ، وقد وثق زوجي صلته

بالطبيب المعالج ، وكان يسأله كل يوم عن حال مريضه . ثم يحمل إلى ما يبلغه من الأنباء . ولقد طال هذا المرض حتى مله المريض نفسه ، برغم تردد أصدقائه الكثيرين عليه وإبدائهم أرق العواطف نحوه ودعائهم له بالشفاء والعافية . لقد كانوا مخلصين في دعائهم ، لأن الرجل كان في نظرهم مثال الطيبة والوداعة ودمائة الخلق ، ولأن عطفهم اشتد عليه منذ طلقت منه ، اقتناعاً من بعضهم بأنني كنت ظالمة له متجنية عليه . ومن الآخرين بأنه كان سيئ الحظ غير موفق في زواجه ! . .

وفكرت حين طال به المرض أن أحجب ولديه عنه ، محتجة بأنه يشتد تأثره حين يراها فيسوء أثر ذلك في صحته ، لكن زوجي لم يرض ما أردت ، بحجة أن امتناع الولدين عن زيارة أبيهما يدخل في روعه أن الطبيب هو الذي منعهما خوف العدوي من مرض فتاك ، وأن هذا الوهم إذا تمكن من نفسه فقد يقضى على حياته . وأهاب بي زوجي ، بعد أن ذكر لي حاجته هذه ، ألا أحمل هذا الوزر لجسامته ، فإذا قضى الرجل نجه ، لا قدر الله ، بقي ضميري يؤنبني ما بقيت من أيام حياتي .

وقبلت حجة زوجي ونزلت على رأيه إكراماً له ، لا خوفاً على مطلق ، فإن ما عرفته من أنه أصبح مستغرقاً لا يملك شيئاً ، وأنه لن يترك لولدينا ميراثاً قلّ أو كثر ، قد زاء حفيظتي عليه وغضبي منه . وإنني لأفكر يوماً إذ استأذن على الرسول الذي كان سفير مطلق إلى وسفيرى إليه في أمر الولدين وحضائهما ، وأذنت له ، فلما حياني وتناول القهوة قال : « جئت سفيراً مرة أخرى ، من قبل مطلقك . ما أشد جزعي على هذا الرجل النبيل ذي

المروءة ، وما أعظم خوفي على حياته ! . . إنه يذبل يوماً بعد يوم ويرى بعينه أجله يدنو . وهو طيب ، وهو لذلك أشد جزعاً على نفسه لأنه يعرف سير علته ، ويذكر في ألم وحسرة أنه لا براء له منها ، وهو يشكر من أعماق قلبه ويكرر هذا الشكر كلما بعثت له بالولدين يزوران ويؤنسانه ، فهو يرى فيهما صورتك أنت مجتمعة إلى صورته ، ويذكر كلما رآهما أسعد أيام حياته ، ويتولاه الأسى والحزن لأنكما لم تستطيعا أن تعيشا في هذين الولدين ولهما ، ولقد كنت أعجب يا سيدتي كلما ذكر لي أيام صحته وعافيته أنه لا يزال يحبك ، وكنت أحسبه إذ ذاك يتغنى بحبكما الأول ويتشبث به لأن قلبه لم يعرف حباً بعده ، لكن هيامه بك اليوم ، وهو موثق أن يلقي ربه ، يدلني على أنه كان صادقاً ، وأن قلبه ظل حياته مليئاً بك ولم يعرف غيرك ، وهو قد أرسلني اليوم إليك في أمر لا أدري كيف أصوره ، إنه يريد أن يراك ليستغفرك عن كل ما مضى من ذنوبه ، طامعاً في عفوك وإحسانك ! » .

قلت في دهشة : « يريد أن يراني ! . . » .

قال الرسول : « مهلاً يا سيدتي ، فلا يأخذ منك العجب ، ولا تتوكل الدهشة ، ولو أنك رأيت هذا المريض ، المشرف على الموت ، كيف ينسى مرضه ، وكيف ينسى الموت كلما ذكرك ، وخيل إليه أنك زرت ، لما ترددت لحظة في زيارته ، إحساناً منك تبذليه صدقة لوجه الله . فهذا الرجل لم يعد يعرف في الحياة سواك ، ولم يعد يجري على لسانه إلا اسمك . أنت القبس الباقي له من نور الدنيا ، والأمل المرجو عنده في الحياة الآخرة ، أنت حلمه في يقظته وفي نومه ، أنت مصدر راحته

حين تنحدر به علته إلى هاوية الفناء . إنه حين يرى ولديكما يقول إنه يحبهما لأنهما ولدك أكثر مما يحبهما لأنهما ولداه ، إنه يناديك باسمك مبتهلاً مستغفراً ، كما ينادى المؤمن ربه في صلاته ! . . إنه يهذى بحبك هذيان المجنون بليل . . أولاً يمس ذلك كله من قلبك أوتار رحمتك وبرك ؟ . . أولاً تحسين ، وقد وصفت لك حاله ، أن من حق المروءة عليك ، لا أن تزوريه وكفى ، بل أن تلازميه حتى يلفظ نفسه الأخير ! . .

اشتدت بي الدهشة وبقيت مشدوهة لا أدري ما أقول ، فلما رأى الرسول حالى قال بعد برهة : « إننى عائد إليه الساعة يا سيدتى ولن أقول له إنى رأيته . وسأعود إليك غداً فى مثل هذا الموعد ، وأكبر رجائى ألا تخيبي أمل رجل أبى على حبك حياته برغم يأسه منك وانفصاله عنك ، قد تكون آخر سويعاته فى هذه الدنيا حين يقع نظره عليك ، وحين يحاول أن يرفع إليك يديه مستغفراً من ذنوب يعلم الله براءته منها ، سيقول لك إنه أخطأ ولم تخطئى ، وإن عليه كل الوزر فيما أصابك وأصابه ولا وزر عليك أنت فى شيء قط . سيرفع إليك أكف الضراعة لتسامحيه فيسامحه ربه . . إن لك قلباً يا سيدتى يعرف الرحمة وينسى الموجدة ، فاستشيرى قلبك . وإلى غد فى مثل هذا الموعد لنذهب معاً إليه ! . .

قال الرسول هذا الكلام واستأذن وانصرف ، ولم أملك التفكير وأنا فيما أنا فيه من دهشة بلغت الذهول . وكيف ترانى أستطيع أن أفكر وهذا السيل الجارف من عواطف رجل تهدده المنون ينساب نحوى ويكاد يغرقنى ، وخرجت إلى حديقة المنزل أستنشق الهواء لعله يرد إلى بعض سكينتى . ومع

هذا بقيت عاجزة عن كل تفكير زماً غير قليل ، فلما أردت أن أفكر انتفض -
أمامى طيف صديقتى وكأنما تقول : هأنذى ، وانتفض إلى جانبه شبح
المليونير يطالب بديونه ، وأقبل ولدائى فى هذه اللحظة فقبلتهما على عجل
ثم أسرعت إلى مخدعى مضطربة الذهن لا أرى ما أمامى .

وجاء زوجى وشاهد اضطرابى فذكرت له ما جاء به الرسول وقصصت
عليه حديثه ، قال : « الأمر لك يا عزيزتى ، إن شئت ذهبت غداً
معه ، أو شئت التمسيت لنفسك عذراً عن عدم إجابة مطلبه ، ليس عندى
ما أشير به فى موقف تملى فيه العاطفة ولا شأن للعقل به ، ولو أننى وجهت
إلى مثل هذه الرسالة بوصفى صديق هذا الواقف على أبواب الأبدية لحررت
فى أمرى ولترددت ماذا أصنع بعد الذى كان بيننا آخر الدهر من قطعة
وخصومة ، لكنه أحسن إليك يوم ترك لك ولديك فأنت فى غير موقعى ،
وهو على كل حال لم يطلب إلى أن أزوره فلا شئ يحملنى على أن أفكر فى
الأمر أو أعتزم فيه رأياً ، فاصنعى ما تشائين ولا اعتراض لى على أى قرار
تتخذينه » ! . .

زاد هذا الحديث حيرتى ، هبنى أبيت أن أذهب فبأى عذر أواجه
الرسول ؟ . . أقول إن قلبى لا يطاوعنى أن أراه وقد ترك ولديه معدمين
ينفق عليهما من يبعث الله إلى قلبه الشفقة بهما ؟ . . أم أقول له إن ما يهرف
به ليس إلا هذيان الحمى ، وإنه لو شفاه الله كما أرجو لأسف أن جرى
اسمى على لسانه فى أثناء مرضه . . وإن أنا قبلت رجاء الرسول وذهبت معه
فإذاا يكون موقعى من هذا الرجل المضطرب بين الحياة والموت ؟ . . ما الذى

أستطيع أن أقوله له إذا هو خاطبني باللهجة التي خاطبني بها رسوله . لن أزيد على أنني سامحته ، ثم أضطر أن أرجوه كي يسامحني فيما لعل هفوت فيه . وهبه تأثر بلقائي ولفظ نفسه الأخير في وجودي فأية مأساة عند ذلك أواجه ؟ . . .
وقضيت ليلي في حيرة من أمري ، وأرقت ولم يعرف النوم سبيلا إلى جفني .
على أنني كنت كلما قلبت الأمر ازدادت اقتناعاً بأنني لا قبل لي بالذهاب إلى مطلقى ، ولا فائدة لمطلقى من ذهابي إليه . سيقدر الرسول حين أرفض الذهاب معه أنني لا قلب لي ، وسيرى أنني أسأت إلى من أحسن إليّ ، ولكن ذلك خير من أن أتعرض ، ويتعرض مطلقى ، لموقف لا طاقة لي به ، ولا جدوى له من ورائه .

وجاء الرسول الغداة لموعده ، فلما سلم علىّ قال : لعل الله قد هدى قلبك إلى خير تبدلينه لهذا المسكين ، لقد رأيته بعد أن غادرتك أمس فكان أول ما فاتحنى به أن سألني إن كنت قد لقيتك وأديت إليك رسالته ، فلما أبلغته أن وقتي لم يتسع لما أراد انهملت عبراته وقال : « حتى أنت يا صديقي تتنكر لصداقتي حين تراني على حافة القبر ، ما ضرك لو ذهبت إليها فرددت إليّ رuchi بزيارتها أو بوعد منها أن تزورني ! . . » لست أكتملك يا سيدتي أنني أوشكت أن أفضي إليه بما حدث بيني وبينك أمس دفعاً لاتهمامه بإيائي أنني جحدت حق الصداقة . ولكنني وعدتك ألا أفعل حتى أعود إليك اليوم آملا أن تذهبي معي فتردى أنت روحه . أفتراني أطمع منك أن تكوني كريمة معه كما كان هو كريماً ذا مروءة يوم خاطبته باسمك في أمر ولدك ؟ . . .

قلت بعد هنيهة : « أرجوك يا سيدى أن تمنحنى شيئاً من صرك ومن حلمك حتى أعرض عليك أمرى ، لقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم أفكر فيما تطلب إلىّ وأقلبه على كل وجوهه . ولم أنس منذ بدأت تفكيرى أننى مدينة بالشكر الخالص لسفارتك الناجحة عنى عند مطلقى فى شأن ولدى ، كما أنى مدينة له بالشكر على مروءته ونبله . ولهذا وددت لو استطعت أن أجيبك إلى ما طلبت منى إن كان فى إجابته أى فائدة . أنت تطلب إلىّ يا سيدى أن أزور مطلقى لسمع منى أنى سامحته فيما لعله أخطأ معى فيه إبان زوجيتنا . إذن فأبلغه عنى وهو لا شك مصدقك ، أننى سامحته من كل قنبى ، وأننى أطلب إليه كذلك أن يسامحنى وأن يغفر لى ، لعل الله يشملنا نحن الاثنين بعفوه ومغفرته . أقول ذلك صادقة مخلصه عن نفسى ، أما ولدانا فأمرهما إلى ربهما ولا أملك أنا من ذلك شيئاً ، إنه إن اختاره الله إليه سيتركهما فقيرين إلى عطف أجنبي يكفلهما ، أو يتبناهما ، أترانى أستطيع أن أقول ذلك لمطلقى وهو فيما تقول موشك أن يلنّ ربه ؟ وهل يرضيك أن أكنتم ذلك فأبوء بإثم الولدين فى غير ذنب ولا جريرة ؟ وهبنى ذهب معك إليه ورضيت أن أكنتم أمر الولدين إبقاء عليه واندفع هو يذكر أمامى ما قلت أنت لى من أنه يحببنى ولا يحب غيرى ، أفأجيبه صادقة لكنى لا أحبك . أم أجيبه كاذبة بأنى أحبه وأنه ملء سمعى وبصرى ؟ إنك تحدثنى باسم عواطفه التى تتحكم فيه ، فهل تريدنى أن أقف أمامه صليدة جامدة أسمع ولا أنطق ، أم تريدنى باسم الرحمة كاذبة مرائية ! . ثم هبنى ذهب معك إليه فكان ما تقول وقضى نجه سعيداً بوجودى عنده فإذا يقول الناس عنى ؟ إننى

أشقيته صحيحاً وقتلته مريضاً ! . . ذلك بعض ما دار بخاطري يا سيدى طول ليلى . وأعفيك من سماع ما بقى مما سواه ، فهل ترانى أصبت الرأى . أم ترى أن تشير على بما يخالفه ؟ » .

وظل الرجل صامتاً كأنى لا أزال أتكلم . وكأنه لا يزال يسمع . . فلما فطن إلى سكوته التفت إلى وقال : « بيدولى يا سيدتى أنك اتخذت فى الأمر قراراً لا سبيل إلى الرجوع فيه . فقد فرضت كل الفروض وأجبت عليها جواباً لا يحتمل المناقشة ، ولعلى لو قلت لمطلقك إنك سامحته وصفححت عنه فيما لعله فرط منه أرضاه ذلك وطمأنه . ولعله يزداد اطمئناناً حين أذكر له أنك تريد أن يغفر لك كما غفرت له ، وأن يسامحك كما سامحته . ولكنى شد ما أخشى أن يبقى يعذبه ضميره إذا عرف أنك سامحته عن نفسك ، وأبيت أن تسامحيه عن ولديكما . أنا أفهم ما تقولين من أن أمرهما ليس لك ، وأنهما هما اللذان يملكان مسامحته يوم يكبران . وهولاً ريب يفهم ذلك كما أفهمه . ولكنه يطمع فى ألا يكون قلبك غاضباً عليه من أجلهما . أفأستطيع أن أبلغه ذلك ؟ . . فلو أننى فعلت لسهل ذلك على التماس العذر عن عدم ذهابك إليه . ولا أحسبك تأبين على ما أطلب من ذلك وأنت تعلمين أنه لم يبعثر ماله فى ترف لنفسه أو فى عبث مما يتلهى المعروف به ، كما أنك تعلمين أنه لو استطاع أن يضاعف ثروته لما أقعده دون مضاعفتها من طريق شريف أى اعتبار » .

قلت : « عزيز علىّ يا سيدى أن أرفض لك مطلباً فى مقدورى إجابته . ولو أننى كنت امرأة واسعة الثراء لأجبتك إلى ما تريد ولجعلت

لولدئى من مالى ما يغنيهما عن ميراث أبيهما ، أما وليس لى هذا الثراء فلا بد أن يكفلهما غيرى . فكيف يرضى قلبى عن بقائهما عالة على الغير وقد ألفا منذ مولدهما حياة النعم ! فإن يكن أبوهما قد أضاع ماله مضطراً فإن الله وحده هو الذى يغفر له . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . أما إن كان قد أضاع ما يملك فى غير ضرورة فالله يتولى جزاءه ، إن شاء غفر له ، وإن شاء لم يغفر ، ذلك غاية ما أستطيع قوله ، ولعلك ترائى منصفة فيه كل الإنصاف ! . . . » .

لم يجد الرجل ما ينجينى به ، ولم يطمع فى إقناعى بتعديل قرارى فاستأذن وانصرف مشكوراً .

ولست أدرى على أى وجه أبلغ حديثنا لمطلقى ، ولكنى علمت من بعد أن هذا المريض المسكين حز فى نفسه أن أبيت زيارته ، وأن تراخت زيارة ولديه له ، وإن كان لا يراها حين يذهبان إليه إلا لحظات لا تغنى ولا تروى ظمأ ظامئ .

مع ذلك استطال من بعد مرضه حتى رحمه شائثوه ، وحتى كان أحباؤه يتوجهون بالدعاء إلى الله أن يريحه بالموت من عنائه . وفى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر من تلك السنة أبلغت أنه مات ، فترحمت عليه ، وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

هدأت نفسى حيناً بعد وفاة مطلقى ، وخيل إلى أن الموت حسم ما بينى وبينه إلى الأبد ، وأقام ستاراً كثيفاً حجب عنى ماضياً ذقت فيه غصصاً وآلاماً ، وتوهمت أن فى مقدورى أن أنسى هذا الماضى فلا يبقى

له في ذاكرتي ولا في أي مظهر من مظاهر وجودي أثر . وهل شيء كالنسيان يتقدنا بما نود أن نتخلص منه ، ويتيح لنا أن نكيف ماضينا على ما نريد ، لننعم بما يحويه من خير وإن قل ، ونجسم هذا الخير ونمجده ، ونمحو ما أصابنا فيه من بأساء وكأنها لم تكن ، ونزيف بذلك لأنفسنا تاريخها كما تزيف الأمم تاريخها ؟ !

وأول ما دار بخاطري ، لأجعل هذا الذي توهمت حقيقة واقعة ، ولأمحو من ذاكرة الوجود أنني كان لي زوج قبل زوجي الذي يحبني اليوم من كل قلبه ، أن أنسب ولديّ إلى هذا الزوج الثاني وأمحو نسبتهما إلى أبيهما الذي أنجبتهما منه ، ولم يكن ذلك عسيراً والقانون يبيح تغيير الأسماء إذا اتخذت لهذا التغيير إجراءاته ، ولكنني لم أكن لأقوم بتنفيذ ما أردت إلا أن يوافق زوجي عليه وأن يعاونني في الإجراءات التي تحققه .

ولم يكن عسيراً عليّ أن أقنعه وأن أزيل من نفسه شبهات أبداها حين بدأت حديثي معه في هذا الأمر ، فقد ذكرته بأنه قبل شرطي يوم خطبني إلى نفسه أن يتبنى الولدين حتى لا تبقى بيني وبين مطلقى أية صلة ، وأني كنت معترمة يومئذ أن أنسبهما إليه لولا أن رفع مطلقى الدعوى يطلب فيها ضم الولدين إليه ، ولولا أن حكمت المحكمة له بما طلب ، فاضطرتني حكمها إلى مصالحته على بقائهما في رعايتي ، لولا ذلك لما تردد زوجي في تنفيذ شرط قبله . ولم يبد الرجل اعتراضاً إلا خشيته من قالة الناس في فساد ظنهم بي ، وسوء حديثهم عني .

واتخذ المحامي الإجراءات وحكمت المحكمة بتبديل اسم الولدين وجعل

نسبتهما إلى زوجي ومحو اسم أبيهما وإزالته عنهما ، وقد اغتبطت يوم صدر هذا الحكم بقدر ما اغتبطت يوم قبل مطلقى أن يتنازل عن ضم لولدين إليه ليقبىا فى كنفى ، فقد أيقنت أنى لن أسمع من بعد اسم هذا الرجل ولن أقرأه فى الشهادات التى تبعث المدرسة بها إلى عن امتحان الولدين ، ولن يبقى له فيما يتصل بى أى ذكر أو أثر .

وذكر لى زوجى بعد صدور الحكم بتسمية الولدين باسمه أنه يريد أن يوصى لهما بثلث ماله ، وأنه لو وجد فى القانون حيلة لأوصى لهما بكل ماله . قلت له : « لا تعجل فهما ولدك ، والأب لا يوصى لأبنائه ، أطل الله بقاءك وبقائى حتى نراهما شاباً وفتاة ملء العين ، وحتى تكفل لهما عنايتك ورعايتك مستقبلاً يرضيك » . ولقد كنت أعبر صادقة عما يدور بقلبى . فقد أكرم زوجى ولدى منذ تزوجنا إكرام الأب لبنيه ورعاها رعايته فملك بحنانه عليهما كل قلبى وجعلنى أشعر بأن المثل القائل : رب أخ لك لم تلده أمك ، كان يجب أن يضاف إليه . . ورب أب لك لم تحالطه أمك ! . .

وهل الأبوة والأمومة إلا الحنان والعطف ! أذكر وأنا أكتب هذه العبارة تمثيلية شهدت فى باريس تصور زوجة سامحها زوجها بعد أن أنجبت ولداً من خليلها ، ونسب الولد بحكم القانون إلى الزوج الذى أغدق عليه من يوم مولده كل عطفه وحنانه . وشب الولد وكبر وهو يؤمن بأن هذا الزوج أبوه ، ثم إنه عثر يوماً فى أوراق أمه بخطاب عرف منه سر مولده ، فثار فى عروقه دمه أن حمل هذا الرجل الذى لم يكن أباه كل

ما يحمل الأب من عبء لتنشئة أولاده ، وتطوع للجندية وندب كطبله للسفر إلى الهند الصينية فراراً من بيت ليس بيته ، وعبثاً حاول الرجل أن يقنعه بحماقة ما يصنع ، وأن طيش لحظة طاف بأمه لا يمحو عطفه هو عشرين سنة أو تزيد . وسافر الرجل يودع الشاب على الباخرة التي تبخر به إلى منفاه ويرجوه أن يعدل عن عزمه ، وأبى الشاب ، فلما بدأت الباخرة تتحرك ووقف الرجل على رصيف الثغريودعه ويشير إليه بمنديله الأبيض ، صاح الفتى : إلى الملتقى يا والدى . وطفح قلب الرجل سروراً بكلمة والدى هذه مقتنعاً بأن الشاب آمن برأيه فى اللحظة الأخيرة . وأنه لم يقل هذه الكلمة بحكم العادة ولا بدافع المجاملة .

وهذا الرجل فى رأى على حق . فما قيمة الأبوة أو الأمومة العاقة إلا أن يفرض القانون على هذا الأب أو على هذه الأم أداء الواجب للجيل الناشئ . فإن لم يفعلا لم يكن أيهما حقيقةً باسم الأب أو الأم ، هذا الاسم الكريم الذى يحمل فى طياته أكرم المعانى وأنبهلاء ، وقد حمل زوجى عبء الأبوة لولدى من يوم تزوجنا ، فلم أكن مبالغة ولا مغالية فى قولى له إنهما ولداه ، ولا فيما فعلت من نسبة اسميهما إليه ، وإن كان من الحق على اليوم . وقد مرت السنون على وفاة زوجى الأول . أبيهما ، ألا أجد أنه إلى أن وافته المنية لم يقصر فى واجبه إزاءهما ، وكان كله الحنان والعطف عليهما .

وتعاقبت السنون وقد وضعت زوجى الأول من ذاكرتى ومن قلبى فى قبر سحيق أشد صمتاً من القبر الذى يحوى رفاته ، فلم يكن اسمه يجرى على لسانى .

بل لم يكن يمر بخيالي ، وتعود الولدان أن يخاطبا زوجي مخاطبة الولد لوالده .
وألا يذكر أنهما كان لهما أب سواه ، وأن يقدر ما يحبوها به من عطف
وما يسبغه عليهما من حنان . ولقد أدهشني منه وأثار إعجابي به أنه لبس ثوب
الأب في سلطانه وفي حنانه ، وكان محبته لي أدخلت إلى قلبه من عواطف
الأبوة ما احتواه قلبي من عواطف الأمومة . فكان ذلك مدعاة لانسجام
الحياة بيننا جميعاً كما تنسجم الحياة في الأسرة الواحدة بين الوالدين
والبنين .

وظل ذلك شأننا ، وظل الولدان يكبران بأعيننا وعنايتنا ، لا شيء
يكدر صفونا ، أو يشوب سعادتنا ، ولا نطمع من الحياة في خير مما أعطتنا
لم أعد أفكر في السفر إلى أوروبا أو إلى الأقصر . ولم تعد مغريات المجتمع
تجذبني إليها ، بل أصبحت مملكة البيت مملكتي ، والعناية بالبيت ومن فيه
مصدر سروري وسعادي . وقد بلغت في أثناء هذه السنوات الهنيئة أن صديقتي
تزوجت فدعوت لها بالتوفيق ، ولم يتعرض طيفها لي ولم يثر جماها ثائرتي ،
ومالي أنا ولها ؟ ! . . بل مالي أنا ولغيري من الناس وقد ظفرت بما كنت
أرجو من طمأنينة وسعادة ؟ . . وقد أنست إلى زوجي وولدي وأنسا إلى ،
وقد أصبحت أدعول للناس جميعاً بما حباني الله به من فضله .

يقولون إن الأمم السعيدة لا تاريخ لها . ويبدو لي أن الأسرة السعيدة
لا تاريخ كذلك لها . إنها تتخطى في هون على متن السنين مألوف حياتها ،
فلا يثير طلعة أحد ولا تدعو أحداً للكلام عنها أول للتندر بها ، وإن غبطها
الناس لما أفاء الله عليها من ستره ورعايته .

وتخطى ولدى الثانية والعشرين من سنى حياته . وإننى لجالسة يوماً
فى غرفة نومى إذ دخل علىَّ يلدو على سياه اشتغال البال . ولم أرد أن أسأله
عما يشغله ، وانقذه أنه لم يحضر هذه الساعة اعتباطاً ، وإنما جاء يحدثنى
فى أمر يراه جليل الخطر وللشباب عذرهم إذا اضطربوا لما لا يوجب الاضطراب ،
فليست لهم من تجارب الحياة مناعة ترد عنهم شتات البال وتبلبل الفكر فى كل
شأن جل أو صغر . وأمسك الشاب عن الكلام هنيهة بعد أن جلس إلى
جانبي وكأنه يدير الأمر فى رأسه ليصوره لى . على أنه ناء بالصمت بعد قليل
فاندفع يقول :

« جئت أحدثك يا أماه فى أمر أجل من كل ما تتصورين خطراً .
لقد أعجبتنى فتاة تعرفينها وتعرفين أهلها وأردت أن أخطبها إلى نفسى ،
ورأيت أن أسألها أتوافقنى على أن تتزوج ؟ فقالت فى حياء وخفر إن
الأمر فى ذلك لوالديها ، ولم أرد أن أفاتحك فى الأمر قبل أن أطمئن إلى
رأى أمها . فأنا أعلم أن الأم إذا رضيت بعد أن رضيت ابنتها فقلما
يرفض الأب ما رضيتاه ، فلما ذهبت إلى تلك الأم الطيبة القلب وعرضت
عليها الأمر وقلت لها إن ابنتها تركت الحكم فى ذلك لأبويها قالت :
إننى يا بنى لا أعز عليك شيئاً . ولا أعز عليك ابنتى ، لقد كان والدك
عليه رحمة الله صديقنا وكان من خير الناس وأطيبهم قلباً وأكثرهم مروءة .
لكنك يا بنى محوت اسمه من اسمك ، وأبدلته باسم زوج أمك ، ولم أكن
أنا ولم يكن زوجى راضين عن ذلك من يوم حدث ، فذكرى أليك أعز
علينا من أن تمحى ، وأسألك يا بنى : إذا تزوجت ابنتى وأنجبت منها وسأل

الناس ولدكما عن جده لأبيه فإذا يقول ؟ أذكر أباك الحق أم يذكر زوج أمك ؟ ! فإن شئت يا بنى أن أخاطب زوجي فيما تطلب فأعد قبل كل شيء اسمك كما كان ، انتسب لأبيك لا لزوج أمك ، فإن فعلت فجاً وكرامة ، ولك على أن أحاول إقناع زوجي لتكون زوج ابنته ، أما إن أبيت فعزير على أن أبلغك أننا آسفون إذا لم نستطع أن نجيبك إلى ما تطلب . ولا أريد منك الساعة جواباً بل تروني الأمر واستشر فيه .

« كذلك قالت لي يا أماء ، وقد رأيتها على حق فجئت أعرض الأمر عليك قبل أن أتخذ فيه إجراء أو أخطوفه خطوة ، فأشيري على . . . » .

بم أجيب ؟ ليس الأمر الذي يعرضه عليّ ولدى نزوة شباب ، ولا هو من ضالة الشأن بما يشير ابتسامتي ، بل هو أجل خطراً بالفعل من كل ما توقعت ، فلا بد لي من مواجهته بشيء من الحزم يرد عني وعن أسرتنا كلها ما يهددها في صميم كيائها ، لذلك لم أتردد في أن قلت :

- وما لأم هذه الفتاة أن تتدخل في أخص شئوننا وشئونك ! . .
وهلا ترى من تدخلها اليوم أنك إن صاهرتها غداً فستظل مستبدة بك تحاول توجيهك في الجليل والحقير من أمورك ، لذلك أنصحك أن تعدل عن التفكير في هذه الفتاة ، وأنا كفيلة بأن أجعل لك خيراً منها يفرح بها قلبك ويفرح بها قلبي ، هذا إن كنت مصراً على الزواج وأنت لا تزال في هذه السن المبكرة ، أما إن أردت الخير لنفسك فأجل تفكيرك في إقامة أسرة قد تنوء اليوم بأعبائها ، حتى يعاونك عمل تنهض به ويدرك عليك أخلاف الرزق لتسعد أنت بأسرتك وتسعد هذه الأسرة بك .

وأجابني الفتى : ليس الأمر الساعة أن أُؤجل التفكير في الزواج أو أعجل به ، وإنما الأمر في هذا الاسم الذي أحمله بغيّاً بغير حق ، ولقد خاطبت أختي في أن نعود باسمينا إلى اسم أينا الذي أنجبنا فوافقتني على ذلك ولم يبد زوجها اعتراضاً ، هذا لب الموضوع في حديثي لك اليوم ، فإن أنت وافقتني ثم اعترضت على زواجي من هذه الفتاة لأسباب تعرفينها فإنني عند رأيك ، ولا أعصى أمرك ! .. فهل ترين ما يمنع عودتنا إلى التسمي باسم أينا ؟ .. إننا الآن راشدان أنا وأختي ونستطيع هذا الأمر من تلقاء أنفسنا ، لكننا لا نقدم عليه حتى تكوني راضية عنه مطمئنة إليه .

قلت وأعصابي تضطرب وأكاد أرى أسرتنا تنهار أمام عيني : أنظرك إلى غد أروؤى في الأمر ، وأشير بالرأى فيه ، فإنني الساعة متعبة : وأشعر بالحاجة إلى الراحة .

وقام الشاب وفي نظراته معنى الدهشة وقال : إلى غد إذن يا أماء ، وأرجو لك راحة الجسم وطمأنينة النفس .

ولم ألبث حين خرج أن رأيت الدنيا تدور من حولي ، وكأنتي على زورق في بحر لحي لا شاطئ له ، أفأستطيع أن أفاتح زوجي في شيء مما قاله ولدي ليري كل ما أسداه لأخته وله ينقلب جحوداً وعقوقاً ؟ وهل أستطيع أن أنكر على ولدي حقه في التسمي ، إن شاء ، باسم أبيه ؟ وأي داع دعا هذه السيدة ، وهي من أكثر أصدقائنا إخلاصاً لنا ، أن تثير هذا الأمر وأن تقفني هذا الموقف ؟ لست أعرف بيني وبينها حقداً ولا غيرة ، فما كان أجدرها أن تحاطبني في الأمر قبل أن تفضي بما قالت



فما دخل روجي إلى غرفة الاستقبال ، رأى فيها صورة مكبرة لزوجي الأول

إلى ولدى ! وكيف ترانى أنقض اليوم ما أبرمته أمس فيظن زوجى أننى خدعته لغاية فى نفسى ! . .

وتوارد طوفان من هذه الخواطر على ذهنى فشعرت بقلبي يخفق وأعصابى تزداد اضطراباً ، ثم أحسست برعشة كأنها الحمى ، ولقد حمدت الله أن كان زوجى مدعواً للغداء ذلك اليوم ، ثم كانت عنده مشاغل تمسكه عن الحضور إلى البيت حتى المساء . وقلت فى نفسى : لعلى أكون قد تدبرت الأمر ووجدت حلاً قبل موعد حضوره .

وأقبل المساء فإذا الحمى تلازمنى وتمسكنى فى سرير نومى ، فلما جاء زوجى ورأى حالى أراد أن يدعوا الطبيب فقلت له : دعنى الليلة فإنى أحسبها رعشة طارئة ، فإذا أصبحنا ولم تنصرف عنى كان لدعوة الطبيب موضع ، ورجوته أن يقضى ليله فى غرفة أخرى . ولست أدرى بعد أن بقيت وحدى ما الذى أصابنى . أفنمت فعبث بي كابوس أزعجنى ، أم أنه هذيان الحمى الذى استبد بي ؟ . . فقد تبدى أمامى طيف مطلق وهو ملتف فى أكفانه وأخذ يحملق فى سمعته وكأنه يهتف بي : هأنذا سترينى الليلة وسترينى من بعد ، سترينى بينك وبين زوجك فى يقظتك وفى نومك ، سترينى بينك وبينه فى ثيابى وعارياً كيوم ولدتنى أمى ، سترينى بينك وبينه حتى فى سرير نومك . وسترينى حتى يعود ولدائى إلى التسمى باسمى . فإن عادا تواريت لا عن رضا ، ولكن لأدع زوجك يتم قضاء الله فيكما والله أعدل الحاكمين .

واستيقظت جوف الليل مدعورة أصبح من هول ما رأيت . وأسرع

إلى زوجي من المخدع الذي كان فيه يسألني ما بي ؟ قلت والحمى تهزني :
« إنه كابوس أزعجني فلا تتركني » . وقضى الرجل بقية ليله على « كنبه »
في الغرفة . وبقيت مؤرقة حتى إذا نادى مؤذن الفجر ، غفوت فرأيت في
غفوتي كأن والدي يقول لي : « فيم تنزعجين يا ابنتي ، دعي الأمر لولديك
يقضيان فيه برأيهما ولا تحملي أنت تبعته ، قولي ذلك لولديك إذا جاء اليوم
إليك يريد مشورتك ، ونبيه إلى أن الأمر أخطر بالنسبة له ولك من أن يقضي
فيه بخفة ومن غير روية » .

نمت بعد ذلك وطاب نومي ولم أستيقظ إلا قرابة الظهر . واستيقظت
وقد نزلت عنى الحمى وإن بقيت منهوكة الجسم ، محطمة الأعصاب ،
وكان زوجي قد خرج لعمله فأتاح لي فرصة أتدبر فيها الأمر من جديد ،
ولم أجد خيراً من المشورة التي أسداها إلى طيف أبي . لكني آثرت ألا أبت
في الأمر قبل التحدث فيه مع زوجي ، وجاء ولدي ورآني ملازمة فراشي
فأبت عليه بنوته أن يعيد الكلام عليّ ويسألني رأيي حتى أستعيد نشاطي .
فلما جاء زوجي ودخل إلى يسأل عن صحتي استبقيته عندي وذكرت له
حديث ولدي ، وأن هذا الحديث هو الذي أركبني الحمى وأزعجني ، فسكت
طويلاً ثم قال :

- هل نستطيع أن نمنعه أو نمنع أخته وقد بلغا رشدهما ولم يبق لي
ولا لك عليهما سلطان ؟ . فليفعلا ما يشاءان فذلك حقهما ، ثم يكون لنا
بعد ذلك في الأمر رأي ! . .

وجاء ولدي الغداة فالفاني على مقعدى الطويل فجلس عند قدمي

وسألني عن صحتي ، وحمدت له الله على أن أعاد إليّ العافية . ثم قلت له : « إنك شاب عاقل تحسن وزن الأمور ، فلك أن تتصرف كما تشاء فيما حدثني عنه أول من أمس ، ولا اعتراض لي على ما تفعل . وكل الذي أريد أن تعلمه أنني يوم بدلت اسمي كما إنما أردت خيركما ومصلحتكما ، عز على أن تشعرا كلما دخلتما هذا البيت أو خرجتما منه أنكما غريبان عنه ، وأن يشعر زوجي كذلك مثل هذا الشعور . فأردت أن أخلق فيه جو الأسرة بمعناه الكامل . وقد أقرني زوجي على ما أردت وأعانني فيه ، ثم ذهب إلى أبعد من المعونة فأراد أن يوصي لكما بثلك ماله ، بل بكل ماله ، وعارضت يومئذ إرادته حتى لا يظن أنني قصدت إلى منفعة مادية مما صنعت ولا أراه إذا نفذت أنت عزمك وبدلت اسمك واسم أختك ألا يصر على تحرير وصيته تلك ، فهو رجل طيب القلب ، عاملكما منذ دخلتما بيته معاملة الأب لأبنائه ، بل اعتبركما ابنيه بالفعل وبذل لكما كل عطفه وحنانه . أما وقد بلغتكم رشدكما وأصبح من حقكما أن تختارا البقاء على ما اخترت لكما أو تعدلا عنه لما كنتم عليه فلكما من ذلك ما تشاءان . وأنت قبل أختك خير من يقدر ما يترتب على تصرفه من آثار ونتائج » .

قال ولدي في غير تردد : « أشكرك يا أماه من كل قلبي ، ولا تثريب لي عليك فيما فعلته إبان صغري ، سواء فعلته غضباً من أبي أو التماساً لخيري ومصلحتي ، فإن كانت الأولى فلا أحسب الموجدة باقية في قلبك بعد كل هذه السنين على رجل يذكر عارفوه جميعاً مروءته . ويذكرون أنه أكرمك طول حياته بعد غضبك منه وانفصالك عنه ، وإن كانت الثانية فما كنت

لأبيع اسم أبى بضمن وإن عظم . فاسمه هو الدم الذى يجرى فى عروق . والحياة التى ينبض بها قلبى والنعمة التى يشع بها نور عيى . ولن ينسى هذا الدم وهذه الحياة وهذه النعمة ما لزوجك الذى ندعوه اليوم أبانا من فضل علينا وبرنا وحنان ذقنا كل هذه السنين حلاوته ، فلسنا يا أماه عاقين ونحن ابنك وابنا أينا ، وإذا كنتما قد انفصلتما فى الحياة لأمر فذلك طارئ يحدث ثم ينسى ، أما الاسم الذى حملناه يوم مولدنا فهو الذى يجب أن يبقى علماً على محبتكما وبركما ، فالحياة محبة ، وما سوى المحبة هباء يذهب مع الريح ولا تبقى منه باقية .

تأثرت بهذا الذى سمعت من ولدى أبلغ التأثير فقبّلت من أعماق قلبى وقلت له : « رعاك الله يا بنى وهداك السداد والحكمة ، ألا ترى أن تفضى لأبيك زوجى بهذا الذى ذكرت الساعة عنه » . وأجاب : « بكل سرور يا أماه لولا أن أخشى تأويل ذلك بأننى أطمع فى وصيته ، فأستأذنك فى اتخاذ الإجراءات لأستعيد اسم أبى لى ولأختى ، فإذا تم ذلك واستقر أمره جئت معها فأدينا لأبينا واجب الشكر وعرفان الجميل » .

وانصرف ولدى مستأذناً فى أن يدعى أستريح ، وأخذت أفكر فى هذا الحديث الجديد ومقدماته ونتائجه ، ولعنت الساعة التى عرف فيها ولدى هذه الفتاة حتى ليريد أن يخطبها إلى أهلها ، والساعة التى استشار فيها أمها وقد أدت مشورتها إلى هذا الاضطراب الذى أعانيه اليوم ، وقد تودى إلى اضطراب أوسع نطاقاً تتأثر به صلتى بزوجى ، وينتهى إلى تشتيت شملنا بعد إذ كان مجتمعاً فى انسجام واتساق . ودخل على زوجى وهذه الأفكار

تتناوبني وترسم صورتها على محياي . . فلما رأى ما يبدو من ذلك على
قال : « لا تجسمي الأمريا عزيزتي ولا تنزعجي له ، فهو واقع غداً إن لم يقع
اليوم لأنه نزول على حكم الطبيعة . . فما كان الدم لينقلب ماء في يوم من
الأيام ، وللوراثة حكم لا سبيل إلى مغالبتها ، وقد أصبحت ابتك في عصمة
رجل وأصبح ابنك قديراً على الكفاح في الحياة فأغناها ذلك عنا ، وأتاح
لهما من الاستقلال في التفكير ما نزع عنهما سلطاننا ، وإن استبقى لهما
حبنا وعطفنا » . فشكرت له سمو عواطفه وقلت له : « لو أنك سمعت ما قاله
ولدى عما يضره لك من إكرام ومن اعتراف بفضلك وجميلك . وتقدير
لحنانك وبرك كل هذه السنين لسرك أن أثمرت تربيتنا هذه الثمرة الصالحة ،
وقد ذكر لي أنه سيؤدى ما عليه لك من واجب الشكر بعد أن يعيد إلى اسمه
واسم أخته اسم أبيهما ليكون الشكر خالصاً بريئاً من كل شائبة » . . .
وجم زوجي لسماع هذه الكلمات الأخيرة ثم قال : « فليلهمه الله
السداد والحكمة ! . . »

وعاد الرجل إلى وجومه ، ثم انصرف عني إلى مكتبه ، فلما آذنت
الشمس بالمغيب جاء إليّ يخبرني أن أصدقاه دعوه إلى طعام العشاء وإلى
سهرة قصيرة بعده ، وأيقنت حين غادر البيت أن حديث ولدى فعل فعله
في نفسه ، وأنه مضطرب له اضطرابي ، حائر في أمره حيرتي ، مقدر أنه
لا يملك رده ، متألم من أجل ذلك له ، وأنه ابتكر هذا العشاء وهذه السهرة حتى
لا ينكشف لي اضطرابه وألمه ، وقد زاد هذا اليقين في حيرتي واضطرابي .
وفي خشيتي من المستقبل القريب وما ينطوى عليه من نذر .

وإذ جن الليل وآن لى أن أسكن إلى مضجعى وأن أطفى أنوار غرقى ، شعرت بالرعشة من جديد تهزنى وتراجعت عن سربرى فرعة مخافة أن أرى الطيف الملتف فى أكفانه يندس إلى جانبى ليكون بينى وبين زوجى ، عند ذلك همل الدمع من عيني وعدت حيث كنت على مقعدى ورفعت أكف الضراعة إلى الله أن يعفو عني وأن يريح بالى ، وأقمت على ذلك زمناً ذهبته بعده إلى مرقدى أحاول النوم فلا يطاوعنى ، وبعد منتصف الليل أحسست بزوجى يدخل الغرفة ولا يضىء نورها ويتمطى فى مكانه من السرير وأنا متناومة لا أبدى حراكا ، فلما تبينت من صوت أنفاسه أنه نام أخذت الشفقة عليه لاضطرابه وحيرته ، فهو قد حاول أن يقيم أسرة تسعد بها كهولته وشيوخته ، وبذل فى سبيل ذلك حر عواطفه وماله ، وما هوذا يرى محاولته تنهار من أساسها ولا يستطيع شيئاً لدعمها واستبقاء كيائها ، وهأنذى شريكته فى محاولته ، أشاركه الحسرة لانهارها . ثم أنا بعد ذلك أشد منه حيرة ، أضطرب بينه وبين ولدى أحشائى ولا أقدر على منع كارثة تهددنى !

وبعد أسابيع جاءنى ولدى متهللاً يذكر أن المحكمة حكمت بإعادة اسم أبيه إلى اسمه واسم أخته ، وأنه قد آن له أن يحيى معها إلى زوجى يعترفان له بسابغ فضله ، وعظيم حنانه وبره .

قلت : « لقد كنت تخشى أن تفعل ذلك قبل حكم القضاء مخافة تأويله بأنكما تطمعان فى وصيته ، فهلا تخشى مثل هذا التأويل اليوم ؟ » وأجابنى : « كلا ! فالرجل لم يحرر وصيته بعد ، فإذا هو حررها برغم ما فعلنا كان ذلك إقراراً منه لعملنا وإعلاناً لإبقائه على محبتنا والعطف علينا ،

وإن لم يحررها فذلك شأنه ، ولن ينقص إحجامه عن تحريرها من اعترافنا بحميلة وفضله « ! . .

واستأذن الشاب في الانصراف لبعض شأنه ، فلما كان موعد الغداء حضر زوجي ، ثم رأيت ابني وشقيقته يدخلان علينا ويقول ابنتي : « لقد جئنا نتناول الطعام معك يا أماه ومع عمنا » ! . . ولاحظت لون زوجي يتغير لسماعه كلمة العم ممن تعودت شفتاه أن يدعوهُ أباي ، وكأنا لاحظت ولدي ما لاحظت فأسرع يقول : « نحن يا عماه ابنك ، وقد جئنا إليك نعتذر عن العود باسمينا إلى اسم أبينا . لم يكن ذلك إنكاراً لفضلك ولا تنكراً لجميلك ، لكنني أعلم أنك كنت أوفى الأصدقاء لأبي ، فلما اختاره الله إليه اتخذتنا وديعة عندك فأصبغت علينا مثل بره وحنانه ، وسميتنا باسمك حتى نشعر بأبوتك لنا وبنوتنا لك ، فلما بلغنا أشدنا وآن أن ترد الوديعة أحسست بما في ذلك من مشقة عليك لرقه عواطفك وفرط حنانك ، ولأن مر السنين ربط بيننا وبينك بأوثق رابطة ، فاحتملت أنا العبء عنك ، مطمئناً إلى أنك سترضى صنيعي لأنك رجل أمين لا ترضى أن تحتفظ بما استودعت ، وتحرص على رد الأمانات إلى أهلها ، أما وقد ردت فقد جئت وشقيقتي الآن نضاعف لك الثناء والحمد على عنايتك بنا ، وجميل عطفك علينا ، وسمو أبوتك لنا ، طامعين في أن تقبل شكرنا لك وثناءنا عليك . والله يتولى جزاءك » ! . .

انفجرت أسارير زوجي لهذا الكلام ، فانتقلنا بالحديث إلى جو أكثر طمأنينة . بذلك استأنفنا حياتنا وأنا أرجو أن تعود سابق سيرتها .

لكننى شعرت بأن حجاباً قام بينى وبين زوجى . وكان هذا الاسم الذى استعاده ولداى . اسم صاحب الطيف الملتف فى أكفانه . قد حال بينى وبينه حتى كاد يجعلنى غريبة عنه ويجعله غريباً عنى ! . .

وجاءنى ولدى بعد أيام يسألنى رأى فى أمر الفتاة التى يريد أن يخطبها لنفسه ، واستمهلته حتى أروى فى الأمر كما قلت له . وحتى أسأل زوجى لكيلا يزداد الحجاب كثافة بينى وبينه . فلما سألته قال إنه لا اعتراض له على مصاهرة هذه الأسرة . فهم أصدقاءنا ومن طبقتنا . لكنه أضاف : « لكنك توافقينى على أن هذا المسكن الذى نقيم به لا يتسع لأسرتين . وأنا أقترح أن يسكن ابنك وعروسه العمارة التى نقيم بها أخته حتى تسهل عليك زيارتهما كلما هفا لذلك قلبك » ! . .

أحسست من هذه الكلمات الأخيرة أن الرجل لم يعد يطبق حياة ولدى معنا . برغم ما يديه لى من محاملة ولطف . فلما حدثنى ولدى الغداة قلت له إنى أوافق على الزواج . وأقترح عليه أن يسكن العمارة التى نقيم بها أخته . وكذلك فعل . وجهزت العروس مسكنها جهازاً حسناً ، وأخذت أتردد مع أمها عليه نعى بنظامه وحسن تنسيقه .

وانتقل الشاب إلى مسكنه الجديد ، وكنت أزوره هو وأخته الحين بعد الحين ، وكان زوجى يرافقنى فى هذه الزيارات أحياناً ، فىرى فى كل مرة جديداً فى أثاث ولدى يسره ويعجبه . وإن شعرت دائماً بأنه يقوم بهذه الزيارات معى بمحاملة لى ، لا بدافع من قلبه ووجدانه .

فلما اطمأن ولدى إلى أنه أفاء على مسكنه آخر سمة له . دعانا يوماً

لتناول الشاي عنده ، وذهبتا عنده فاستقبلتنا أخته لأن عروسه شعرت ،
بوعكة لعلها من أثر الحمل . فلما دخل زوجي إلى غرفة الاستقبال رأى
فيها صورة مكبرة لزوجي الأول أبي الولدين ، فوقف يتأملها ووقفنا من
حوله ، أنا وولدي . فنظر إلينا وإلى الصورة وقال : « هذه هي الأسرة
الأولى اجتمعت من جديد » .

وشعرت في نبرة صوته بأسى المهزم الذي حاول أن يقاوم الطبيعة فلم
تنجح محاولته . وحاول أن يرث ما ليس له بحق فلم ينل ما أراد ، هنالك
أيقنت أنني أصبحت فريسة بينه وبين الولدين يجذبني كل إلى ناحيته .
وأتى لن يهدأ لذلك بالي ولن يطيب لي عيش بعد اليوم .

رباه ! . . ماذا أصنع لأنجو من موقف أنوء باحتماله ؟ ! إنني لا قدرة
لى على مغاضبة ولدى ، ولا قدرة لى على مغاضبة زوجي ، فولدائى هما
ولدائى ، وزوجي هو الذى افتداني من موقف لم يكن أحد لينقذني منه
لو لم يمد هو إلى يده ، إننى أضرع إليك ، أنا المرأة الضعيفة المؤمنة بقضائك
وعذلك ، فهبني من لدنك رشداً وهيئ لي من رحمتك سنداً أحتمى به من
هول هذا الموقف .

ولم تكذب مخاوفي ، فقد بدأ هذا الصراع الصامت بين زوجي
وولدي يتجاذبني يمنة ويسرة . وبدأت أشعر كأني الكرة يتجاذبها المتنافسان
وكل منهما في موقفه لا يريم عنه ، فكان ولدائى يذكران أن اشتغالى براحة
زوجي يشغلني عنهما ، وكان زوجي يتكلم بي قائلاً : إن لي العذر أن طغت
على أمومتى فشغلت عنه . وزوجي وولدائى لا يبدي أى منهم للآخر إلا المودة

ولحسني والقلوب مطوية على التنازع على هذه المرأة المسكينة المغلوبة على أمرها لأنها زوج تفر لزوجها بفضلها ومروءته ونبله . وأم تحب ولديها حب العبادة .

رباه . . ماذا أصنع ! عاودني إذ ذاك رجوع من تقوى صباى يوم كنت رضوان الجنة ، فأعددت في بيتنا مصلى عنيت به كما كنت أعني بمصلى المدرسة . وأكبت على فروضى أصليها لأوقاتها ، أستيظ مع الفجر أصليه حاضراً قاتلة إلى ربي داعية إياه . أستغفره وأتوب إليه ، وألبي داعي المؤذن كلما نادى : « حى على الصلاة » فأهرع إلى مصلاى فأجد فى الصلاة سكية نفسى وطمأنينة قلبى بانقطاعى إلى ربي .

وذكرت يومئذ عمى الحاجة وطرحها البيضاء ، وكانت قد انتقلت منذ سنوات إلى جوار الله . فاتخذت للصلاة طرحة بيضاء كطرحتها ، وإبنى لأصلى الفجريوماً وأقرأ القنوت إذ هتف بي هاتف : « مالك لا تحجبن بيت الله أداء لفرضه ؟ إنك إن تفعلين يغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . وتبعدين بذلك عن صراع أنت وحدك فريسته وضحيته » .

ما أرحمك يا رب وما أعظم فضلك ! . . لقد اطمأن قلبي لهذا الهائف واعتزمت لساعتي أداء هذه الفريضة الخامسة من فرائض ديني ، فلما جاء زوجي أفضيت له بعزمي فقال : أنت وما تريدن ! . . وأخبرت ولدى كذلك بأنى خارجة إلى الحج ، وما كان لهما أن يصداني عنه .

وبدأت أجهز للحج وأعد له عدتي . ومن يوم بدأت هذا التجهز شعرت بالإيمان يطرد الهم من قلبي ويحل محله النور والطمأنينة . وشعرت

بزوجى وولدى يحوطونى بعناية سعدت بها من قبل ثم نسيها من يوم حملق
فى هذا الطيف الملتف فى أكفانه وصاح بى مهدداً ونذيراً .

ما ألد حلاوة الإيمان وما أعظم سعادة المؤمنين ! . . فنذ نذرت
الحج وشغلت بالتجهز له تقشعت من حولى كل سحابة داكنة . وأقبل
على أهلى وأصحابى يهتئونى بما اختار الله لى ويطلبون إلى أن أدعو لهم
بالخير وأنا عند بيت الله المحرم . وجاءنى زوجى يوماً يقول :

« ناشدتك الله إلا ما استغفرت لى ربى وأنت تلين على عرفات
للصفح عنى إن كنت قد أخطأت فى حق صديق زوجك الأول » .
وأخذ ولداى يسألانى عما يكملان به جهاز سفرى . . ويطلبان إلى أن
أباركهما وأن أدعو الله لهما . وسمت لى صلواتى فى هذه الفترة فوق نوازع
النفس كلها . فهانت على الدنيا وما فيها وأيقنت حقاً أنها متاع الغرور ! . .

واقرب موعد السفر وتلاحقت زيارات المهتمين والمودعين . فلما
كانت ليلة البرزة وهفا بى النوم إلى مرقدى ، رأيت أبى وأمى وهما فى ثياب
الآخرة . وكأنهما ملكان يرفرفان بأجنحة من نور فوق رأسى ، ويحمدان
الله أن رضى عنى بما وهبى من تمام الإيمان بتقوى وبحجى ، ثم رأيت
الطيف الملتف فى أكفانه يبدو على ثغره ابتسامة ومحياه كله الضياء وهو
يقول : « غفر الله لك وغفر لى ، وسعت رحمته كل شىء ، إنه رب التقوى
ورب المغفرة » .

واستيقظت الفجر وصليته . ثم إذا زوجى ولداى وطائفة من أهلى
يحيطون بى يقبلونى وليس فى قلوبهم جميعاً إلا المحبة الخالصة . وركبوا

جميعاً معى قطار السكة الحديد إلى السويس ، وظلوا جميعاً معى على ظهر
الباخرة المسافرة إلى جدة . فلما آن لها أن تبحر ودعونى وكلهم يرجون الله
لى حجاً مبروراً ، وذنباً مغفوراً ، وأنا أرجوهم جميعاً من الله الهدى والرحمة .

الفصل العاشر^(١)

أبحرت الباخرة بمن عليها من الحجاج قاصدة بيت الله الحرام . فلما حاذت رابع أحرمتنا جميعاً . وفي بكرة الصبح من غدنا وصلنا إلى جدة فنزلنا من الباخرة إليها ثم تخطيناها إلى مكة ، وهنا طفنا بالكعبة الشريفة طواف القدم في انتظار يوم التروية الذي يسبق وقفة عرفات .

وكانت حالتى النفسية تمر فى هذه الأثناء موراً جاوز كل ما تصورت . لقد كنت قبيل سفرى أشعر حين صلواتى بأننى قريبة من ربى ، وأنه يسمع دعائى أكفّره عن ذنبى ليغفر لى ويرحمنى ، فلما لبست ثوب الإحرام شعرت بأننى تجردت لله جل ثناؤه ، ودخلت واسع رحمته ، ولم يبق عندى شك ، وقد جئت بيته خالصة القصد فى التوجه إليه ، فى أنه غفر لى قبل أن أودى شعائر الحج ، لأنه رب القلوب ، ولأن الأعمال عنده بالنيات ، ولأنى قصدت بابه الكريم قائنة تائبة عابدة مسلمة إليه وجهى ، آسفة على ما أسلفت من ذنوبى وأوزارى ، فهو لا يرد من قصده من عباده ما خلصت نيته فى قصده .

وبينا أنا فى هذه الحال من الطمأنينة والغبطة إذ فوجئت بما أخرجنى منها .

(١) كتب هذا الفصل وما يليه بعد زمن طويل من كتابة الفصول السابقة .

فقد وقفت يوماً عند مدرسة من مدارس الحرم فسمعت أستاذاً يحاضر الناس في الحج ويقول : « ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، بل هو قبل كل شيء حساب النفس أمام بارئها عما قدمت في حياتها ، وهل أدت للحياة واجبها بما يرضى الله ويرضى الضمير ، فلم يحملها غرورها على اجتراح الآثام إرضاء لأهوائها ، ولم يوسوس لها الشيطان بأن الحياة حق للحى وليست واجباً عليه لله ، وللناس ، ولنفسه » .

زلزل هذا الكلام نفسى وأخرجنى من بلهنية الطمأنينة التى كانت تشتملنى وعاد بى إلى ماضى حياتى أنشره أمام بصيرتى ليكون صحيفتى عند ربى ، وليكون ما أذرف من دمع التوبة عما فرط منى شفيعى إليه تعالت أسمائه .. صدق الأستاذ ، ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، ولكنه حساب النفس واعترافها بذنوبها ، قبل أن تحاسب حين يتوفاها ربها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ! ..

كانت هذه المرحلة من مراحل نفسى أشق المراحل على وجدانى . لكننى صمدت لها واجترتها بإذعانى وإسلامى ، وبإقارارى بعجزى وضعفى ، وباعترافى الكامل بذنوبى وضراعتى إلى الله أن يغفر لى بعد الذى بلوت فى حياتى من محن كانت الجزاء العدل عما كسبت نفسى . ولقد شعرت بعد اجتيازى هذه المرحلة برضا ملاً جوانحى وانتشر فى كل وجودى ، كما أضاء أمام بصيرتى نور يهدينى السبيل إلى بارئى ، فحمدته جل شأنه وازددت تواضعاً لله وثناء عليه وتسليماً بقضائه وإسلاماً لأمره .

وإننى لسعيدة بما أنا فيه من حال الرضا ، أصلى بالحرم الشريف

كل فروضى ، وأطوف بالكعبة كل يوم ، إذ رأيت مالم أكن أتوقع .
فقد صليت العشاء الآخرة ذات مساء ثم ذهبت إلى مضجعي فرأيت
فيما يرى النائم أنى هممت بأن أسعى بعد طوافي ، فقصدت إلى باب
الصفاء لأخرج منه إلى المسعى ، فإذا سيدة تقبل علىّ تقبلني وتعانقني ،
فرفعت إليها عيني لأتيناها ، فلما رأيتها لم أملك نفسي من الدهشة .
فتلك صديقتي . . نعم صديقتي التي اشتهرت بالخفة إلى حد الطيش .
وقلت لها والدهشة لا تزال تملكني : « أنت هنا ! » . قالت : « نعم ، مع
زوجي ، وقد رأيتك مقبلة علىّ فشعرت ، ونحن في بيت الله ، بأنا أختان
إن فرقت بيننا أهواء الدنيا في بلادنا ، فلا شيء يفرق بيننا في هذا البيت
العتيق ! » وزادني كلامها هذا دهشة ، فها عهدتها تنطق بمثل هذه الحكمة
من قبل ، وقبلتها كما قبلتني ، وأردت أن أسأذنها لأخرج فأسعى فأمسكت
بيدي وقالت : « سأسعى معك » وسعينا وكلثانا تدعو وتستغفر ربهما وتتلو ما
ألقى عليهما أن تتلوهُ في رواحنا وجيئتنا بين الصفاء والمروة ، فلما أتممنا سعينا
سألتني عن موعد طوافي الغداة وقالت : « سأكون إلى جانبك نظوف معاً
كما سعينا اليوم معاً » .

ثم رأيتني عدت إلى مسكني ولم تنقض دهشتي ، ولا أكاد أصدق
ما رأيته عيني ، فلما ذهبت صبح الغد للطواف ألفت صديقتي في انتظاري .
وتقدمت نحوي حين رأيتني وقالت : إن لي معك حديثاً قصيراً قبل أن نبدأ
الطواف . لقد هتف الليلة هاتف بي تبينه طيف زوجك الأول استحلقتني
أن أقسم لك أمام هذا البيت المحرم أنى ما كانت بيني وبينه قط ريبة .

وأتى ما أحبه ولا أجنبي . وأنا لم تزد مودتنا على موجب الصداقة البريئة الطاهرة أملاها على واجب الاعتراف بجميله لما صنعه لي ولأولادي من استخلاص ميراثنا ، وأملتها عليه مروءته وشهامته . ثم إنها جذبتني من يدي قبل أن أتمكن من أن أؤكد لها اقتناعي بصحة قوطا ، فلما كنا قبالة الحجر الأسود أقسمت هذه اليمين ثلاثاً ثم قالت : والآن سامحيني يا صديقتي ليغفر الله لك ولي . وأجبته : بل سامحيني أنت فيما كان من سوء ظني بك ، وإفساد زواجك بمن تزوجته أنا ، وأقسم لك كما أقسمت لي أمام هذا البيت أنني يوم أفسدت هذا الزواج لم أكن أفكر في التزوج من صديقنا برغم ما أذعت أنت من ذلك . قالت فسامحيني في هذه كذلك فإنما كنت أدافع عن نفسي وعن شرفي ، وسامحتني وسامحتها وأقسمنا على أن نعود لصداقتنا الأولى ، ثم طفنا حول الكعبة أداء لواجبنا ، وتوكيداً لقسمنا ، وافترقنا وكلتانا تحمد الله أن طهر قلوبنا وغسل برحمته ما غسل من ذنوبنا وتدعو الله لبنينا ولدويها أن يكلاهم برحمته وعنايته .

واستيقظت لصلاة الفجر وأنا أسائل نفسي عن سر ما رأيت في نومي ، ثم ذهبت بعد أن أسفر الصبح ألتمس الأستاذ الذي يحاضر الناس في الحج فقصصت عليه حالي ، وكيف اطمأنت نفسي وبلغت من الرضا غاية ما أطمع فيه ، ورغبت إليه أن يفسر لي ما طاف بي وأنا مستغرقة في نومي ، فقال : « إنه من الواضح يا سيدتي بما لا يحتاج إلى تفسير ، فمن أنعم الله عليه فبلغ مثلك حال الرضا يجب أن يطهر قلبه وأن يطهر عقله الباطن من كل موجدة على أي إنسان ، وأن يغفر للناس خطاياهم كما

يطمع في أن يغفر الله له خطاياه . ولا يزال قلبك واجداً على هذه السيدة ،
ولا بد لك إن شئت لحال الرضا أن تدوم أن تطردى هذه الموحدة من قلبك ،
ومن ذاكرتك . ليكون تجردك لله خالصاً صادقاً مصدره حب الناس جميعاً ،
والمغفرة لكل مخطئ ، والاستغفار عن كل خطيئة ، ومن أتم الله ذلك
له دام له الرضا في الدنيا وفي الآخرة » .

وتحظيت فناء الحرم والدمعة تنحدر من عيني ، ووقفت في مقام
إبراهيم ورفعت يدي إلى السماء وهتف قلبي : « ما أكرمك ربى ! أجديرة
أنا بكل هذه العناية ؟ أم أن أعظم الناس ذنباً أدناهم إلى عفوك وبرك ،
رب إنى لأشعر في أعماق روحي بأن قلبي لا يزال في حاجة إلى أن يتطهر
ليكون خليفاً بأن يسمو إلى حضرتك ويشرف بالمثل في مقامك الكريم » ! ..
وطال وقوفي وابتهالى إلى الله ودعائى إياه أن يهينى القدرة حتى يتطهر
قلبي ووجدانى ليدوم لى رضاه عني ، فلما آتممت ابتهالى جلست مع الجالسين
في مقام إبراهيم حتى إذا سكن روعى وهدأت نفسى وعادتنى طمأنيتى
قمت فصليت ثم طفت بالكعبة ثم انتحيت جانباً قريباً من باب الصفا .
هنالك ذكرت ما رأيت في نومي فقامت فسعيت بين الصفا والمروة وتلوت
ما ألقى على أن أتلوهُ وأنا أسعى ، وسمعت المؤذن ينادى لصلاة الظهر وأنا في
آخر أشواط السعى . فدخلت الحرم من جديد فصليت وراء الإمام ثم
انصرفت إلى مسكنى .

وشعرت حين خلوت إلى نفسى بأننى خلوت إلى حال جديدة من حالات
نفسى . فلا بد لى إن أردت أن يديم الله ما أنعم به على من حال الرضا .

أن أمحو كل موجدة من قلبي وأن أحب الناس جميعاً وإن تكون محبة كل ما خلق الله شعاري ليشرح الله لي صدري ، ويرفع عني وزري . فتطمئن نفسي وأرجع إلى ربي راضية مرضية . . أتراني أستطيع أن أفعل ؟ ذلك ما ابتليت فيه إلى الله ليهيئ القدرة عليه . والله سميع مجيب .

فلما كان المساء وصليت العشاء الآخرة نشرت صحيفتي أمام بصيرتي راجية أن يحو الله منها كل شائبة من وزر أو شبهة من هوى . وقرأت في هذه الصحيفة أول ما قرأت ما كرره لي زوجي الأول من أن الغيرة والغرور هما مصدر علتي وسبب ما أرهقته وأرهقت نفسي وولديَّ به من متاعب وبلاء . وسرعان ما تيقنت أنه رحمة الله عليه كان ثاقب النظر ، وأن غيرتي وغروري جسماً أنايتي فصرت لا أرى غير نفسي ، وأفرغت كل ما في نفسي من حب على هذه النفس الأماراة بالسوء ، ولولاً أمومتى وحبي ولديَّ وهما بعض نفسي لأنكرت الحب وأنكرت كل ما يتصل بالحب من عواطف . فأنايتي هي التي دفعتني للغيرة من صديقتي لأنني لست جميلة جماها ، ولست فاتنة فتنها ، وأنايتي هي التي دفعتني للاغترار بنفسى والإيمان بذكائي وسحر حديثي ، وإيثار من يؤمنون بهذا الذكاء وهذا السحر ، فيدفعهم إيمانهم إلى الإعجاب بهما وإنكار ما سواهما . وأنايتي هي التي جعلتني كذلك أسيرة نفسي فأذلتني لها وضربت حولي نطاقاً من سجنها وحالت دون تبادل مع الناس جميعاً أكرم العواطف ، فلو أننى محوت بفضل من الله أنايتي ، أو تغلبت على الأقل عليها ، لحطمت جدران سجنى ولخرجت من عزلتي ولأحببت كل ما حولي ومن حولي ، ولتطهر بذلك قلبي ودامت على

نعمة الرضا من ربى .

وجاهدت منذ ذلك اليوم نفسى ، فلم أكن أرى فى الحرم امرأة تبدو عليها مظاهر الهم والألم إلا سكبت فيها من روحى ما يزيل همها وألمها ، سواء على عرقها أم لم أعرفها . ولم أكن أسمع أنه مريض أو مكلوم القلب حتى أخف لشفاء مرضه ، أو لشفاء قلبه . ولم أكن أشعر بأنى تتحرك فيما استبطن من أعماق وجودى حتى أقطب جبينى لها وأردها إلى أعماق سجنها . بذلك صرت لأفرح لأفراح الناس ممن حولى ، وأتألم لآلامهم ، ولذلك رجوت أن يشفىنى الله من علتى وأن يقبل بفضلته خالص توبتى ! . .

وجاء موعد الحج فقصينا مناسكه . صعدنا إلى عرفات نلبي داعى ربنا ، ونشهد بوحدانيته لا شريك له ، وأن الحمد والنعمة والملك له تعالت أسماؤه . وهناك ابتهلت إليه ودعوته لكل من رغب إلى أن أدعوا الله ليبارك عليه وليهديه ويغفر له ويرحمه ، وكان أحردعائى لولدى أن ينجيهما الله من شر نفسيهما ، ومن الوقوع فى مثل آثامى ، وإلى والدى أن ينجيهما الله بما أحسنا إلى ، وإلى زوجى أن يبلغه الله مراتب الرضا ، وإلى الطيف الملتف فى أكفانه زوجى الأول ، أن يشبه الله وأن يسكنه الجنة جزاء عفوه عنى برغم ما أسأت إليه ، ودعوت الله كذلك إلى الأقربين من أهلى وذوى رحمنى كل باسمه ، وإلى الناس جميعاً أن يرفع الله عنهم مقتته وغضبه وأن يهديهم سواء السبيل .

وآن لنا بعد أن طفنا طواف الوداع وسعينا سعيه أن نذهب إلى مدينة الرسول عليه السلام ، وأنا أرجو أن أظل فى رحابها حتى يقبضنى الله إليه بها ، وأن أدفن فى ترابها .

لا قدرة لى على تصوير شعورى حين أهلت المدينة وطالعتنا أعاليها
ونحن منها على مدى النظر ، لقد كانت عمى تحدثنى بعد حجها أنهم
لما شافوا المدينة رأوا النور يتلألأ فوق القبة الخضراء من قباب المسجد
النبوى ، أما أنا فلم تر عيني حين شارفت المدينة إلا ما يراه من يقبل على أية
مدينة فى العالم ، وكنت كلما اقتربنا منها ووضحت معالمها وتبيننا قبابها
تمنيت لو كانت أدق نظاماً وأحسن عمارة ! . . وكذلك كان شعورى
منذ دخلتها . ولا يزال هذا الشعور آخذاً بنفسى إلى اليوم ، ولا أزال أدعو
الله فى صلواتى أن يهيئ لها من يحسن عمارتها ، ومن ينهض بكل مرافقها
إلى مستوى الحضارة فى أرقى صوره .

لم تر عيني حين شارفت المدينة نوراً يتلألأ فوق القبة الخضراء لكننى
أحسست بقلبي يملؤه النور أول ما علمت أننا نفترّب من قبر الرسول الكريم ،
وقبل أن تطالعتنا قباب مسجده ، وانتشر النور من قلبي فى كيافى كله ،
وأعاد إلى ذاكرتى كل صفحة من حياة النبي العربى قرأتها قبل حجى ،
ولعل هذا النور الذى أضاء روحى وانتشر فى كل وجودى كان ينتقل من
قلب عمى وأمثالها إلى أبصارهم فيرونه متلألأ فوق القبة الخضراء ولا تخالج
نفوسهم إثارة ريب فى أنه منبعث من قبر الرسول الكريم الكائن تحتها ،
والإيمان ينير البصائر كما ينير القلوب ، فترى الأبصار بفيض من قوة هذا
الإيمان ما لا نرى ، وتقص صادق ما لا ريب عندها فى أنها رأته رؤية
مادية كما رأت القبة الخضراء نفسها .

ودخلنا المدينة وأزلت عنى غبار السفر وقصدت لتوى إلى مسجد

الرسول فصليت في الروضة النبوية الشريفة صلاة القدم ، ثم إنني زرت
الحجرة النبوية الشريفة ووقفت قبالة قبره صلى الله عليه وسلم أسأله الشفاعة
يوم الدين . وما لبثت حين بدأت أدعورني ليقبل شفاعة رسوله في أن
انهملت عبرتي وخفقت قلبي وانعقد لساني كأني في حضرة ملك عظيم ،
بل كأني في حضرة أعظم الملوك وأجلهم قدراً وأوسعهم سلطاناً ، وإن يكن
سلطانه سلطان بر ورحمة ، لا سلطان جبروت ونقمة ، ولم أستطع وتلك
حالي أن أغادر مكاني ، فتشبث بأعواد الحجرة حتى دفعني الزائرون
والزائرات عنها ليلثموها تبركاً بها . هنالك جلست قبالتها وأطلت التحديق
فيها وقلبي مأخوذ عن كل شيء إلا عنها ، ونظري ثابت نحوها لا يتحول يمنة
ولا يسرة . فلما انحلت عقدة لساني أخذت أدعو من أعماق قلبي رسول
البر والرحمة والتوبة والمغفرة أن يديم الله ما أنعم به عليّ من حال الرضا ،
وأن يفتح قلبي لمحبة الناس جميعاً ، ومحبة أمثالي الذين أسرفوا في حياتهم
على أنفسهم ، وأن يسعنا جميعاً في رحابه ، وأن يتقبل توبة التائبين ، وأن
يدخلهم فسيح رحمته .

وانتخبت لي مكاناً في الروضة الشريفة أصلي فيه كل يوم فرائضي
الخمس ، وأدعو الله مخلصاً أن يقبل توبتي ، وأتلو فيه من سيرة الرسول
ما أتحذ منه الأسوة الحسنة ، مع إقرارى بعجزى عن السمو إلى ذباك المقام
وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

وشعرت بقلبي يزدد كل يوم طمأنينة . وبنفسي تزدد كل يوم هدى ،
فدفعني ذلك إلى التفكير في المقام بالمدينة أجاور الرسول الكريم ما بقي

من أيامي ، لكنني تركت بالقاهرة زوجاً أحسن إلىّ ولديين يشاقهما قلبي ، وتحنُّ إلى نظرة منهما نفسي ، ولئن استطعت أن أدعو الولدين لأراهما بالمدينة ولو مرة في كل عام ، فليس من حق أن أقيم بها إلا أن بأذن لي زوجي ، لذلك كتبت إليه كتاباً رقيقاً أشرح له فيه ما مرَّ من أحوالي وأشكر الله ما أنعم به علي ، وأستأذنه في المقام بجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يختارني ربي ، وأقمت أنتظر الجواب على خطابي . ولدهشتي وفرحتي جاءني بعد قليل كتاب زوجي ينبئني بأنه قادم إلىّ ومعه ابنتي ، وأن ابني كان يود أن يحضر لولا أن أمسكته مصالحتنا في مصر ليرعاها .

ولم يطل انتظاري مقدمهم ، فبعد أيام من تناول كتاب زوجي تسلمت بركة بأنهم أبحروا من السويس إلى ينبع في طريقهم إلى المدينة ، أتراني أنتظرهم حتى يحضروا إلىّ ، أم أخف للقائهم بينع ؟ كان الجواب على هذا السؤال مدار نزاع حامى الوطيس بين روعي وقلبي ؛ قلبي يحركه الشوق إليهم فيدفعني دفعا عنيفاً لأذهب إلى ينبع . وروحي تحدثني بوحى من عقل أنهم سيبلغون المدينة مساء اليوم الذى تستقبلهم بينع في صباحه ، وليس يشق علىّ أن أنتظرهم هذه الساعات فلا يخلو مكاني في أثنائها في الروضة النبوية ، ولا أشغل خلالها بشيء عما أخذت به نفسي من عبادة ربي . وغلبت روعي آخر الأمر فأذعنت مؤمنة بأن غلبها كان بقضاء من الله وقدره ، وبقيت بالمدينة أنتظر القادمين العزيزين من غير أن أنقطع عن أداء ما لله علىّ من حق .

واستقبلتهما وأنا في ثيابي الناصعة البياض ، وحياتي زوجي في شوق وإكرام وتعني لي حباً مبروراً ، وقابلت تحيته بمثلها في تواضع واحترام . أما ابنتي فاندفعت إليّ تقبلني وتعانقني وتضميني إلى صدرها فأشعر في هذه الضمة البنوية الصادرة من أعماق قلبها وكأنها تريد أن تعود بضعة مني كيوم كنت أحملها في أحشائي ، فيزداد قلبي وقلبها امتزاجاً ، وأحس بأننا روح واحد في جسدين ، فلما فرغنا من حياتنا وقبلتنا وعناقنا وذكرت لهم أني دعوت الله لهم ولأهلنا جميعاً سألت ابنتي : وكيف أخوك ؟ قالت : بخير يا أماه وهو يسأل متى تعودين إلى القاهرة ؟ ولحمت زوجي فإذا هذا السؤال مرتسم على وجهه ، وإذا هو ينتظر أن يسمع جوابي عليه ، قلت : ذلك ما ستحدث فيه بعد أن تقيا معي أياماً . وبعد برهة صمت قال زوجي : أولاً يجب علينا أن نذهب إلى الحرم نؤدى لصاحبه عليه الصلاة والسلام تحية القدم ، قلت : ذلك لكما ، وسأرافقكما . لكن الواجب عليكما أن تقرأ سيرته لتقدرا شرف مثولكما في حضرته حق قدره . وهذه السيرة عندي يستطيع أيكما أن يقرأها إذا قام الليل إلا قليلاً . فإذا هوزار الحرم بعد ذلك ووقف أمام الحجرة الشريفة استنار قلبه بنور صاحبها ، وعرف كيف يجتمع الحق والخير والإيثار وإنكار الذات وسائر المعاني الرفيعة في نفس واحدة ، هي ملاك المعاني السامية كلها ، وهي القدوة خير قدوة لمن شاء أن يتبع خطاها ويسير في أثرها .

وقرأ زوجي وقرأت ابنتي السيرة وأخذنا يصحباني كل يوم إلى مسجد صاحبها ، ويجلسان معي في الروضة يصليان ويتعبدان ، على أنني شعرت

بعد أيام أنهما يحسبانى أبالغ فى تقواى ، فلم أعر حسبانها هذا بالأ ،
لأننى أدركت مما رأيت منهما أن أمراً خاصاً يشغلها ، وخلا إلى زوجى
يوماً بين صلاتى العصر والمغرب إذ كانت ابنتى فى الحرم فسألنى : والآن
هل أستطيع أن أعلم متى اعترمت العود إلى القاهرة ؟ فقلت : أوتذكر لى
أنت ما حدث بين ابنتى وزوجها ؟ . فأجبنى وقد علت الدهشة : وكيف
علمت ؟ . . وهل كتب إليك أحد من مصر بما حدث ؟ ! قلت : كلا ،
ولكنه إحساس خامر قلبى وشهد به عندى ما كانت تنم عنه أسارى كما
كلما جاء ذكره فى حديثى معكما . قال مبتسماً بدء حديثه ، بادية عليه
سما الأسف حين استطرد فيه : « لا يزال ذكاؤك لماحاً برغم تقواك .
وكنت أحسب أن الذكاء والتقوى لا يجتمعان ، أما وقد اجتمعا فلن
أستطيع أن أخفى عنك شيئاً ، والأمري يحتاج فى معالجته إلى حكمتك
وبصيرتك . إن ابنتك وزوجها يكثر اختلافهما حتى لأضيق أحياناً
بهما حين يحتكما إلى فأحاول إصلاح ذات بينهما ، وقد استطعت إلى
عهد قريب أن أتغلب على منازعاتهما وأن أردهما إلى حمى الصلح والسلام ،
ثم استفحل خلافهما فى الفترة الأخيرة حتى خشيت انفصالهما وكدت
أياس من إمكان تفاهمهما ، وإنا لكذلك إذ جاءنى كتابك تستأذنينى
فى البقاء بالمدينة هنا ، وقد انتهرت فرصة تناوله واتخذت منه حجة للكلام
فى غير ما يشتد جدلها حوله ، ثم رأيت حين قررت المجئى إليك أن تصحبنى
ابنتك راجياً أن يبعث بعدها شوق كل من الزوجين إلى صاحبه فينسيهما
الشوق خلافهما . هذه قصتهما وقصتى معهما ، ولن يستطيع أحد ما تستطيعين

أنت علاجاً لحال يعصى على أمرها وأخشى أن يفلت من يدي زمامها .

قلت : فلنستعن بالله فيما يعصى عليك . . فإذا جاءت ابنتي خاطبتها
أمله أن أردّها إلى صوابها ، لتردّ هي زوجها إلى صوابه .

وذهبنا إلى الحرم وصلينا المغرب والعشاء وراء الإمام ، ثم عدنا وعادت
ابنتي معنا .

فلما تناولنا طعامنا ، واستقر بنا المجلس ، قلت لها : لقد دار
بظني أنك على خلاف مع زوجك إذ كنت أراك وعمك تنقبض أساريركما
كلما جرى اسمه على لساني ، وقد سألت عمك عن ذلك فأخبرني
أنكما بلغ من أمركما أن خشي انفصالكما ، وأن كاد يئأس من إصلاح
ذات بينكما ، فقمم تختلفان ؟ . . قالت - وهي تحبس دموع ترفرفت في
عينها : « لقد أصبحت حياتنا لا تطاق يا أماه . . إن زوجي يريد أن
يستأثر بكل شيء داخل المنزل ، على حين لا أسأله أنا شيئاً فيما خرج عن
دائرة المنزل ، إنه يريد أن يكون السيد المطاع ، وأن تكون كلمته أمراً
لا أناقشه فيه ، فإذا أردت أن أبدى له ملاحظة عن لون ثيابه أوزيه قال :
مالك أنت وذاك ؟ هي ثيابي أنا ، متناسياً أن ما يوجه إلى ثيابه من نقد موجه
إلى ذوقي وحسن عياني ، وهو يريد مع ذلك أن يكون صاحب الرأي في
ثيابي . في لونها وقماشها وتفصيلها ، وأنت يا أماه تعرفين أن الرجال لا يعلمون
شيئاً عن ثياب النساء ، فالنساء يغيرن أزياءهن والرجال معجبون دائماً
بكل ما يصنعن ، حسب المرأة أن تملق غرور الرجل فتسأله رأيه في ثوبها
ليبدى غاية الإعجاب بالثوب وبها ، وهذا وإن أوهمت المرأة زوجها بأنها

تستشيره قبل أن تختار القماش وطرز الثوب ، وبلغ من أمر زوجي معي حين ثرت باستبداده أن قال يوماً : « إنني لا أريد أن تصيرى إلى ما صارت إليه أمك ! ! » عند ذلك رأيت الكأس قد طفحت ، وأنه وقد تخطأني إليك اليوم ، فإنه سيتخطاك إلى أبى غداً ، وإذا لم تقم الحياة بين الزوجين على تبادل الاحترام فلا خير فيها ، فالحب الذى يتجاوز الاحترام لا يبنى وحده لاتصال الحياة بين الزوجين » ! . .

شعرت بأن ابنتي ذكرت إشارة زوجها إلى مصيرى لشهر حماسى . لكننى كنت أشد حرصاً على مصيرها هي ، لذلك سارعت فأجبها : « لا تحسبى رجلاً يستطيع أن يستبد بامرأة إلا أن يكون وحشاً كاسراً ، أو تكون المرأة عنيقة فقدت كل معانى الأنوثة . أو مغرورة عبثت بها أنانيتها فلم يبق لزوجها إلا أن يفرض وجوده عليها » .

قالت ابنتي : « فأشيرى علىّ يا أماء ! . . أنت تعلمين أننى أحب زوجي وأنه يحبني ! . . لكننى أرى أن مشاركته فى الصغير والجليل من الشئون فقدان ثقة بي ، ولشد ما أخشى أن أبادله عدم الثقة فيكون لذلك من سوء الأثر فى حياتنا ما أريد جهد طاقى تجنبه » ! . .

قلت : « فاسمعى يا صغيرتى ، لا تطلبى إلى زوجك أن يثق بك ثقة عمياء ، وهولن يطلب إليك مثل هذه الثقة به ، أنتما شريكان فى كل شئ ، ومن حق الشريك أن يحاسب شريكه ، لقد خبرت هذا الأمر وبلوت من مره علقماً ، فثقة أبيك العمياء بي هي التى أضلتنى ، وسبقه إياي إلى رغباتي هو الذى جر عليك وعلى أخيك أبلغ الضرر ، فهو لم يكن

يراجعني أو يصدني عن شيء وقد كنت معرضة للخطأ فيه ، حسبته مني أنه كان يحبني وكنت أول سني زواجنا أحبه ، وأنتي لم أكن أسأله عن شيء في عمله لأنني لم أكن أعرف ألف الطب ولا بابه ، وكان ذلك دافعي يومئذ لأرغب إليه في الانتقال من الطب إلى السلك السياسي ، ليكون سلطاني أفسح مدى ، لكنه أبى وأصر على إباته ، عند ذلك بدأ حبي إياه يضطرب في نفسي . والحب إذا اضطرب فقصيره إلى الاحتضار والموت . وما قيمة حب لا مظهر له إلا أن يقول الرجل للمرأة ، أو تقول هي له : إنني أحبك ، وألا يلتقيا إلا لإنجاب ذريتهما ، وألا يحاول كل منهما أن يكمل نقص صاحبه ليسمويه إلى ما يقربه من الكمال . ولو أن أباك راجعني بدء زوجيتنا فيما يخشى أن أتعرض للخطأ فيه وردني برفق لا يعرف العنف الذي كنت أراجعه به بعد أن فتر حبي له لما بلغت الأمور بيننا إلى ما تعلمين من انفصالنا . فلا تبالغي يا صغيرتي إذ تتحدثين عن حرص زوجك على الاستئثار بشئونك ، بل تسامحا وتشاورا وتشاركا في كل ما تستطيعان فيه تسامحا أو مشورة أو اشتراكا ينتقل ذلك بحبكما من القلب إلى الروح . ولا حب كالحب بالروح بقاء ودواما .

أحسنت ابنتي الإنصات إلى حديثي . فلما فرغت منه قالت : وعلى ثغرها ابتسامة تشوبها السخرية : سامحيني يا أماه إذا قلت إنك لم تعرف الرجال بعد برغم خبرتك الطويلة ، إنهم لا يكفيهم أن يستأثروا بأجسامنا ، فهم يريدون أن يستأثروا بقلوبنا وعقولنا وأذواقنا وكل شيء في وجودنا ، إنهم لا حدَّ لأنانيتهم ، وهم أشد حرصاً على أن يستأثروا بكل

ذلك من المرأة ما كانوا أشد لها حياءً ، وحرصهم يتجاوز كل حد إذا بلغ حبه العيادة ، فإذا لم تصدهم المرأة عن غيهم في الاستئثار المطلق بها فتي أمامهم وجودها وأصبحت أمة رق لهم ، وهذا ما لا أرضاه ولن أرضاه مخافة الغد وما أخشاه من مذلتى فيه .

وابتسمت كما ابتسمت وقلت : أنت على حق يا صغيرتى ، أنا لم أعرف الرجال بعد كما عرفتهم أنت ، ولكنما عرفت أن الرجل ضعيف عنيف ، وأن المرأة ضعيفة قادرة ، فالرجل إذا استثير جابه الخطر ولو كان في مجابهة الخطر حتفه ، وجابهه مضطرب الروية زائغ البصر ، غير مؤمن بسلاح غير سلاح العنف . أما المرأة فالعنف ألد أعدائها . هى حمامة السلام ، فإذا نصبت نفسها للقتال فويل لها وويل للسلام ، وقدره المرأة في ذكاء أنوثتها ، هذه الأنوثة الذكية هى السلاح الحاسم الذى تستطيع به كل شيء ، وتستطيع به أن تملك عقل الرجل وقلبه وروحه وكل حواسه . والأنوثة الذكية تأنف العنف في كل مظاهره ، لأنها تدرك ما للرفق والمحبة من سلطان قاهر يعنوله العنف ويتلاشى أمامه . بالرفق والمحبة تجعل المرأة هزيمتها نصراً وإذعانها أكبر من النصر ، فعالجى با صغيرتى زوجها بذكاء أنوثتك وأنا كفيلة لك بأنه سيكون طوع إرادتك في كل ما تطلبين .

قالت ابنتى في استسلام مصطنع : « سأحاول يا أماه ، ولعلى أجد في حياتك درساً لى ، وإن كنت أخشى أن تغلبنى كبريائى يوماً فلا أبلغ ما يشد حرصى اليوم عليه » .

وقاطعتها في عنف قائلة : « تعساً لباطل الكبرياء الذى ينفث فينا سموم الغرور ، إنه هو الذى يهزمنا ويذلنا حين يكون النصر في قبضة يدينا . لا شيء يا ابنتي خير من التواضع ما لم ينزل بصاحبه إلى هوان المذلة ، وإنني لأدعو لك من كل قلبي أن تبلغ أنوثتك من الذكاء ما يفتح لك بالتواضع أبواب السعادة والهناء » .

قالت : ومتى تحضرين إلى القاهرة يا أماء لتسددي من خطاي ما أخشى أن يتعثر ، ألا تعودين مع عمي ومعى ؟
وأجبتها : « ذلك ما سأحدث عمك فيه ، فأنا لا أستطيع أن أبقى هنا أو أعود إلى هناك بغير إذنه ، وسأكشف له عن مكنون صدري ولا مردّ بعد ذلك لحكمه . »

وأدركت ابنتي من عبارتي أنني أريد أن أدخل إلى عمها أحدثه فانسحبت متلطفة وقالت : أنا ذاهبة إلى مخدعي فلتمسيا بخير . ورددنا تحيتها بمثلها .
فلما خلونا قال زوجي : « أخشى أن يكون حوارك مع ابنتك قد أجهدك وجعلك في حاجة إلى الراحة ، فإن شئت تحدثنا عن عودك إلى القاهرة بعد صلاة الفجر » ! . .

وأجبتة : « الأمر على عكس ما تظن . فقد أيقظ هذا الحوار كل حواسي وأطار كل خاطر للنوم من رأسي . فإن لم تكن أنت بحاجة إلى الراحة فإني مفضية إليك بذات نفسي . أما إن أثرت أن تستريح فأنا وما تريد » .

وآثر هو أن يستريح فنمت بجواره وألصقت جسمي بجسمه وشعرت بالدفع يسرى منه إلى كل وجودي ويبعث إلى قلبي من الطمأنينة ما سكن

من يقظة أعصابي وهفا بي إلى النوم ، واستيقظت مع الفجر وأيقظته وصليت مؤتمة به . فلما فرغنا من صلاتنا ومن دعائنا قال :

- ألا ترين أنك تظلميني إذا بقيت هنا وتركتني أعود إلى القاهرة أعانى الوحدة وآلامها ، إننى أدرك بعد الأيام التى أقمتها بالمدينة حلاوة هذه الحياة التى تحيينها ، تقضين معظم نهارك وطرفاً من الليل فى الحرم على مقربة من الرسول الكريم ، وكم تمنيت لو استطعت أن أجاوره كما تجاورينه ، لكنك تعلمين أن مصالحننا بمصر تحول بينى وبين هذه الأمانة العزيزة . . . ولك علىّ إن أردت أن تحببى كل عام وأن تزورى أن أعاونك على ذلك ، وأن أصحبك فيه كلما استطعت إلى صحبتك سيلاً .

قلت - وقد ازداد قلبي رقة لهذا الرجل المحسن الكريم : « عزيز علىّ أن أدعك تعانى الوحدة فى مصر وأنت الذى أنقذتني منها . وكم نازعتنى نفسى إلى العود معك ، ولو أننا تحدثنا فى هذا الأمر يوم مقدمك إلى هنا لهفت نفسى إلى ما تريد ، فقد كنت أشعر يومئذ أنى بلغت من تطهير قلبي إلى ما يديم علىّ حال الرضا التى أكرمنى الله بها ، لكن الأيام التى قضيتها معى هنا أرهفت حسى نحوك وجعلتنى أشعر لك فى أعماق قلبي بما لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه ، نعم ! إني أحبك الآن حب امرأة لرجل ، فجسمى يهواك كما يحبك قلبي ، وأخشى أن ينسبني هذا الحب وهذا الهوى محبة غيرك ممن خلق الله ، وما خلق الله ، فإن حدث ذلك ، وشد ما أخشى أن يحدث ، زالت عني حال الرضا وعدت أعانى من حساب الضمير عن ماضى حياتى ما أنوء به . قد يكون هذا الحب العنيف من نزع

الشيطان ، وقد يكون اختباراً يريد به ربى أن يبلوئى وأن يشهدنى على ضعف
نفسى وباطل غرورى ؛ إذ أظن أننى سموت إلى مرتبة رضاه وروحى لا تزال
تتجاذبها الأهواء ويختلط فيها الخبيث بالطيب ، فهل لى أن أرجوك ،
وأنت الزوج المحسن الكريم ، أن تدعنى هنا أتابع ما بدأته من تطهير قلبى
حتى أطمئن إلى نقائه ، ولعلك إن عدت للزيارة فى شهر رجب ألفتنى فى
طاعة الله وطاعتك سبابة إلى مرضاتك » !

كنت أنظر إليه وأنا أخاطبه بعينين ملثتا عطفاً ومحبة ، ثم كنت
أراه مع ذلك مشدوهاً كأنما أخاطبه بلغة غير مفهومة . وقد ظل بعد
أن فرغت من حديثى تعلوه الدهشة وكأنما يريد أن يتبين ما أريد فلا يسعفه
ذكاءه ، وبعد برهة ساد فيها بيننا الصمت قال :

أصدقك أننى لم أفهم كل ما قلته ، لكنك ذكرت أنك أصبحت
تحبينى الآن حب امرأة لرجل ، أو أفهم من ذلك أنك لم تكونى تحبينى
قبل أن تحضرى إلى المدينة ؟ ! وسارعت فأجبتة : « لا تبالغ يا عزيزى
ولا تحمل ما قلته معنى لا يحتمل ، إنما قلت إننى أحبيتك منذ جئت إلى هنا
حباً لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه . ولا أخالك تريدنى على أن أقص
عليك قصة عاطفتى نحوك من قبل فأنت تعرفها ، وتعرف ما كان من حديث
بعضهم عنها ، وكل الذى أرغب إليك فيه ألا تأخذك النشوة بحبى إياك
اليوم ، وأن تدعو الله معى أن يديم على هذا الحب سلطانه من غير أن
يحبسنى فى سجنه ، وأن يدع قلبى مفتوحاً لحب كل ما خلق ومن خلق
حتى يدوم لى عفوه عنى فأبقى فى حال الرضا التى أنعم بها علىَّ .

لم يدعنى الرجل أستطرد فى الحديث بل قال :
- بل أريد أن تقصى على قصة عاطفتك نحوى فذلك أدنى لفهمى
وأحب إلى نفسى .

قلت : أترأك راجعك شبابك يوم كنت تريد أن تتزوج صديقتى ؟
ولكن لا بأس بأن أجيبك إلى ما يرضيك ، أنت تعلم أننى عرفتك أول
ما عرفتك الصديق الوفى لزوجى الأول ، كما كنت الصديق الوفى لصديقتى ،
كنت يومئذ أستريح إلى مجلسك ، وآنس بحديثك ، وأغبط بحسن
إصغائك إلى حديثى ، فكنت إذا جئت إلينا سررت بليقائك ، وحرصت
على استبقائك عندى أطول زمن ممكن ، فلما أشركت زوجى الأول معك
فى معاونة صديقتى على استخلاص ميراثها لم أجد بذلك أول الأمر بأساً ،
لكنكما بالغتما من بعد فى عنايتكما بهذا الأمر مبالغة أثارت نفسى بكما .
وأقنعتنى بأن جمال صديقتى ، لا الوفاء لأولادها أو لذكرى زوجها ، هو الذى
يدفعكما إلى هذه المبالغة . ولقد كدت ، لمبالغة زوجى الأول ولكثرة تردده
على صديقتى . أحملك أنت التبعة لأنك شجعتهم على هذه المعاونة ودفعته
إليها . فلما أردت أن تتزوج صديقتى عرضت لى فرصة نادرة للانتقام منك
ومنها فأفسدت هذا الزواج ، ومرضت أنت بعد ذلك واستبد بك المرض
فتولانى الندم على ما فعلت وبدأت عواطفى نحوك تحرك قلبى ، وازدادت
هذه العواطف حين أكدت لى غير مرة أنك لن تتزوجها ، وحين انقطعت
كل صلة بينك وبينها ، على حين بقى زوجى موصولاً بها ، وبدأ العطف إذ ذاك
يشوبه الود وإن لم ينقلب حباً ، لأننا وقفنا صفاً واحداً ، تنكرت أنت على

صديقتى التى قاطعتنى وأذاعت أنى أفسدت زواجها منك لأتزوجك
ولا أحب أنا زوجى لأنه أبى على ود صديقتى التى قاطعتنى وطعنت على .
وتضاعف ودى لك بعد أن هلك المرض بسبب فعلتى ، وإنك واسيتنى فى
محنة احتضار حتى لزوجى مواساة استراح لها قلبى فاعترف بجميلك وأقر
فى أعماقه بعظيم فضلك ، وازددت أنا إقراراً بهذا الفضل حين حاولت أنت
غير مرة أن تعيد الصفاء بينى وبين زوجى وفاء منك لصداقته . مع يقينك
إذ ذاك بأنك تحاول المستحيل . من يومئذ وقفت إلى جانبي فخففت عنى عبء
عزلى بعد أن انتقلت إلى الإسكندرية ، ثم إنك أقنعت زوجى فطلقنى
فضاعف ذلك ودى لك . فلما رأيتنى أضطرب فى حياى الجديدة كما
تضطرب الخشبة الضئيلة ألقى بها فى لج البحر المتلاطم مددت يدك إلى
فأنقذتنى وتزوجتنى غير عابئ بإثم الظن وقالة السوء ! . . يومئذ غمرنى فضلك
فأصفيتك كل قلبى فلم يبق لك من شريك فيه غير ولى . وزاد ملكك
هذا القلب حين اعتبرتهما ولىك ، وبقينا من بعد ذلك السنين وأنا فى
رحاب فضلك . منسوبة أنا ولىك إليك ، نعيش فى ظل عطفك وسايغ
برك ، فلما ارتد ولىك فتسميا باسم أبيهما تصارع فى قلبى حبي إياك وحبي
إياهما ، فهرعت إلى البلد الأمين لائذة برى لاجئة إلى حماه ، وأقمت فى
هذه الأرض المقدسة أدعوا الله وأتوب إليه وأستغفره حتى اطمأن قلبى إلى أنه
غفر لى وعفا عنى ومحا بفضل منه ما سلف من ذنوبى . عند ذلك شعرت
بأن قلبى وروحى عاودهما شبابهما وانفتحت لهما صفحة جديدة مبرأة
من الذنوب . فلما جئت أنت إلى هنا أحسست بهذا الشباب ينتقل من قلبى

بفضلك وجميلك انقلب حباً جارفاً . حب امرأة لرجل . بل عشق فتاة
 لشاب . عند ذلك أيقنت أن هذا الحب لم يكن وليد يومه . وأنه لم يكن حباً
 من أول نظرة كما يقولون . بل نشأ منذ عهد بعيد نطفة ثم مضغة ثم علقمة
 جعل ينمو حتى بلغ اليوم فتوة شبابه ، ولقد كنت أسمع ولا أصدق أن حب
 الكهولة أعنف الحب . وهأنذا اليوم وقعت في برائته بعد أن عشت في
 قلبي وأفرخ ، وبعد أن حملته في قلبي كل هذه السنين كما تحمل المرأة
 طفلها في أحشائها تسعة أشهر ، فإذا وضعته نسيت كل شيء . بل نسيت
 حياتها من أجل وليدها . وأكرر الآن أنني أخشى أن يبلغ من طغيان هذا
 الحب عليّ أن يحبسني في سجنه . وأن ينسيني محبة ما خلق الله ومن
 خلق . ولذا أعود فأرجوك باسم هذا الحب أن تدعني هنا أتابع ما بدأت من
 تطهير قلبي حتى يسع إلى جانب حبك حب خلق الله ، لأنه وسيلتنا إلى
 محبة الله ودوام عفوه وعطفه . فإن أذنت ولا أخالك إلا آذناً ، أسديت لي
 يداً تنفعني وتنفعك عند ربّي ، فإذا عدت بعد ذلك يوماً إلى القاهرة عدت
 بريئة مطهرة ، وكنت النفس المطمئنة التي تطمع في أن يدخلها الله في عباده
 وأن يدخلها جنته .

كان زوجي يسمع قصتي مستريحاً لها راضياً عنها ، وتزداد أساريه
 انفراجاً كلما أمعنت فيها ، فلما فرغت منها ، هز رأسه وكأنما تولاه العجب
 وقال :

- لشد ما تختلف الصور لتنتهي من بعد إلى التقاء ، بل إلى امتزاج ، فقصتي

معك تختلف عن قصتك معى كل الاختلاف ، والقصتان تنتهيان مع ذلك إلى امتزاج قلبينا أشد الامتزاج ، لقد أحببتك أنا من أول نظرة ، يوم قدمى زوجك الأول إليك على أننى صديقه الوفى . وقد تمنيت يومئذ لو لم تكونى زوجه لأتزوجك ، ولعلك تذكرين أنك أنت التى طلبت إلىَّ أن أعنى بميراث صديقتك وأبنائها ، فاعتبر قلبى طلبك أمراً لا مفر من نفاذه ، ولا تنسى أننى استشرتكم فى الاستعانة بزوجك فأذنت لى ، بل ألححت عليه فى معاونتى ، وأتاح لى ذلك فرصة الإكثار من التردد عليك وإرضاء قلبى وروحى بجاذبيتك وسحر حديثك . وكان ذلك يلهب حى ويضاعف الصراع بينه وبين الوفاء لصديق ائتمنى على بيته وشرفه . عند ذلك فكرت فى التزوج من صديقتك وأنا أعلم الناس بخفتها ونزقها ، لأجد فى جمالها وفى حواسها بعض ما يسكن شغفى بك وحى إياك ، فلما أفسدت أنت هذا الزواج آمن قلبى بأنك تحبينى كما أحبك ، لهذا عاد الصراع بين الحب والوفاء للصدقة أعنف مما كان . لكننى كتمت ما فى نفسى إبقاء على شرفك وشرفى وحاولت جهدى أن أعيد الحياة لحبك المحتر. مكتفياً من حى إياك بالنظر إليك والمتاع بسحر حديثك ، فلما ذهب جهدى عبثاً وطلقت من زوجك لم أرد أن أفاتحك بحى حتى لا يصدق ما أذاعته صديقتك من أنك أردت الطلاق لتتزوجى منى ، لكن رأيتك بعد ذلك ريشة فى مهب الريح فهددت بى إليك إرضاء لحب تأجج فى صدرى كل هذه السنين ، فتزوجنا . يومئذ اطمأن قلبى ولم يعنى من بعد أن يقول مطلقك إننى خنت عهد صداقته ، فالله يعلم وأنت تعلمين كم وفيت له وكم قاسيت

في سبيل هذا الوفاء . ولهذا أمتعنا الله سنى زواجنا بالسعادة والنعمة ، وكذلك
امترج قلبانا بعد أن بقيا متحاذيين على طريق الحياة السنين الطوال ! . .
وسكت الرجل بعد ذلك هنيهة ، ثم قال :

على أنتى يزداد يا عزيزى عجبى حين تذكرين أنك لم تشعرى
ببأس الحب وسلطانه ما تشعرين اليوم ، ثم تريدين مع ذلك أن نفترق !
أصدقك القول أنتى لم أفهم هذا التصوف الذى تلبسين اليوم لباسه ،
وكنت أحسب أن سلطان الحب الذى حدثنى عنه سيدفعك إلى مصاحبتى
والعود معى إلى دفء عشنا الجميل بالقاهرة .

قلت وفى صوتى نبرة التوسل والاستجداء :

- أنت تعلم أنك إن أمرتني أن أعود معك فلن أعصى لك أمراً ،
وأنى لن أقيم هنا إلا بإذن منك تبذله عن رضا وطيب نفس ، وإنما أضرع
إليك أن تدعنى هنا فى جوار الرسول إلى رجب المقبل حتى يطهر قلبى ، ويتقبل
منى ربى ، وتصدق عنده توبتى فلا تشوب نفسى بعد ذلك شائبة من وزر
أو هوى ، ولك على عهد الله وميثاقه إن أنت رغبت إلىّ خلال هذه الأشهر
السته أن أعود إلى القاهرة ، ولو بعد أيام من وصولك إليها ، فستجدنى
حاضرة عندك إيماناً منى بأن قلبك هو الذى دعانى .

وبعد هنيهة أضفت : والآن أطلب إلى هذا القلب الكبير أن يأذن
ببقائى . ذلك رجاء أتوسل إليك فى ضراعة أن تقبله ، والأمر بعد الله لك
جزاء حبك وإحسانك وبرك .

كان زوجى مطرقاً وأنا أتكلم ، فلما فرغت من حديثى رفع إلىّ رأسه .

وقد ارتسمت معاني الطيبة والحب على محياه ، وقال :

ما كنت لأحول بينك وبين ما تطمعين فيه من مغفرة بارئك وعفوه .
فأنت وما تريدن . أقيمى إلى جوار الرسول الكريم ما طاب لك المقام ،
ولا تنسى الدعاء لى أن يغفر الله ذنوبى ! . . أقيمى راضية عنى مرضية منى .
وأرجو الله أن يجمعنا هنا فى زيارة رجب وأن تطيب نفسك يومئذ بالعود
إلى أرض الوطن طاهرة مطهرة .

عقدت غبطتى بكرم عواطفه لسانى ، فلم أجد الألفاظ التى تكنى
للثناء عليه ، فقممت إليه فقبلته قبله شكر ومحبة ، ثم قلت له : « فليتول
الله جزاء إكرامك إياى وإحسانك لى » ! . .

وانتقلنا بالحديث إلى مألوف القول ، ثم إننى بعثت بالخادم فدعت
ابنتى فتناولت فطورها معنا ، فلما فرغت منه سألت : أو تعودين معنا
يا أماه ؟ وأجبته : قد أذن لى عمك يا ابنتى فى المقام هنا إلى زيارة رجب
على أن أخف بالعودة إلى القاهرة ساعة يدعونى إليها ، وإن لسانى ليعجز
عن شكره على جميل صنيعه . أما وقد علمت منه أنكما تعودان إلى مصر
على الباخرة التى تبخر من ينبع بعد غد فإنى أرجو لكما السلامة ، وأحملك
إلى أخيك قبلات شوقى ومحبتى ، وكم أتمنى لو أتيح له أن يحضر إلى هنا
لأراه كما رأيته ، وأروى برؤيته شوقى الظامئ لضمه إلى صدرى وهو
لا ريب أحكم من أن يحتاج الأمر بينى وبينه إلى حوار كالذى دار بينى
وبينك .

وابتسمت الشابة وقالت : « إن طيبة قلبه وكرم خلقه وشدة حبه

لزوجته يغنيه عن مثل هذا الحوار.

« ولقد فكرت هذه الليلة طويلاً فيما أسديت لى يا أماه من نصائح فرأيتك على حق ، أهو عقلى الذى هدانى إلى تبين هذا الحق ، أم هو وحي هذه المدينة المنورة ، أم أنهما تآزرا على هدايتى ؟ ! . أياً كان الأمر فأنى شاكرة لك من أعماق قلبى ، مستغفرة عما لعله فرط منى فى أثناء حديثى . »

وقبلتها وقلت : « إن الهدى يا ابنتى هدى الله . أمتعك الله بالسعادة والهناء » ! . .

وفى الغد تأهب زوجى وابنتى للسفر إلى ينبع فصحبتهما إليها ، وودعهما حين أبحرت الباخرة ، وعدت فى رفقة إلى المدينة ، واتخذت مكانى من الروضة وحمدت الله أن هدى ابنتى إلى الحق وهدى زوجى ليدعنى فى جوار الرسول الكريم ! . .

الفصل الحادى عشر

عدت إلى المدينة وإلى مكافى من الروضة فى المسجد النبوى وقلبى
مفعم غبطة أن أتاح الله لى فرصة كاملة لتطهير روحى من كل شائبة .
ورآنى خادماً المسجد أعود وحدى إلى مكافى بعد أن كان زوجى وابنتى
يصحبانى إليه ، فتلطف فى السؤال عنهما ، فلما علم أنهما عادا إلى مصر
وأتهما سيحضران إلى المدينة فى زيارة رجب دعا لهما بالخير وأثنى عليهما
أجمل الثناء ، وتمنى لهما زيارة فى رجب موفقة ، وكذلك عدت إلى مألوف
سيرتى قبل مجيئهما من مصر ولا أشك فى أن الله قد رضى عنى ، وأن بقائى
بالمدينة ياذن بذله زوجى طيب النفس ببذله خير مظهر لهذا الرضا .

وأقمت الأيام والأسابيع والشهور من يومئذ أمعن فى تطهير نفسى
وقلبى ، وأطمئن إلى من بمصر من رسالاتهم إلى ، وأدعولهم وللناس جميعاً
بالخير . وإن شهر رجب ليقترّب ، وإن نفسى لتفهو لرؤية الأعزة ولصحبتهم
فى زيارة مدينة الرسول ومسجده وآثاره ، إذ تناولت من ولدى برقية نصها :
« صحة عمى توجب حضورك فوراً » ! ولشد ما أزعجتنى هذه البرقية
وجعلتنى أضرب أخماساً لأسداس أحاول أن أحدس ما أصاب زوجى ،
لقد كان فى كمال صحته يوم كان هنا ، ويوم ودعته يينبع ، ترى أصابته
نوبة من تلك النوبات التى تخشى مغبتها فدفعت ولدى لبيعث إلى يدعونى

إلى القاهرة ؟ فأنا أعرف ولدى وأعلم أنه لا يزعجنى هذا الإزعاج لطارئ لا تخشى عواقبه ، لا بد إذن من السفر على أول باخرة تبحر من ينبع .

وتجهزت للسفر واتخذت له كل عدته ، وذهبت إلى ينبع وأبحرت منها إلى مصر ، وكان زوج ابنتى فى انتظارى بالسويس . فلما رأيته سألته فى لهفة عن أبناء عمه . وحاول الشاب أن يطمئننى لكن محاولته لم تزل مخاوفى ، لأن سؤالى جعله فى حيرة اضطرب لها هنية قبل أن يتكلم ، ثم لم تكن عبارته حين تكلم عبارة الواثق بنفسه ، وقلت له : « لا تخف عني شيئاً يا بنى ، إننى سأرى الرجل بعد ساعات إن كان لا يزال على قيد الحياة ، فأصدقنى ولا ترد بمحاولتك اضطراب نفسى » . وكان جوابه : « لقد أصابته يا أماه نوبة قلبية شديدة هى التى دفعتنا لاستدعائك على عجل ، وكانت صحته قد بدأت تتحسن حتى لقد عاتبنا أمس على إزعاجك لكنه استيقظ فجر اليوم متعباً فدعونا له الطبيب قبل أن تطلع الشمس ، ولم أستطع البقاء لأعرف رأى الطبيب مخافة ألا أدرك الباخرة أول وصولها ، وكلنا ندعو الله من أعماق قلوبنا أن يمن عليه بالشفاء وأن يرد إليه العافية . »

وأضرت لما سمعت ورفعت رأسى أدعو الله من أعماق قلبى ألا يسيئنى فى هذا الرجل الطبيب الذى أحسن إليّ وأنقذنى ، ثم أحسن إلى سنوات طوالاً بعد زواجنا ، ثم أحسن إليّ مرة ثالثة فأذن لى فى مجاورة الرسول الكريم .

وأقلتنا السيارة تنهب طريق الصحراء إلى القاهرة ، فلما دخلت

غرفة المريض العزيز وأنا في ثوب الإحرام الناصع البياض ، نظر إلى بعينين مملأهما الدمع نظرة شوق ويأس ، وأقبلت عليه فقبلت جبينه ويده وأنا أرتجف لشدة ما أصاب قلبي من الخفقان ، فلما هدأ روعي بعض الشيء أمسكت بيده وقلت : « شفاك الله يا حبيبي وعافاك . إنها دعوة يهتف بها قلبي منذ عرفت وأنا بالمدينة بعض ما أصابك ، وظل يهتف بها في كل صلواتي وخلواتي وساعات قنوتي وتهجدي ، وأرجو أن يسمع الله لي ، إنه سميع الدعاء » . فنظر إلى بعينين ملتئا يأساً وقال في همس : « شكراً لك يا حبيبتى . لكنى أحس دنو الأجل . . نعم ! . . إنها النهاية ، فاستغفرى لى ربك هنا ، واستغفره حين تعودين إلى المدينة تجاورين رسول الله الأكرم » . وسكت بعد ذلك برهة ثم قال في صوت خافت لا يكاد يبين : « وداعاً وحمداً لله أن رأيتك قبل أن ألقاه لتستغفره لى ، فأنت ولية الله الصالحة » ! .. قلت : « بل أنا يا حبيبي المذنبه التائبة ، فليغفر الله لك ولى ، وليرحمك ويرحمنى ، إنه رب التقوى ورب المغفرة » ! ..

وأسبل الرجل عينيه ... أترأه ودع الدنيا ؟ . أترأى حضرت من المدينة إلى القاهرة لأراه هذه اللحظة القصيرة ؟ . أترأه ودعنى حقاً وداع الأبد ؟ ! ..

عاد إلى قلبي خفقانه ، وعادت إلى جسمى رجفته ، ولم أشعر ويده لا تزال فى يدى أأثلجها الموت أم أنها لا يزال فيها دفء الحياة ! . . وإننى لنى هذه الحال من الحيرة والاضطراب إذ دخل الطبيب الذى عادته وأنا لا أزال بالسويس ، فلما رآنى استأذنى وأخذ يد زوجى من يدى ثم وضع

أذنه على قلب الرجل ثم قال : البقية فى حياتك يا سيدتى . وانصرف .
رباه ماذا أصنع ! هذا قضاؤك لا مرد له ، أأصبح كما تصبح النساء ؟ ..
أأخلع ثياب إحرامى لألبس السواد ؟ . . خفقتنى العبرة وهوى قلبى إلى
قرار سحيق وحبس صوتى فلم أجد إلى الصباح سيلا . ولقى الطبيب ابنتى
صاعدة إلى الغرفة التى أنا بها فأسر إليها النبأ الفاجع فدخلت على والدعم يملأ
عينها وقبلتنى وفى نبرات صوتها حزن لم تعرفه يوم مات أبوها ، وأقبل ولدى
ومعه زوجه وزوج ابنتى واجتمعنا كلنا حول هذا الميت المسجى فى فراشه
وأنا لا تنفرج شفثنى عن كلمة ، وإن هملت عينى بالدعم المتون ، وجاء
جيراننا يشاركوننا مصابنا فتلقيناهم فى حجرة أخرى .

وخرج ولدى وزوج ابنتى يعدان لدفن الميت ، وذهبت ابنتى وزوج
ولدى فلبستا السواد وعادتا ، أما أنا فبقيت فى لباس إحرامى . لأن
وجيعة قلبى لم تكن بحاجة إلى لباس يعبر عنها ، بل كانت تعبر عن نفسها
بأبلغ مما يعبر عنها أى مظهر .

وأى وجيعة لقلب امرأة فى كهولتها أقسى من أن ترى حبها الذى
اكتمل وملأ دمه وأعصابها كما ملأ قلبها يتحطم على صخرة الموت فلا يبقى
له فى متاع الحياة أمل أو رجاء .

ودفن زوجى عليه رحمة الله قبيل المغيب من يوم وفاته ، فلما ذهبت
إلى مرقدى بعد أن صليت العشاء الآخرة ذكرت ، ويالھول ما ذكرت !
ذكرت يوم رجائى رسول زوجى الأول أن أذهب إليه وهو فى ساعات
احتضاره ليسمع منى بأذنه أننى سامحته فأبيت . ! ألا كم كنت قاسية

يومئذ ! . . أو يغفر لي ربي هذه القسوة ؟ وغفوت فإذا الطيف الملتف في أكفانه . . طيف زوجي الأول ، يتبدى لي قائلاً : لا عليك مما صنعت يومئذ . لقد سامحتك كما سامحتني . فليغفر الله لك ولي . فنامى هادئة مطمئنة .

واستيقظت الصباح بعد غفوة غفوتها بعد صلاة الفجر . فلما تقدم النهار انتقلت إلى بهو الاستقبال أتلقي العزاء ممن جئن مواسيات ، فإذا بينهن صديقتي . فلما مال ميزان النهار وانصرف الناس بقيت هي حتى خلت إلى ، عند ذلك قالت : « جئتُك يا صديقتي معزية في زوجك الذي اختاره الله إليه أمس ، وفي زوجك الأول ، ولأقسم لك أنني ما كان بيني وبين أيهما إلا المودة البريئة الطاهرة أملاها على اعترافي بحميلهما في استخلاص ميراثي وميراث أبنائي ، وأملاها عليهما شهامتها ومروءتهما ، أما وأنت اليوم ولية الله الصالحة التي جاورت رسوله الكريم فقد جئت إليك مستغفرة عما فرط مني في حقك ، راجية أن تسامحني ليغفر الله لي » ! . .

وذكرت لحديثها ما رأيت في نومي وأنا بمكة حين سعيانا معاً ، وطفنا معاً ، وأقسمنا أن نعود صديقتين كما كنا ، فقصصت عليها رؤياي تلك وتفسير الأستاذ الذي يحاضر الناس في الحج مغزاها ، وكيف أتى طهرت نفسي من كل موجدة عليها ، فعدنا صديقتين كما كنا ، ثم قلت لها : « وأنا يا صديقتي لست ولية الله الصالحة كما تذكرين ، وكما ذكر زوجي أمس وهو في احتضاره . . إنما أنا المذنبة الثابتة التي ترجو عفو ربه ومغفرته ذنوبها » .

وقامت صديقتي فقبلتني قبله شعرت بها صاعدة من أعماق قلبها
وقالت : « شكراً لك ، والحمد لله أن عدنا صديقتين كما كنا ، وإني
لشاكرة من كل قلبي أن أكون من جديد صديقة لولية الله الصالحة » ! .
وقلت من جديد : « بل للمدنية الثابتة ، ولعلنا نلتقي يا صديقتي عما قريب
في بيت الله فنطوف معاً ونسعى معاً لتصبح رؤياي حقاً ، ولتزورى معي
مدينة الرسول الكريم وتبركي بمسجده والصلاة في روضته » ! .

وقبلتني صديقتي من أعماق قلبها قبله أخرى وقالت : فليسمع الله
منك وليهيئ لي بفضلله حج بيته وزيارة نبيه ورسوله .

وودعتني وودعتها وقد امتلأ قلبي حباً لها وعطفاً عليها وبراً بها ، فلما
عدت إلى مجلسي بعد انصرافها رفعت كفي أشكر الله على تطهير قلبي وروحي
ووجداني .

وانقضت أيام العزاء ، فلما كنا عشية الجمعة الذي تلا الوفاة أوصيت
بشراء قدر كبير من الورود وأغصان الشجر ومما يوزع على الفقراء في المقابر
من الطعام . وفي صباح الجمعة صبحني ولدي وابنتي وزوجاهما إلى قبر المتوفى
وهناك قمنا بمراسم تحيته والدعاء أن يرحمه الله ويغفر له ، ووضعت نصف
ما معنا من الورد وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت على الفقراء الذين
أحاطوا بنا ساعة خرجنا من عنده نصف ما معنا من طعام ، ثم قلت لولدي :
هيا بنا إلى قبر أبيكما ، فأقبل ابني وابنتي يقبلانني في لهفة وقد ملأ الدمع أعينهما .
وبلغنا مقام القبر ودخلناه وحيينا صاحبه ودعونا الله أن يغفر له ويرحمه
ووضعت الورد وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت ما بقي معي من

طعام على الفقراء ، وقبيل خروجنا لم أملك عبرتي ، فقد ذكرت الطيف الملتف في أكفانه يوم هتف بي أن الله غفر له ولي ، وقلت مناجية ربى :
« رب ما أعدلك وما أرحمك وما أعظم فضلك . رب لقد بلوتنى حتى ظهر قلبى ، رب فاعف عني ، وسعت رحمتك كل شيء » ! . . .

ومن المقابر عدنا إلى بيت ولدى . فلما دخلنا بهو الاستقبال وواجهتني في صدره صورة زوجي الأول شعرت لمآها بصدمة لم أكن قط أتوقعها بعد أن كنت منذ قليل على قبره وأدبت له واجبه . فقد أثارت هذه الصورة أمام بصرى منظره الكامل في حياته ، كما رأيت عينيه تنظران إليَّ وكأنما تريدان أن تخترقا شغاف قلبي إلى دخيلة ضميري لتريا فيه الدافع الصحيح لذهابي إلى قبره وقيامى بما قمت به عنده . إذ ذاك رأيتني أضطرب في موقعي وشعرت بالرعشة تسرى في جسمي وخيل إليَّ أن ماضى حياتنا يرتسم كاملا أمام بصيرتى ، ولم يغنى ما ذكرت من صفح هذا الرجل الكريم عني ، بل تضاءلت نفسى أمام هذه الذكرى ، وبدأ لى أن أوهاى تخدعنى ، وأننى لم أبلغ بعد من طهر القلب والضمير ما حسبت أن الله أكرمنى به ، وأفاء على من أجله حال الرضا .

وعدت في المساء إلى بيت الزوج الذى أصفيته حبي إلى آخر نسمة من حياته ، واتخذت من أصغر حجرة فيه مصلى أدخلوها إلى نفسى ساعات وحدتى وأحاسب فيها نفسى بعد صلواتى ، وكانت كثيرات من صديقاتى يزرننى يسرين عني بعض ما أمضى من عميق شجنى . وكن جميعاً يحجن لابسات السواد المألوف في مصر ، فرأيت ناصع البياض الذى ألبسه

غير متفق مع مظهرهن ، فلبست السواد مثلهن ، وإن استبقيت طرحتي البيضاء لصلواتي ولأذكر بها أيام سكينه النفس وطمأنينة الضمير ، وكان ولدى وابنتي يقضيان معي أوقات فراغهما حتى لا تثقلني الوحدة بهومهما فتزيد اضطراب نفسي ووجيعه قلبي .

وبدا لي بعد زمن أن أعود إلى المدينة المنورة لعل في حياتها ما يخفف غنى ويهون على مصابي ، لكنني خشيت أن يبلغ ما كان يعاودني من تحاذل النفس واضطراب الأعصاب مبلغ الخطر على حياتي وأنا في وحدتي وغربتى ، وقد استشرت الطبيب فأقر مخاوفي وأشار بضرورة تريثي ، فأثرت أن أبقي حتى تهدأ ثائرتي وتتوب إلى سكينتي ، فإذا ذهبت بعد ذلك إلى المدينة استطعت أن أؤدي لله حقه ، وأن أرجو عفوه ومغفرته .

وأقمت في بيت زوجي أستقبل زائراتي وأستريح إلى صحبة ابني وابنتي ، فإذا لم يبق بالمتزل جليس ذهبت إلى حجرة خلوتي أؤدي فرائضي وألتمس عون الله في محنتي . وكنت أحسب أن مضى الزمن كفيل بشفاء نفسي من الاضطراب الذي كان يعتادني ، لكنني شعرت بعد لأي بأن نفسي تزداد اضطراباً ، وبأن الأرق يتولاني ، وبأن الهواجس تعصف بفؤادي ، ثم إنني ما لبثت أن استبد لي الفزع حين شعرت بأن صلاتي وخشوعي وتهجدى وقنوتى لم تبق خالصة من الشوائب ، فقد جعل زوجي الذي أصفهته كل حين تنبدي لي ذكراه فتهمل من مآقي عبرات سخينة ، وأذكر ما قلت له حين زارني بالمدينة من أنني أصبحت أحبه حب امرأة لرجل ، وأحبه بحواسي وبدمي وبأعصابي ، فيزداد دمعي هملاً على حب ملك على

كل وجودى ، ثم أتى عليه الموت حين بلغ عنفوانه ، وقبل أن أستمع
بشمراته .

ولم تكن هذه الذكرى المريرة بعض أحلامي وكفى ، بل كانت
غصة يقظتى ، وكانت تساورنى وأنا فى صلاتى ، وقد حاولت مغالبتها
بالفرز إلى ربى كى ينقذنى منها فإذا هى تزدد تمكناً من نفسى ووروداً
إلى خاطرى ، وتبلغ من ذلك أن تخرجنى من صلاتى فأستغفر ربى ثم
أعود إلى الصلاة فلا يلبث شيطان الذكرى أن يثير أشجائى ويفسد من
جديد صلاتى .

ذكرت وأنا فى هذا المضطرب النفسى ما كنت قطعته لزوجى من
عهد أن أعود معه إلى مصر بعد زيارة رجب لنستمع بهذا الحب الذى
استوفى كماله ، وكيف اضطرت إلى العودة قبل هذا الموعد بأيام لأشهد
احتضاره ولأودعه الوداع الأخير ، ترى لو أن الله قد غفر لى حقاً ، وكانت
الرؤى التى رآيتها شاهدة بهذه المغفرة صادقة ، أفكان الله يمتحنى هذا
الامتحان القاسى الذى لا يصبر عليه قلب إنسان ؟ أم أن تلك الرؤى كانت
من أفانين الخيال ، وأن هذا المصاب الذى حل بى كان بعض الجزاء
الذى ادخره القدر لى عن ماضى حياتى ؟ . .

وكنت أزداد كل يوم شعوراً بالوحدة والعزلة ، وبأننى لم يبق لى فى
هذا العالم صديق أو أنيس بعد أن فقدت هذا الصديق الأنيس والزوج
الحبيب . ولم يدربخلدى فى هذه الساعات التى كوت لواعج الحزن
فيها شغاف قلبى أن الله وهبى ابناً وابنة يؤنسان وحدتى ويضمدان جراح

قلبي ، بل كدت أنسى هذين الولدين اللذين أراهما كل يوم ، وأنسى أنهما بضعة مني وأنهما امتداد حياتي .

وكذلك كان شعوري بالفاجعة يزداد عنفاً على الأيام حتى لقد كنت في كثير من الأحيان أقضي الليل مسهدة محزونة ، فإذا أوشك الليل أن يولى ، غفوت وطالت غفوتي فلم أستيقظ لصلاة الفجر ، ثم لم يسعفني أن أستغفر عما فرط مني ، لأنني كنت لا أكاد أتم استغفاري حتى أعود إلى يثي وحزني ، وأندب ما قضى عليه الموت من حبي ، وأعود على نفسي باللائمة أن لم أعد مع زوجي من المدينة المنورة إلى مصر ، يوم دعاني للعودة معه ، لأمتع هذا الحب بما يشئ غلته خلال الأشهر الخمسة التي عشتها بعيدة عن هذا الحبيب ، ومن يدرى ؟ . . فلعلّ لو صحبته يوماً وعدت معه لما دهمه الموت مستعجلاً ، ولكنك قد بعثت إليه من حيوتي وحياتي ما أطال في حياته وحفظه لي ! . .

وكانت تقواي تعاودني فأحاول التغلب على هذه الحال ، فكنت أمرغ وجهي في التراب لعل روعي تطهر بتعذيب جسمي ، وكنت أصوم الأيام المتعاقبة راجية أن يعيد إلى الصوم طمأنينة النفس ، وكنت أهرع إلى البؤساء والمساكين الذين يقفون على أبواب المساجد أستجديهم كلمة عطف لعل الله يغفر لي ، ثم كنت بعد كل ما أصنع من ذلك أشعر بنزغ الشيطان ، وكأنا يقول :

« وماذا أفدت من تقواك ومن صلواتك وقنوتك وعبادتك ، إلا أن قضيت على الرجل الذي كان يحبك حب العباداة ! عودي إلى صوابك

وفكرى لغدك أكثر مما تفكرين فى أمسك ، ولعل الحظ الذى أتاح لك من أنقذك من وحدتك ، يوم طلقك زوجك الأول يمد إليك يده مرة أخرى ، وبهيئ لك من ينقذك من شجنك ومن هموم كهولتك « ! .

ولقد سخرت من نفسى حين نزع الشيطان لى ، ونظرت مع ذلك إلى وجهى فى المرآة ، فرأيتنى ولا تزال فى عيني جاذبية شبانى ، وإن خطت الكهولة على جبينى بعض سطورها ، وسرعان ما استعذت بالله من الشيطان ونزغته ، وهتفت به جل شأنه ضارعة إليه أن ينقذنى من شر نفسى ، وأن يهدينى سواء السبيل .

وإنتى لتساورنى هذه الهواجس ، وتعبث بى هذه الهموم إذ جاء إلى ولدى ذات صباح مقطب الجبين ، يذكر لى أن أخته تركت بيت زوجها وجاءت إلى بيته تقيم به ، وأنه حاول أن يعيد الصفاء بين الزوجين فلم تفلح محاولته ، وأن هذه لم تكن أول مرة اشتد الخلاف فيها بينهما ، وأنه يلجأ إلى لاتدبر الأمر بحكمتى بعد أن تولاه اليأس منه ، وبعد أن خشى أن يؤدى إلى نتائج لا تحمد عاقبتها .

وتولتلى الدهشة لما سمعت ، فقد كنت مقتنعة إلى يومئذ بأن ما دار من حديث بينى وبين ابنتى حين زارتنى مع عمها بالمدينة قد ردها إلى صوابها ، وأن ما قلته لها عن ذكاء الأنوثة وسلطانها القاهر قد مكنها من التغلب على نزواتها ونزوات زوجها . . وكان مصدر اقتناعى هذا أن ما كان يرد لى من خطابات ، خلال الأشهر الخمسة التى كنت فيها بعيدة عنهم ، لم يرد فيه شئ يزعزع هذا الاقتناع ، بل كانت كلها تتحدث عن هناءتهم

وسعادتهم في انتظار عودتي إليهم . . أفجدّ بعد عودتي إلى مصر جديد آثار
منازعات الزوجين ؟ . . وهل يحدث مثل ذلك ونحن نعالج همنا ونحاول
أن نداوى مصابنا ؟ . .

وأطرقت برهة أفكر في الأمر وكيف أتدبره ، وفجأة انحدرت من
عيني دمعة لخاطر مرّ بخيالي . . أو لم تكفني وفاة زوجي عقاباً لي على ما سلف
من أوزاري ؟ أم يريد القدر أن يضاعف عقوبتي في شخص ابنتي ؟ . .
أين إذن ما كان من توبتي واستغفاري ؟ . . لست أنا إذن ولية الله الصالحة ،
بل لست إذن المذنبة الثابتة ، فهذا هي ذى توبتي لم تقبل ، وهأنذا أواجه
من قسوة القدر ما لا قبل لي به ، ولا طاقة لي باحتماله .

وبصري ولدي والدمعة تنحدر من عيني ، فزائل جبينه قطوبه وأقبل
على يواسيني ويخفف الهم عني ، ورفعت عيني ونظرت إلى وجهه ، فإذا
الطيبة بكامل معناها مرتسمة على أساريره ، طيبة أبيه زوجي الأول ، وإذا
هو يقول لي : « لا تجزعي يا أماه . سأبذل لراحة أختي كل ما أستطيع بذله .
وإذا لم يكن إلى مصالحتها مع زوجها من سبيل ، فسأحمل عبء حياتها ،
لنعيش كريمة ما حييت وما استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وقبلته وقد ازداد تأثري لمشابهته أباه في طبيته ، كمشابهته إياه في
ملامحه ، ألا كم جنيت عليه وعلى أخته بانفصال عن أبيهما بعد أن
بذل في سبيل رضاي كل ما يستطيع إنسان بذله ! وبعد هنية قلت له :
« عد إلى منزلك وسألحق بك فيه به عما قريب » .

وانصرف الشاب وذهبت أنا إلى خلوتي أصلي بها ركعتين لعل الله

يهديني الرشاد في أمر ابنتي ، وما كدت أتم صلاتي حتى امتلأت عيني
بالدمع مرة أخرى ؛ إذ خيل إلى أن شواظاً من جهنم قد سلت على ضميري
يعذبه ، وأن هذا الشواظ قد صور في شخص ابنتي ، وأنتي لن يهدأ لي بعد
اليوم بال ولن تطمئن لي نفس لأنني عذبت أباه ، فحق عليّ أن أوفي
جزاء ما قدمت يداي فأتعذب لعذابها ، وأتألم لألمها ، وبعثاً حاولت أن
أطرد هذا الهاجس الذي استبد في زماناً لم أدر أطل أم قصر ، ولولا أنني
خشيت أن يطول على ولدي غيابي لأمسكني هذا الهاجس ، فلم أستطع
من خلوتي حراكاً ، لهذا قمت وارتديت ملابس خروجي وذهبت إلى منزل
ولدي .

ودخلت على أهله فألقيت زوج ولدي تحدث ابنتي في رفق تحاول
إقناعها بالعود إلى زوجها ، وجلست إليهم وسألت ابنتي : ما أغضبها ؟
قالت وفي نبرة صوتها حدة لم آلفها يوم تحدثت إليها وأنا بالمدينة المنورة
لأعيد الصفاء بينها وبين زوجها : « لم يبق يا أماه في قوس صبري مترع ،
ولم يبق من انفصالي عن زوجي مفر ، لقد كنت أشكو من قبل تدخله
في أخص شئوني ، وقد استطعت بفضل نصائحك أن أتغلب على ذلك
بتمليق غروره تارة ، وبالتظاهر بموافقته أخرى ، أما اليوم فالأمر مختلف ،
لقد تمكنت الغيرة من نفسه على نحو يشبه الجنون ، وهولا يغار من رجل بذاته ،
بل يغار من كل رجل يتجه إليّ نظره ، وإن له لصديقاً يزورنا بين الحين
والحين ويحاملني بالثناء على ثوبي ، أو يبدى الإعجاب بحسن حديثي ،
فإذا انصرف رأيت زوجي انقلب شيطاناً يحاسبني على كل كلمة قالها

صديقه ، وقلت له حين تكرر ذلك منه « إذا جاء صاحبك هذا إلى هنا فلا تدعني لألقاه حتى لا تتور غيرتك » . وكان جوابه : « وما تريدني أن يقول عني ؟ . . أتريدني أن يتهمني بالتأخر ؟ . . لكن واجبك ألا تتزيني زينة تثير إعجابه ، ولا تتحدثي حديثاً يستدعي طول إنصاته » . وأجبتة إلى ما أراد ، فلما جاء صديقه يوماً ودعاني هو إلى مجلسهما ذهبت إليه في ثياب أشبه ما تكون بثياب المنزل ، ولم أزد في الحديث على أن أجيب بإيجاز عما أسأل عنه ، ولم يزد صديقه في أثناء ذلك على أن جاملني بكلمات من مألوف القول ، ومع ذلك اشتد زوجي في تأنيبي على إهمال ثوبي ، ثم اتهمني بأنني أردت بثوبي وبحديثي أن أثير عجب صديقه بدل أن أثير إعجابه ... وليس هذا يا أماه إلا مثلاً مما يدور بيننا كل يوم ، أترين حياة كهذه يمكن أن تطاق ؟ أو ليس انفصالنا خيراً من الصبر عليها أو انتظار ما هو شر منها ! . .

دار بخاطري وأنا أسمع حديث ابنتي أن القدر ينتقم في شخصها من مثل غيرتي ، حين كنت ألوم أباهما على العناية بصديقتي ، أفقدت هذه المسكينة أن ترث كل حظي ، وأن تعاني في حياتها ما عانيت في حياتي ؟ . . أفحق أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ؟ . . وهل تجمع هذه العبارة القديمة في ألفاظها القليلة ، قوانين الوراثة التي تحدثنا الكتب الحديثة عنها ؟ . . مهما يكن من أمر فن واجب اليوم أن أعالج ما حدث بين ابنتي وزوجها ، فإن نجحت فذلك ما أرجو ، وإن لم أنجح فن حسن حظ ابنتي أنها لم تنجب بعد ، فهي لذلك غير معرضة في مستقبل حياتها لما

تعرضت وأتعرض له من تبعات ، تثقل الضمير وتبعث إلى النفس الأسى والشجن .

أتمت ابنتي كلامها فقلت :

أريد قبل أن أحكم لك أو عليك أن أسمع كلام زوجك لأكون أدنى إلى العدل بينكما ، فدعينا أنت الآن ، واذهب يا بني فادع زوج أخذك إلى هنا وقل له إنني أريد أن أتحدث إليه ، ولم يبطئ ولدى في العود مع زوج أخته ، فهما يسكنان عمارة واحدة . وحياتي الشاب تحية حسنة ، وإن بدا الجد على وجهه ، فلما اطمأن به المجلس قلت له : أنت يا بني شاب حصيف عاقل ، وابنتي في عصمتك ، فأنت الذي تعصمها من خطئها إذا أخطأت ، وأنت الذي تعصمها من الغير إذا حاول الغير أن يسيء إليها ، وأنت كذلك الذي تعصمها من غضبك إذ بلغ هذا الغضب أن يعرضكما لسوء ، فكيف - وذلك مكانك منها - يبلغ النفور بينكما مبلغاً لم يستطع زوجي عليه رحمة الله في وقت من الأوقات أن يتغلب عليه ، ولم يستطع ولدى أخيراً أن يصلح منه ؟ . . إني ألتجأ يا بني إلى حكمتك وحسن رأيك ، فإن تكن زوجك مخطئة عاونتك عليها ورددتها إلى صوابها .

أمسك الشاب برهة عن الكلام وكأنه يريد أن يبحث في ذاكرته عن تهمة يلصقها بزوجيه ، وأحسبه لم يجد شيئاً معيناً يذكره ، فاندفع يقول : اسمعي يا أماه ! . . يجب أن تعلمي أنني رجل شديد الغيرة وفي ابنتك جاذبية شديدة أحببتها من أجلها لأول ما رأيته ولا أزال أحبها من أجلها أشد الحب

وأعنفه ، لكن هذه الجاذبية تجعل غيرى من الرجال يحاولون التقرب منها ، بل التمسح بها ، أنا أعلم أنها لا ذنب لها فى ذلك ، فجاذبيتها بعض خلقها ، لكن هذا التقرب يثير غيرتى إلى أبعد حد ، ويدعو إلى ما يقع بينى وبينها من خلاف ، وقد خيل إليها أن انفصالنا بالطلاق هو الدواء لما أشكو منه ، وأنت تقدرين أن ذلك أسخف رأى ، وأنه وهم باطل ، فحبى إياها سبب غيرتى عليها ، ولولا هذا الحب العنيف لكان على أن أنفصل عنها ، فهل لديك لهذا الموقف الشاذ دواء ؟ . .

وسارعت إلى إجابته بقولى : نعم يا بنى ! . . الدواء الناجع أن تنجبا أطفالا تشغل أنت وتشغل أمهم بهم ، فيقسم حبك بينها وبينهم وتحف بذلك غيرتك عليها ، وتتجه جاذبيتها إليهم فتقل عناية الرجال بالتقرب إليها .

ونظر إلى الشاب فى دهشة وكأنما خيل إليه أنى أمزح معه أو أسخر منه وقال : « هذا اقتراح مفيد لعلاج طويل الأجل . وهو كذلك إذا افترضنا أن إنجاب الأطفال رهن مشيئتنا . . إنما أريد دواء سريع المفعول للتغلب على الموقف الذى نقفه اليوم ، ومحال أن يكون الانفصال بالطلاق هو هذا الدواء ، فأنا أحب زوجتى ولن أتيح لغيرى فرصة الاستيلاء عليها بردحريتها إليها . وأنت يا أماء سيدة مجربة تعرفين ما لا نعرف ، وتستطيعين أن تصلى الدواء السريع المفعول ، فنحن فى أشد الحاجة اليوم إليه ! » . .

قلت : « هذا الدواء فى يدك يا ولدى ، وابتنى طوع بنائك إذا عاجلتها وعالجت نفسك به . . ذلك أن تجعل الحكم فى غيرتك لعقلك لا لهواك ،

ولو أنك فعلت لأدركت أنك تبالغ في لوم زوجك على ذنب تعترف أنت بأنها لم تجنّه ، ثم لأدركت أن القدر وهبك سعادة تريد أنت تدس إليها السم بدل أن تستمتع بها صافية سلسيلا . . أنت تلوم زوجك ، بل تؤنبها ، بل تعاقبها لأن الرجال يتملقونها أو ينظرون إليها مفتونين بجاذبية أسبغها عليها بارئها ، وأنت مع ذلك تعلم أن هذه الجاذبية في ملكك أنت . . أنت وحدك الذى تستمتع بها نهارك وليلك ، في يقضتك وفي أحلام نومك ، وأن نصيب غيرك منها لا يزيد على غبطتهم إياك أو حسدهم لك عليها . أنت كمن يملك قصراً منيفاً يقف عنده من يمرون به ويتمنون أن يكون لهم مثله ، وهم لا يملكون إلى ذلك الوسيلة ! . . أفتلوم أنت هذا القصر وتحاول هدمه ؟ أم ترداد اعتزازاً به وحمداً لله على أن جعله لك ؟ . . هذا إلا أن تهتم زوجك في وفائها أو في عفافها ، وذلك ما أعيدك وأعيذا بالله منه ، فإن يكن ذلك ورددت الأمر إلى حكم عقلك ولم ترخ فيه العنان لهواك استرحت وأرحت زوجك وهيأت خير مكان للسعادة من بيتك . . هذا دوائى الذى أقترحه أملته على تجربة قاسية ، أود ألا تعصف بحبكما تجربة مثلها .

وأطرق زوج ابنتى هنية ثم قال : « إن منطلقك دقيق يا أماه ، وسأحاول جهدى أن أغالب غيرتى ، لكننى بحاجة إلى معاونة زوجى فى هذه المحاولة » ! . .

قلت : « فعد إلى يا بنى ساعة الشاى ، وإننى لعظيمة الرجاء أن تعود الحياة الزوجية بينكما مصدرهنا وسعادة » .

ودعوت ابنتى بعد انصرافه وطالعتها بكل ما دار بينى وبين زوجها ، وأعدت عليها ما ذكرته لها حين زارتنى بالمدينة عن ذكاء الأئمة وسلطانها ، قالت : « أؤكد لك يا أماه أنى أجهدت هذا الذكاء وابتكرت لزوجى من حيله ما كدت أضيق ذرعاً به ، ألم أقل لك ونحن بالمدينة إن الرجل إذا بلغ حبه المرأة حد العبادة لم يكفه أن يملك منها قلبها وعقلها وذوقها وكل شيء فى وجودها ، وإن غيرته عليها تشوبها عند ذلك وحشية تخرج بالرجل عن منطق العقل وعن منطق القلب ، إلى حال أقرب ما نكون إلى الجنون ؟ . . . فكيف تربئنى قادرة على معاونة زوجى كى يتغلب على جنون حبه ؟ . . »

قلت : « هبى يا ابنتى هذه الحال مرضاً ، وليس واجباً على الزوجة أن تسهر على زوجها ، إذا مرض حتى يشفى ؟ . . وقد وصفت أنا الدواء واقتنع بفائدته إذا أنت عاونته بذكاء أنوثتك على الاستفادة منه ، فحاولى مرة أخرى لعل هذه المحاولة تكون موفقة ، فإذا جاء ساعة الشأى فعودى معه إلى بيتك كأن لم يكن بينكما شيء . وسأدعولكما الله من كل قلبى أن يهديكما ويوفق بينكما » .

وكذلك كان ! . . جاء زوجها ساعة الشأى وتحادثنا كأن لم يكن شيء ثم عادا بعد الشأى إلى مسكنهما وعدت أنا إلى بيت زوجى فأوبت فيه إلى خلوقى ودعوت الله من كل قلبى أن يرزق ابنتى أطفالاً تسعد ويسعد زوجها بهم ويشغلونهما عن منازعاتهما بما يبعثون إلى حياتهما من روح الأبوة والأمومة ومن عواطف الحنان والمحبة والرحمة . وتفتح قلبى إثر هذا الدعاء ، ورجوت الله مخلصاً أن يحققه ، ففيه لى كذلك عزاء وسلوى

إذ يعود الأطفال بنا معشر الجدات إلى أيام طفولتنا وشبابنا ، وبعثون إلى حياتنا من براءة طفولتهم ما ينبت على أغصان كهولتنا التي كادت تجف وتذوى أوراقاً جديدة تبتعث حيوتنا إلى نشاط كادت تنساه ، وكادت لذلك تنظر إلى المستقبل بعين زایلها كل أمل أوجاء ، لأن المستقبل يصبح في نظرها المنحدر الذي يهوى بنا إلى الفناء .

والحق أنني لم أكن أمزح مع زوج ابنتي ولا كنت أسخر منه ، حين قلت له إنه إن أنجب هو وزوجه أطفالاً شغل هو بهم عن غيرته وشغلت هي بهم عن تمليق الرجال جاذبيتها ، وظل ذلك دأبهما سنوات عدة حتى يكبر الأطفال ، وفي هذه السنوات يصبح هو أقل غيرة ، وتشغل زوجه عن نفسها بأبنائها ، وتغير حياة الأسرة كلها تغيراً أرجو أن ينفع عليها الرضا والطمأنينة ! . .

وانتقلت من حجرة خلوتي إلى غرفة نومي . فلما دخلت سريري وأطفأت الأنوار ذكرتني غيرة زوج ابنتي بما كان من غيرتي أيام شبابي ، وما كان لهذه الغيرة من أثر في حياتي ، وما أدت إليه من انفصالي بالطلاق عن زوجي ، وأن طفولة ولدينا لم تمنع يومئذ الانفصال ولم تشغلني عن هذه الغيرة . على أنني دفعت ما أثارته هذه الذكرى من مخاوف ، بأن غيرة المرأة ليست كغيرة الرجل ! . . حسب الرجل من المرأة أن يؤمن بوفائها له ، ومحافظتها على عهده ، ليطمئن قلبه . وليستريح إلى أن مجاملة الرجال لامراته بالثناء عليها ، بل بتمليق مزاياها ومواهبها . لا أثر لهما في وفائها وإخلاصها له ولأسرتها . أما غيرة المرأة فترجعها إلى أن الرجال لا وفاء

لهم إلا ما ندر ، لأن تعدد النساء فى طبعهم ، ولأن عدم وفائهم لا يدخل على أسرهم من ليس منها ، فمن حق المرأة أن تكون دائمة اليقظة دفاعاً عن نفسها ، ولها عذرها إن دفعها الغيرة إلى مثل ما دفعنى إليه ، مع ما فى ذلك من مضرة بها وبأبنائها ، وأقنعنى هذه الحجة بأن ابنتى ليست معرضة لمثل مصيرى ما وقت هى لزوجها ، فاطمأنت لهذا المنطق وذهبت إلى الطمأنينة إلى عالم النوم .

تصف شهر شعبان ، فأديت لزوجى واجبه ، فذهبت إلى قبره ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وتلا قارئ القرآن هناك ما تيسر منه ، ووزعت الطعام على الفقراء ، ثم عدت إلى بيتى ولا يزال أثر البكاء فى عيني ، وفى الأيام الباقية من هذا الشهر أخذت أعد لسهرة رمضان ، وأفكر فى نظام حياتى بعد نهايته .

وكان هذا التفكير فى سهرة رمضان جديداً على ، فلم يعتد زوجى - ولا اعتاد زوجى الأول قبله - إحياء هذه السهرة . ولا أخالنى كنت أفكر فى إحيائها لولا ما عاودنى من تقوى صباى مما دفعنى بعد ذلك للحج وللمقام بالمدينة ، ولولا وفاة زوجى وفاة حزت فى كبدى . فلما بدأ رمضان ، وأخذت القارئة التى اخترتها ترتل القرآن بصوتها الرخيم ، شعرت لسماعه بطمأنينة النفس إلى قضاء الله وقدره ، وازددت يقيناً بمغفرة الله للتائب الذى صدقت توبته وإنابته ، وإن أيقنت كذلك بأن التوبة الصادقة تقتضى صاحبها التكفير عن خطاياهم بصدق الندم عليها ، والإيمان بأن ما أصابه وما يصيبه من جرائمها ليس إلا الجزاء العدل عنها جزاء يجب أن نتقبله شاكرين .

وقضيت رمضان في العبادة والتهجد ، أقوم الليل ، فإذا تناولت طعام السحر ، وصليت الفجر ، أويت إلى مضجعي لأستيقظ لصلاة الظهر أو للجمع بين الظهر والعصر . وقيل المغرب تجيء القارئة تتلو ما تيسر من القرآن . فإذا غابت الشمس صليت ثم أفطرت ثم صليت العشاء وبدأت السهرة ، فجاءني بعض صديقاتي وزارني أبنائي ، وأقمنا نستمع للقرآن وتداول الحديث حتى إذا انصرفوا قبيل موعد السحر ، أقمنا أتحدث مع القارئة حتى نتناول طعام السحر معاً ، ثم ذهبنا إلى حجرة خلوتي وأقمنا بها حتى أصلى الفجر لأذهب بعد الصلاة إلى مضجعي .

وانقضى رمضان وأديت في فترة العيد واجباته لزوجي ولزوجي الأول ، فذهبت إلى قبريهما ومعى أولادى ، وهناك قمنا بالمراسم المألوفة في هذه المواسم .

وأخذت أفكر في المستقبل القريب وما أصنع فيه . ذلك أنني جال بخاطري غير مرة في أثناء رمضان أن أحج البيت وأهب حجى لزوجي لعل الله يغفر له ، وأن أحج العام الذى يليه وأهب حجى لزوجي الأول عسى الله أن يرحمه . وإننى لكذلك إذ تناولت مع البريد رسالة فضضتها فتولتني الدهشة ، وأخذ منى العجب . فهى مكتوبة بالألمانية ، ونظرت في التوقيع فإذا هى من زوج السفير الألمانى الذى عرفت منذ أكثر من عشرين سنة ، والى اعترت يوماً بمركزها وجنسيته فقال ذلك من كبريائى ومن قوميتى ، فأتقنت الألمانية وقرأت أمهات أدبها ، حتى لا تزعم أنها خير منى في المجتمع مكاناً ، وابتسمت لهذه الذكرى ، ذكرى الشباب وكبريائه وغروره ،

وتلوت الرسالة فإذا صاحبها تذكر سابق معرفتنا ، وأنها جاءت إلى القاهرة إثر وفاة زوجها تتسلى عن شجنها بذكريات سعيدة نعمت بها في عاصمة مصر مع ذلك الزوج الذى كان يحبها من كل قلبه ، وتطلب إلى أن تلتقى في الموعد الذى أحدهد لنجدد بالتقائنا عهداً تنافسنا فيه ، ثم تصافينا ولم يطرأ بعد ذلك على صفائنا ما يشوبه .

وابتسمت بعد أن فرغت من تلاوة الرسالة ؛ فقد أثارت أمام خاطرى عهد الشباب ونضارته ، ورسمت أمام كهولتى تلك المرأة الشابة الجذابة الساحرة الحديث التى كتبها ، والتى أثارت إعجاب المعجبين وتعليق المعلقين ، وذكرتنى لغة الخطاب بذلك الألمانى الذى عرفت فى الأقصر ، والذى زارنى بعد ذلك فى القاهرة ، بعد أن بلغ إعجابه بى أن قال إنه يرانى على الأرض كما يرى الله فى السماء ! ألا ما أجمل الشباب وبراءة غروره ! ما أجمل تلك الأيام التى يشعر الإنسان فيها بأنه محور الوجود ، وأن كل ما فى الكون يتجه بنظره نحوه ويتحدث إليه ! . . بل ما أجمل أخطاء الشباب وخطاياهم وأوزارهم ! . . إنها مصدر سعادتنا فى شبابنا ، والتكفير عنها والتوبة منها مصدر نعيمنا فى كهولتنا . ترى لو أن الشباب لم يندفع مع غروره إلى الخطأ وإلى الخطيئة فهل تكون الكهولة وهل تكون الشيخوخة إلا فراغاً ثقيلاً لا معنى له ، إلا أنه غرفة انتظار للأجل المحتوم ؟ !

ترى كيف حال هذه السيدة الألمانية زوج السفير الذى سبقها إلى العالم الآخر ؟ . . ألا تزال فيها بقية من ذلك الجمال الذى كانت تنبئ به ، وتلك الكبرياء القومية التى كانت تدفعها إلى التعالى على الناس ؟ ! . .

ومالى أسأل نفسى عن ذلك وحسبى - لأراه رأى العين - أن أضرب لها موعداً كما طلبت فى كتابها ، وعندئذ يصبح الخبر خبراً ، إذ أراها وأتحدث إليها وأذكر معها عهداً سعدت به ثم شقيت ، ونعمت به ثم استغفرت الله عنه .

وكتبت إليها أَدعوها لتناول الشاى معى فى يوم قريب عينته ، وجاءت لموعدى فكدت أنكرها لأول ما رأيته . لقد ابيض شعرها ، وتجمعد وجهها ، وأطفأ منظارها الأزرق بريق عينها ، وأثقلت سمتها جسمها ، وبدت وكأنها تكبرنى بأكثر من عشرين سنة . وحمدت الله حين رأيته لما أنعم به علىَّ ثم أخذت أحدثها عن سالف أيامنا وفتوة شبابنا ، فتهدت ثم قالت : « وارحمناه لذلك العهد السعيد ! . . لم أكن أصدق ما قيل من أن مصرية فى عهد الفراعنة كتبت على قبر ولدها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم » . وكنت أحسب أن الحياة لذاتها أحب إلينا من كل من نحب . لكنى رأيت أُمى وأبى وإخوتى وأعز صديقائى وأصدقائى يتهاوون إلى قبورهم كما تهوى ريح الخريف بورق الشجر إلى الأرض ، فكنت أشعر لكل صدمة بجانب من نياط قلبى ينقطع ، وبنفسى تساقط أنفساً ، وبحيوتى يغيض معينا وكأئما يذهب جزء منها مع كل واحد منهم إلى مثواه الأخير ، فلما مات زوجى العام الماضى كانت الضربة القاضية . حتى لقد شعرت بأن حياتى كلها تذبل وتذوى ، وأنى أصبحت كالشجرة التى سقط عنها كل ورقها ، وانحدر منها ماء حياتها ، فهى تجف وتجف لتسقط مع أول ريح تعصف بها . وقد جمعت كل قوتى لأقاوم أحزائى

ومصائبى ، وجئت إلى هنا ألتمس فى الذكريات السعيدة الماضية ما يزيد فى هذه القوة ، لأتمكن من مغالبة الحياة والتغلب على همومها . أترانى أنجح فيما قصدت إليه ؟ . . أم أن لعنة هذه المصرية القديمة ستحل به بعد موت أحتبى ، وسيكون ما بقى من حياتى بعدهم أنشودة بؤس وشجن . »

قلت : « لا تذهب نفسك حشرات على الماضين يا صديقتى ، وليكن لك فى إيمانك بالله وعفوه ومغفرته لك ولهم ما تتسلين به عن همك وشجنك » ! . . .
قالت : « ليتنى عرفت الإيمان يا صديقتى فى شبانى لألجأ إليه اليوم ؟ ! . . .
أما ولم أعرفه إذ ذاك فإننى أخجل من نفسى أن أستعيره اليوم لأجعل منه وسيلة سلوى وعزائى ، ولو فعلت فئن ذا أخدع ؟ . . . أخدع رب السماوات ، والمؤمنون يذكرون أنه يعلم السر وأخفى ! . . . أم أخدع نفسى وأتخذ من هذه العارية علالة أعالج بها سقم حياتى كما يخدع الطفل باللعبة يقدمها إليه أهله ليتسلى بها عن مرضه أو عن ألمه » ! . . .

لم أدر بم أجيبها فصمتُ برهة جالت بخاطرى فى أثنائها حكمة لقاسم أمين : « أتعس البرية إنسان ضاع إيمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها » ، ودعائى تذكر هذه الكلمة للعدول بالحديث إلى أمور لا تثير نفسها ، فسألتها : كيف تريد أن تقضى إقامتها فى مصر؟ وأجابتنى أنها تريد أن تقضى ستة أسابيع بأسوان ، وأنها كانت تودّ لو نصطحب فى هذه الرحلة ، واعتذرت بأن عاداتنا القومية لا تجيز لحزينة مثل أن تغادر المدينة التى تقيم بها ، إلا أن تذهب لأداء فريضة دينية . عند ذلك سألتنى عن ولدى وما صاروا إليه فذكرت لها أنهما تزوجا . . .

قالت : « أسعدك الله بهما ، وكم أتمنى اليوم لو كانت لى ابنة تجعل المستقبل
أملاً أرجوه ، وتكون لى فى هذا الحاضر عزاء وأنساً . لقد كنت صدرشبابى
أعجب لبنات وطنك كيف يحز فى كبدهن ألا ينجن ، وكنت أسائل
نفسى ما لهن يردن أن يحملن فى الحياة أعباء ما أغناهن عن حملها ؟ !
وكان عجبى يزداد حين أسمع الآباء ، إذ يكفل الواحد منهم عدة أبناء
وينفق على كل ابن وابنة أضعاف ما أنفق عليه أبوه ليكون خيراً منه فى
المجتمع مكاناً . أما اليوم فإنى أشعر بالحزن أن لا ولد لى كشعورى بالحزن
لفقد زوجى . . لقد أظلم ماضى بموت زوجى والأحبة من أهلى وأصدقائى ،
وأظلم مستقبلى لأننى لا أرى فيه طفلاً يمت إلى أحشائى ، وتبعث براءة
ابتسامته إلى نفسى أجمل الرجاء فى أن أسعد بسعادته . . لم يبق لى إذن
ماض ولا حاضر ، ولم يبق لى إلا أن أجاهد الحياة بعزيمتى المفردة ما بقيت ،
وسأجاهدها وسألتمس فى ظلماتها قسماً من نور ، لا أدرى كيف أجده ،
ولكنى موقنة بأن العزم القوى الصادق قد ير على كل شىء ، بل قد ير على
المستحيل ! .. »

لا أريد أن أقص هنا ما دار بينى وبين صاحبتى من حديث عن
ذكريات شبابنا ، فالحديث فى أيام الكهولة عن ذكريات الشباب يوجب
الحسرة . وحسبى - وأنا موشكة أن أختم قصتى - ما سطرت فيها مما أثار
ألمى وتندى له جبينى . ثم حسبى أن أذكر أنى زرت صاحبتى هذه وزارتنى
من بعد غير مرة ، وأنى رأيتها برغم صلابة عزمها فى مجالدة الحياة ، تضعف
أحياناً حتى تنحدر الدموع من عينيها حين تذكر أحببتها ، وحين تذكر

زوجها . وحين تذكر عقمها . وكم قبلت بعد كل زورة من هذه الزورات
ظاهر يدي وباطنها شكراً لله على ما أنعم به على من ولد ، وما أبقى لي
في كهولتي من صحة وحيوية لا تخجلان حين يذكر الشباب . أما الأحبة
الذين انحدروا إلى ظلمات القبور فهم السابقون ، ونحن اللاحقون ، وشكراً
لله أن أنعم عليّ في صباى وكهولتي بنعمة التقوى والإيمان ، لأستغفر لهم الله ،
ولأتوب إليه لعله يشملهم ويشملني برحمته .

وكم أدخلت هذه المقارنة بين حظي وحظ هذه الألمانية من الطمأنينة
إلى نفسي ، وذكرتني بأن متاعب الحياة ومصائبها لا تحصي فحق علينا
أن نحمد الله ، كلما رأينا حظنا من ذلك خيراً من حظ غيرنا .

وذكرت لي الألمانية حين زارتي للمرة الأخيرة أنها مسافرة إلى أسوان
بعد ثلاثة أيام بقطار عربات النوم . وذهبت إليها قبيل الغروب من يوم
سفرها أودعها فرأيتها في بهو الفندق الذي تقيم به ، فندق سميراميس ،
ورأيت معها رجلاً يتحدث إليها وكأن بينهما معرفة قديمة . فلما اقتربت منهما
قام الرجل فأقبل نحوي مبتسماً وهو يقول : هذه أنت ! . . . وحدثت به فإذا
هو الألماني الذي عرفت بالأقصر منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا تزال تبدو
عليه مع ذلك مخايل الفتوة ؛ برغم بياض فوديه وبياض شعرات في شاربه
وحاجبيه ، واغبطت لمراه وذكرت إعجابه بي كما ذكرت الهدية التي قدمها
لي من صنع يده ، وابتسمت حين حييته وقلت : « ألا ترى أن العالم ضيق
الرقعة وأن الزمن سريع الدوران ؟ ! » . قال وهو يتسم كذلك : « كما أرى
أن كهولتك لا تقل جاذبية عن شبابك ، ألا تسافرين الليلة مع السفيرة ؟ ..

أنا مسافر في القطار الذي تسافر به ، ولكنني سأغادره بالأقصر أقضي بها أياماً
أستعيد بها أسعد ذكرياتي قبل أن أذهب إلى أسوان » . وأجبتني : « أمتعكما
الله بالسلامة ، أما أنا فإني أعد منذ الآن عدتي للسفر إلى الحجاز » .

وجلست معه إلى السفيرة فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، ونذكر
خلاله ما بالأقصر من روائع الفن الفرعوني ، وفيما نتحدث سمعنا ضجة إعجاب
في شرفة الفندق فأسرع الألماني يرى سببها ثم نادانا قائلاً : « هلمنا ! . .
إن مغرب الشمس اليوم بديع ، وهي تليق من أشعتها على صفحة النيل وعلى
أشجار الجزيرة ما يحيلهما سحراً رائعاً » ، وقمنا في بطاء ، السفيرة لسمتها
وشيخوختها ، وأنا لزهدي وتقواي ، لكننا ما لبثنا حين رأينا هذا المنظر البديع
أن وقفنا نستمتع بروعة جماله في مثل حماسة الشباب ، وكأننا لم نر من
قبل مثله على كثرة ما تنعم به مصر من مغارب الشمس الرائعة ، فلما آن
للشفق أن يولي ، والليل أن يسحب على هذا المنظر البديع رداءه ، بدأ
الناس يعودون إلى مجالسهم ، وبدأت أستدير ، لأدخل بهو الفندق من جديد ،
لكنني شعرت بيد ناعمة على كتفي فنظرت فإذا صاحبتي صديقتي ، وما لبثت
حين استدرت إليها أحبيها أن قالت : « أنت هنا ! . . ذلك ما لم أكن
أصدقه ! » على أنها رأت صديقنا الألماني مقبلاً نحونا وسرعان ما عرفته
وقالت : الآن فهمت ! . . وسألته : ماذا فهمت ؟ . . ولم تجب ، ولم يذكر
الألماني شيئاً عن سحر عينيها وكأنه لم يفتن بهما في شبابه ، فسرتني ذلك
منه ، واعتبرته خير جواب على سوء ظنها ، وجاءت السفيرة بخطاها المتناقلة ،
فقدمت إليها صديقتي . ثم قلت : أخشى أن يحول وجودي دون إلقاءك

النظرة الأخيرة على مناع سفرك ، وجهت الكلام إلى صديقتى قائلة :

« لقد جئت أودع السفيرة في سفرها هذا المساء إلى أسوان ، فألفيت صديقنا الألماني معها ، فسررت لهذه المصادفة ، كسرورى لمقابلتك الساعة مصادفة كذلك » ! . .

واستأذنت السفيرة وصاحبنا الألماني ورجوت لهما سفرًا سعيداً ، واستأذنت كذلك صديقتى وعدت إلى بيتى . فلما خلوت إلى نفسى أثارت هذه الزيارة بمصادفاتهما أمام خاطرى منظرًا تعدل روعته منظر مغيب الشمس الليلة ، على صفحة النيل وعلى أشجار الجزيرة ، ذلك منظر مغيب الشمس الذى كنا نشهده ونحن فى شرقه « ونتر بالاس » بالأقصر ، ونرى النيل ونرى هضاب « طيبة الأموات » تتابع عليهما ألوان هذا المغيب فنبعث إليهما من الجلال والجمال ما يثير فى النفس أعظم الإعجاب ! . . عند ذلك ذكرت الإنجليزية التى لقيتنى عامين متتابعين بونتر بالاس ، والتى أخذت المنظر بمجامع قلبها فحدثتني - وهى تحديق به - عن إعجابها الذى لا حد له بالفراغة وحضارتهم ، وقلت فى نفسى : من يدري ؟ . . لعلها كانت بين الحاضرين فى شرقه سميراميس اللبلة ، هذا إن لم تكن قد تحطت حدود عالمنا إلى عالم الأرواح .

وهاجت هذه الذكرى خواطر شبابه فأردت كتبها فأويت إلى حجرة خلوتى وقسرت نفسى على التفكير فى جهاز سفرى إلى الحجاز . فقد كنا إذ ذاك فى منتصف ذى القعدة ، ولم يكن باقياً على سفر الباهرة التى أبحر عليها غير أسبوعين اثنين . وإننى لأفكر فى ذلك إذ دخلت على ابنتى ومعها

زوجها ، وقالت بعد أن قبلتني : جئت يا أماء أزف إليك البشرى ، لقد استجاب الله دعائك أن تصبحي جدة لطفلنا المنتظر .

لم أشعر منذ عهد بعيد بمثل السعادة التي شعرت بها لسماع هذه البشرى ، وقمت إلى ابنتي أقبلها وأقبل زوجها ، وأنا في فيض من الغبطة أنساني كهولتي وأنساني خلوة عبادتي وفتح أمامي آفاقاً من الأمل الحلو وصور لناظري الطفل المرجو باسم الثغر والعينين ، وأرانيه يكبر بعناية أمه وعنايتي فيملاً البيت على أبويه وعلى بشراً وجوراً ، وخرجت من خلوتي ومعى ابنتي وزوجها وذهبنا إلى غرفة نومي وقد عقد السرور لساني ، فلما اطمأنت الأنفس قلت :

- كنت أفكر الساعة في جهاز سفرى إلى الحجاز لأهب حجتي إلى عمكما ، ولأقيم بالمدينة حتى عامنا المقبل لأحج كرة أخرى وأهب حجتي لأبيك يا ابنتي ، ثم أبقي بعد ذلك بالمدينة راجية أن أظل في رحابها حتى يقبضني الله إليه بها وأدفن في ترابها . أما وقد وهبنا الله هذه النعمة ، التي بشرتني الساعة يا ابنتي بها ، فسأعود بعد حجتي وزيارتي هذا العام أنتظر إلى جوارك حتى أطمئن عليك وعلى وليدك ، ثم أعود العام المقبل فأحج وفاء بنذرى وراحة لضميري ، وعند الله حسن الثواب .

وأخذنا نتحدث ، وجعلت أذكر لابنتي ، وقد حلت عقدة لساني ما يجب عليها لنفسها ولحفيثها في أثناء حملها . وكان زوجها يستمع لحديثنا وعلى محياه أمارات السعادة ولا يقول شيئاً ، وفيما نتحدث دخل علينا ابني وزوجه ، وكانا قد عرفا النبأ السعيد قبلي فشاركانا في حديثنا ، وأراد

ابنى لهذه المناسبة أن يصرفنى عن الحج هذا العام لأبقى إلى جانب أخته ،
فقلت له إن حجى وزيارتى لن يطولا أكثر من ستة أسابيع ، وإن أخته
لا يزال أمامها فى الحمل أكثر من ستة أشهر ، وما كنت لأعدل عن الوفاء
بندرندرته والسبيل مهياً للوفاء به .

وحججت وزرت ووهبت حجى وزيارتى لزوجى ، ولم يستغرق
ذلك كله ستة الأسابيع التى ذكرتها لولدى ، ووقفت ساعة الوداع أمام
المقصورة النبوية وهمتف بصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام : « معذرة
نبي الله ورسوله ! . . » لقد حرصت على أن أبقى فى جوارك حتى يختارنى
الله إلى جواره ، فأنعم فى عالم الأرواح بطمأنينة السكينة الأبدية ، فأبى
القدر إلا أن أعود إلى وطنى وأهلى ، وأنتظر هذا المولود ليردّ إلى أهله وإلى نعمة
الحياة ، وليحملنى من جديد أعباءها ، فكن شفيعى عند ربى ليجعل لنا
من هذا الحفيد سعادة ونعمة » ! . . .

وعدت إلى مصر وبقيت إلى جوار ابنتى حتى تم وضعها فأسمت الوليد
باسم جده ، أبيها ، واستأثر هذا الوليد البرىء بكل ما فى قلبى من حنان
وبر ، ونظرت إليه يوماً وهو بين ذراعى وقلت فى نفسى : ترى لو أن جده
زوجى الأول كان اليوم حياً ، أفما كان قلبانا يجتمعان حول هذا الطفل
يحوطانه بأجمل ما ينبضان به من عواطف ؟ ! . . ولم ألبث حين مر هذا
الخطر بخيالى أن سألت نفسى : كيف سولت لى يوماً أن أفكر فى فصم كل
صلة بينى وبين هذا الرجل ؟ . . وأن أنسى أننا إذا انفصل جسمانا فصير
قلبنا إلى اجتماع حول حفيدنا ، وأن الحكمة تقتضينا لذلك أن نعالج بالصبر

أهواء الحياة . فأهواء الحياة قلب ، وأساس الحياة الحق المحبة ، فإذا استبقيناها في قلوبنا أبقينا على خير ما في الحياة ، بل أبقينا على أساس الحياة ، وسر وجودنا فيها .

وجعل الطفل ينمو فيزيد نموه في محبتى إياه . فلما انقضت أشهر على مولده ، وأن موعد الحج وفيت بنذرى فحججت وزرت ووهبت حجتي وزيارتي لجده ، ثم عدت إلى مصر متشوقة أشد الشوق لاجتماعه . وجاء ولدى يستقبلنى بالسويس ، وفيما نحن في طريق الصحراء إلى القاهرة زف إلى البشرى بحمل زوجه ، وبأننى سأصبح عما قريب جدة لولده كما أننى اليوم جدة ابن أخته ، واغتبطت وقبلته ونحن في السيارة تنهب بنا الأرض إلى غايتها . فلما بلغت بيتى ألفت ابنتى وزوجها وابنها وزوج ولدى في انتظارى ، ثم ألفتهم جميعاً يقبلون على يقبلونى ويرجون لى حجاً مبروراً ، وتناولت الطفل العزيز من أمه وقبلته وضمته إلى صدرى ، وشعرت به فلذة من قلبى .

وفي المساء ذهبنا جميعاً نتناول العشاء في بيت ولدى ، وجلسنا كلنا في بهو الاستقبال وفيه صورة زوجى الأول وكأنه ينظر بعينه الثابتين إلى بنيه وحفدته .

عند ذلك أيقنت بأن الله أكرمنى بأن لم أعقب من زوجى الثانى ، وإن حز في نفسى ما تيقنته ، من أن هذا الرجل الذى أنقذنى وأكرمنى سيصبح عما قليل نسياً منسياً .

أترانى أستطيع بعد اليوم أن أفكر في العود إلى المدينة المنورة لأقيم

فى رحابها ، حتى يقبضنى الله إليه بها ، فأدفن فى ترابها ؟ ! . . أم أن الحياة
أمسكتنى هنا مع أبنائى وحفدى الأبرياء ، حتى أرقد الرقدة الأخيرة فى
صحراء القاهرة ؟ . .

وهل أنعم الله علىَّ بهؤلاء الحفدة ليكونوا عزاء كهولتى وشيخوختى ؟
أم أن الحياة لا تزال تعدُّلى من بأسائها ما يضطرب قلبى لمجرد تصوّره ؟ . .
علم ذلك كله عند ربى . والحمد لله الذى وهبنى على الكبر نعمة العود
إلى الحياة والمتاع بها من جديد مع حفدى الأطفال الأبرياء ! . .

خاتمة

فرغت الآن من تدوين قصتي ، متوخية فيها الصدق جهد طاقتي ،
أتراني أستطيع أن أغامر فأنشرها على الناس ؟ ! ..

لقد كان جيني يندى وأنا أسطر بعض صفحاتها ، ولشد ما أخشى
إذا هي نشرت أن يندى هذا الجين كلما لاح لخيالي قارئ يحاول أن
يستشف من خلالها ما يرضى طلعه ، أو يقف منها على أسرار لا شأن لغيري بها ،
ولا علم لغيري بدوافعها وملابساتها ! ..

ولست آسف مع ذلك على ما أنفقت من وقت في تدوينها ، فقد تمتع
في أثناء كتابتها بألوان من المسرة ، سواء وأنا أجلو الصحف المضيئة أو
الأركان المظلمة من حياة قلبتي على ورود ، وعلى أشواك يثير مسها في
النفس أحاميس متباينة تبعث إليها الرضا برغم تضاربها ، لأنها مظهر
حياتي خلال عشرات السنين التي طويت من عمر الحياة ، والتي أذاقتني
كل ما في الحياة من هناء وشقاء ، ومن سعادة وبؤس ، ومن لذة وألم ، ومن
أمل ويأس .

وكيف آسف وإني لتهزني الغبطة كلما عدت إلى هذه الصورة التي
رسمتها من حياتي ورأيت هذه الحياة كاملة أمامي ، لا يحجبها عنى تعاقب

الأزمة ولا تغير الأمكنة التي مرت بها . فأنا أرى فيها الطفلة التي كنتها ،
والصبية التي ترعرعت على أعواد هذه الطفلة ، والشابة والزوج والأم ، وأرى
انسحاب الأيام يندس إلى هذا الشباب رويداً رويداً فيحيله كهولة تتخطى
على هون إلى ما بعد الكهولة ، وإني لأبتسم لهذه الأطوار جميعاً ، وأبتسم
لآلام حزت يوماً في نفسي وأوقفتني على حافة اليأس ، ثم مر الزمن بيده
المحسنة على هذه الآلام فأصبحت اليوم موضع عطى ، ومدعاة تقديرى
وغبطى .

يذكر الذين ترجموا للمثال الإيطالى الخالد ميكلائجلو أنه لما أتم ،
تمثاله « موسى » ورآه بلغ الكمال ، خاطبه مبدياً إعجابه بكماله . فلما
لم يجد لكلماته من جانب التمثال صدى نظر إليه مغضباً ، وضربه بإزميله
وصاح به : مالك لا تتكلم ! . . ولست من الغرور بحيث أنظر مغضبة إلى
هذه الصفحات التي كتبت وأنا أعجب كيف لا تخرج من بينها الصبية
والمرأة التي رسمت ممتلئة حياة ونشاطاً ، فلم يبلغ إيماني بالفن ما بلغه
من نفس المثال الإيطالى الخالد ، وأنا أقل إيماناً بفى من أن يدور مثل
هذا الخاطر بخلدى ! . .

ولهذا لا أحسبني أغامر فأدع هذه القصة تنشر يوماً على الناس . .
وما جدوى نشرها ؟ . . لست من السذاجة بعد الذى قطعت من عمر الحياة
وقطع الوجود من عمرى لأتوهم ما يذهب بعض الكتاب إليه من أن قراءها
سيجدون فيها عبرة تنفعهم في حياتهم . فالعبرة كلمة نقوها ولا مدلول في
الواقع لها . وهل اعتبرت الإنسانية بما يصيبها من أهوال الحرب وويلاتها

فأقلعت عنها ؟ ! . . وهل يعتبر الشباب بما أصاب آباءهم وذوئهم ، إذا احتاطوا فلا يقعون فيما وقع هؤلاء الآباء فيه ؟ . . وكيف تنفع العبرة وفي الحياة من الغيب المستور ما تتغير معه المقدمات والنتائج تغيراً لا يستطيع أكثر الناس ذكاء وعلماً توقعه ، بله التقدير له ! . . وكيف يستطيع الشباب أن يتخذ العبرة من المشيب ولما يعرف من أمر المشيب قليلاً ولا كثيراً ! . . لقد طالما اطلعت في شبابي على مثل هذه القصة فوجدت في مطالعتها تسلية ولذة لم يتعدى حدود اللذة والتسلية ، وكان لأصحاب هذه القصص من البراعة ما ليس لي ، فإذا لم تظفر قصتي بتسلية قرائها فن حقهم أن ينقموا مني وأن يلعنوا غروري . ونخبر لي أن أتى النعمة واللعة كليهما ، فلا أطلع الناس بما يدفعهم إليهما . ذلك خير لهم ولي ، وأدعى أن ينفقوا وقتهم فيما يعود عليهم بما يلذهم ويرضيهم .

ولا أحسبني أبالغ حين أذكر أن العبرة بما يصيب الغير كلمة لا مدلول لها في الواقع ، فنحن لا نعتبر إلا بما يصيب ذاتنا .

كانت لي أخت طفلة لما تبلغ عامها الثاني ، وكانت بادية الذكاء منذ طفولتها ، وكان أبي مغماً بها ، يغتبط بمداعبتها ، ويقضى في ذلك سويعات كل يوم . وقد أدنى من إصبعها يوماً عوداً من الكبريت ملتهباً ، ثم سحبه في حركة تدل على خوفه من أن يحرقها ، لكن الصغيرة لم تفتن لهذه الحركة ولم تعتبر بها حتى أدنى والدي عود الكبريت الملهب من إصبعها فكاد يحرقها ! . . هنالك أدركت أن النار تحرق ، وصارت تسرع إلى سحب يدها كلما أدنى أحد النار منها . وذلك شأننا جميعاً في الحياة ،

إذا لم تكن نحن موضع العبرة لم يكن للعبرة مدلول في نظرنا . . وكثيراً ما نخطئ في تقدير مدى العبرة مما يصيبنا نحن ، فلا نفيد منها إلا القليل .
وليس عجيباً أن تكون العبرة كلمة لا مدلول في الواقع لها ، فنحن نحكم على الأشياء بمجموعة من العناصر الذاتية ، يختلف الحكم باختلاف تأثيرها بما في الحياة وتأثيرها فيها . . نحن نحكم بعقلنا ، وعلمنا ، وعواطفنا ، وميولنا ، وإحساسنا ، وأعصابنا ! . . وهذا المزاج من العناصر يتأثر بما نكون عليه من أحوال الغضب والرضا والطمأنينة والقلق ، كما يتأثر بالبيئة المحيطة بنا ولا سلطان لنا عليها ، فأى هاتيك العناصر تكون أقوى أثراً في اعتبارنا بما نقرأ ؟ . . وقد تكون البيئة أقوى من كل تلك العناصر أثراً ! . .

كنت في العاشرة من سنى ، وكنت تلميذة بالمدرسة السنية للبنات في العشرة الأولى من هذا القرن العشرين ، ولم يكن يومئذ للبنات مدارس مصرية غير السنية وأم عباس ، وإني لأمر بفناء الدار دعاني والذى فدخلت غرفة الجلوس وحوله فيها جماعة من أصدقائه ومعارفه ، بينهم مطربشون ومعممون ، وسألني والذى عما ندرسه في الجغرافيا والتاريخ ، وخرجت من عنده وانتحيت جانباً في الفناء فلم ألبث أن سمعت مناقشة حادة بين الموجودين مع أبى ، يبدى أحدهم إعجابه بما سمع منى ، ويعترض آخر على ذهائى إلى المدرسة اعتراضاً شديداً ، ويعترض على تعليم البنات بوجه عام ، قائلاً : إن مصير البنت أن تتزوج ، فما فائدة أن تتعلم القراءة والكتابة ؟ . . بل إن في تعليمها لضرراً أبلغ الضرر ، إنه يمكنها من قراءة الروايات وما فيها من قصص الحب ومن كل ما يفسد الأخلاق ، وهى بعد في غير حاجة إلى هذه

المعرفة ، فنحن لا نعدها لوظيفة في الحكومة ولا لعمل من الأعمال يحتاج إلى القراءة والكتابة . واستمر الرجل يؤيد هذا الرأي ، ويزداد حماسة في تأييده كلما ازداد مناقشه تأييدا لضرورة تعليم البنات ، لتستكمل وجودها الإنساني . وقد كان يؤيد ذلك المعارض في تعليم البنات يومئذ كثيرون حتى من المتعلمين تعليماً مدنياً ، وكانت البيئة تسبغ يومئذ مثل ذلك التفكير . ترى أيمكن أن يدور مثل هذا التفكير اليوم بخاطر أحد أو يجروء على الجهر به وقد أخذت البنات مجلسهن من مقاعد الجامعة ، وقد غصت وظائف الحكومة بالكثيرات منهن . وقد أصبحت مبادئ العمل الحر مفتوحة أمامهن ؟ ! . . . أفلا يشهد ذلك بأن آراءنا وأحكامنا تتأثر بالبيئة إلى حد كبير ؟ . . . وهي تتأثر كذلك باعتباراتها الذاتية ، وقتية كانت هذه الاعتبارات أو غير وقتية ، مما يدل على أن العبرة التي نتلمسها في القصص قليلة الأثر في الواقع ، إن كان لها من هذا الأثر أي حظ ؟ !

لم أعن نفسي بهذا الحوار حول تعليم البنات يوم سمعته وأنا في موقفى على مقربة من باب غرفة الجلوس ، بل فررت مسرعة إلى داخل الدار خيفة أن يراى أحد ويتساءل عن سبب وقوفى . وما كنت لأفكر يومئذ أى المتحاورين على حق ؟ . . . فقد كان أبى هو الذى يفكر لى وهو الذى ينفذ تفكيره ، إن شاء أن أبقي بالمدرسة بقيت ، وإن شاء أن أغادرها وألزم البيت كان رأى رأيه . ولقد مر هذا الحوار من بعد بخاطرى فأثار منى ابتسامة إشفاق حيناً ، وابتسامة تحالطها المرارة أحياناً ، أما الإشفاق فعلى هذا الذى توهم أن البنات تتعلم الحب فى قصص الحب ، وهل تقرأ الطير قصص الحب وهى فى

عشها وفي سمواتها ، وللطير على اختلاف أجناسها قصص في الحب أروع من قصص بني الإنسان ؟ . فالحب غريزة ركبت في الذكر والأنثى يلتمس كلاهما من سبيلها تخليد النوع . والفن الساذج في الحقل وفي المصنع ، والفن الساذجة التي تشاركه العمل ، ينجذب أحدهما نحو صاحبه ، في غير حاجة إلى كتاب يقرؤه ، مندفعين في ذلك بحكم الغريزة التي لا تقهر ، وهما يسمعان من قصص الحب ما يغنيهما عن قراءة شعر « المجنون » أو قصة « روميو » و « جولييت » ، فإذا توهم أحد أن قراءة قصص الحب مفسدة للأخلاق فهو جدير بالإشفاق وبأكثر من الإشفاق .

وأما المرارة التي خالطت ابتسامتي أحياناً فقد أثارها في نفسي شعور ذاتي لا اعتبار قل أن يرد بخاطر أحد . فأنا كثيرة القراءة ، وإدمان القراءة يدعو إلى شيء من العمق في التفكير ، وإلى عزلة لا مفر منها يدفع إليها التفكير العميق . فهذا التفكير فيما حولنا يكشف لنا عما في حياة المجتمع من حمق وسخافة ، ويدفعنا للتعالى على هذا المجتمع ، بل إلى ازدرائه في كثير من الأحيان .

هذا لون من الغرور لا ريب ، وهو غرور يجعلنا ننطوي على أنفسنا ونتذوق دخيلتنا غبطة كبيرة بتفوقنا ، ولكنه يدس إلينا مع هذه الغبطة مرارة سببها انكماشنا عن الناس وتعذر التفاهم بيننا وبينهم في كثير من الأحيان ، وقد تبلغ هذه المرارة أن تدفعنا إلى حافة اليأس فلا ينجينا منه إلا أن ننزل إلى المستوى العام ، وأن ننسى أنفسنا في ألوان من المسرة يمجها ذوقنا ، لولا هذه المرارة التي تضطرنا للرضا بما لا نرضاه بحكم عقلنا وثقافتنا .

وإذا كان للبيئة من السلطان على أحكامنا ما قدمت فلظروفنا الخاصة سلطان لا يقل عن سلطان البيئة ، فهذه الظروف هي التي تكيف اتجاهنا في الحياة ، وهي التي تكيف أحكامنا على ما رأينا وما نرى : أليس يختلف حكم الأغنياء عن حكم الفقراء على الأشياء ؟ . . . وهلا يختلف حكم الأذكياء عن حكم الأغنياء ، ويختلف حكم أبناء الحرفة الواحدة عن أبناء الحرفة الأخرى على ما يرون ؟ . . . أو لا ترى شخصاً يوهب منذ مولده أذناً واعية للأنغام والألحان ، وآخر يوهب عيناً بصيرة بالصور والألوان ، وثالثاً لا يعنى من الأنغام ولا من الألوان بأكثر من التسلية ، برغم ما له من ذكاء نفاذ وحسن بصر بالأمور ؟ ! . . .

وليس يسيراً أن نحيط بظروف الناس الخاصة ، فهي لا تحصى ولكني طالما سألت نفسي : أترانا برغم هذه الظروف نزعم أن لنا في الحياة اختياراً بأى مقدار ؟ . . . وهل كان لى اختيار أن أولد أنثى ، وأن أولد فى المدينة وأبواى من أهل الريف ، وأن أكون على حظ قليل أو كثير من الجمال أو الذكاء أو الجاذبية ، وأن يكون أبواى من طبقة معينة من طبقات المجتمع ، وأن يقيدنى كل واحد من هذه الظروف بقيود لا فكاك لى منها ، ولا سلطان لى عليها ؟ . . . وما هذا الاختيار الذى يحدثوننا عنه إذا كان الإنسان مههدداً بالعقاب لعمل يجترحه ، موعوداً بالثوبة إذا عمل صالحاً ؟ أم نحن مختارون حين يشتهى أحدهنا صنفاً من الطعام ويشتهى صاحبه صنفاً آخر لأن معدة الأول لا تطيق ما تطيقه معدة الثانى ! . . . الحق أشهد أننى لم أشعر بأننى كنت مختارة فى يوم من الأيام ، وإنما فرضت الحياة نفسها علىّ ، فلم يكن

لى اختيار فى قبول ما فرضت ، مذ كنت طفلة إلى هذا اليوم وإلى أن
أموت .

وإذا لم يكن لنا فى الحياة اختيار ، فهل يبقى لكلمة العبرة معنى
أو مدلول فى الواقع ؟ . . لقد عدت غير مرة إلى كتب قراءتها منذ سنوات
عديدة فتغير حكمى على ما فيها عما كان عليه يوم قراءتها أول مرة ، فأيقنت
أن أحكام شبابنا تختلف عن أحكام كهولتنا ، لأن عناصر الحكم الكينة
فيتا يختلف مزاجها بتقدم السن أو بتغير أحوالنا المعيشية أو باختلاف البيئة
التي تحيط بنا أو بما يمر بنا من حالات الصحة والمرض ، والنجاح والفشل ،
والرجاء واليأس ، وبعض هذه الكتب التي عدت إلى قراءتها ليست قصصاً
جانب التسلية فيها أوفر من جانب العبرة ، بل هى كتب تفكير ورأى ،
أو كتب علم أو فلسفة ، فإذا كانت صور الأشياء تتغير أمامنا على هذا
النحو فهي إذن وهم وليست حقيقة ، وهى صورة لما نشعر به فى دخيلة
أنفسنا أكثر منها حقيقة كونية مادية يمكن الاطمئنان إليها .

وبعد ، فهل فى الحياة حقيقة ثابتة ؟ أم أن ما فى الحياة كله حقائق
وإن كانت لا ثبات لها ؟ . . أترى الحقيقة هى النور أم الظلام ، وهى
السعادة أم الشقاء ، وهى الرجاء أم اليأس ، وهى الحياة أم الموت ؟ . .
لقد طالما تبدت لتفكيرى صور وألوان من هذه الحقائق التي لا ثبات لها ،
والتي نمر بها على دوام تغيرها متفانية متجددة ، فأوقعنى التفكير فيها فى حيرة
كانت بعض أسباب المرارة التي اندست إلى حياتى ، وبعض أسباب العزلة
التي باعدت بينى وبين الناس ، ثم وجدت الوسيلة فى بعض الأحيان إلى

التغلب عليها بأن اندمجت في غمار الناس وسرت سيرتهم ، وطلقت التفكير حتى اهتديت آخر أمرى ، وفي مولات عمرى ، إلى أن الحقيقة فوق هذه الصور جميعاً ، وإلى أن التماسها يقتضيها السمو فوق صور الحياة في انبهارها وتجدها لتطالع وجه الله الأكرم ذى الجلال .

وما لى أطيل التفكير فيما كتبت ؟ وهل ينشر على الناس أولاً ينشر ؟
وفما إذا كان لكلمة العبرة مدلول في الواقع أو أنها ليس لها هذا المدلول ؟
أليس خيراً أن أدع التفكير في هذا لغيرى ، فإذا رأى قصة حياتى حقيقة بأن يطالعها غيرى فيجد فيها متعة أو عبرة فليشرها ، وإلا فليلق بها في سلة المهملات كما يقولون ! . . إننى قد اعترمت مغادرة مصر إلى حيث أستطيع التوجه إلى الله بكل قلبى ألتمس عنده المغفرة من ذنوبى ، وأجد منه الهدى إلى الحقيقة التى يستريح لها وجدانى . ويوم يتاح لى تنفيذ غرضى فسادع هذه القصة بين يدى من يستطيع أن يحكم عليها بأعدل مما أستطيع .
وله يومئذ أن يفعل بها ما يشاء ، فإذا نشرت فلن أستطيع قراءتها مطبوعة لأننى سأكون بعيدة عن مصر ، بعيدة عن هذا المجتمع الذى نعمت به وشقيت ، والذى عرفت بين أحضانه ألواناً من السعادة والبأساء ، ومن اليأس والرجاء ، أكثر مما عرفت كثيرات من بنات جنسى ! . .

والله أسأل أن يهين لى فيما بقى من أيام حياتى سبيلاً أهدى من السبيل التى اخترت إلى اليوم ، وأن يكتب لى أن أموت راضية مرضية ، وأن يجعل من توبتى ومن أيام شقوتى شفيعاً عنده ، إليه المرجع والمآب ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

أتممت كتابة ما تقدم عشية الحج أول مرة ، وكنت أحسب يومئذ
أنى فرغت من تدوين قصتى ، ورسمت الطريق لما بقى لى فى الحياة من
أسابيع أو شهور أو سنين كثيرة أو قليلة ، لكن القدر سرعان ما أثبت لى مرة
أخرى أنه لا يعبأ بإرادتنا الإنسانية ، وما نرسم أو نصور ، وأنا أضعف أمامه
من أن نثبت بإرادتنا شيئاً فى لوحه .

صحيح أنى حججت وزرت مدينة الرسول ، وعزمت أن أجاوره ،
لكن هذا العزم ما لبث أن عبث به الأقدار واضطرتنى للعود إلى القاهرة
لأواجه بها أقسى ما يواجه إنسان فى حياته . وعدت فعزمت أن أقيم بالمدينة
أمله أن أظل فى رحابها حتى يقبضى الله بها ، وأدفن فى ترابها ، فإذا هذا
العزم لا يثبت للمرة الثانية أكثر مما ثبت للمرة الأولى ، وإذا بى أضطر للمقام
فى مصر فى جوار أحفادى ، سعيدة بهذا الجوار ، مشفقة من هذه السعادة ،
خائفة أن تقرب ما ينحى الغد فى طياته مما قد أنوء به .

وقد قصصت ذلك كله بعد زمن طويل من تدوين ما جرى فى
شبابى وبوادر كهولتى . ولست أدري أيعنى أحد بأن يطلع عليه ، ولذلك
تركته مع ما سبقه إلى من يستطيع أن يقطع فيه بحكم فينشره أو يهمله .
وسواء على أنشرت هذه القصة أم لم تنشر ، فحسبى أن دونتها ولن أعود
إلى قراءتها من بعد ، فلى من هؤلاء الأحفاد ما يشغلنى عنها ، وعما كان
زوجى الأول يسميه غيرتى وغرورى .

والله أرجو أن يتوب على ويغفر لى ، إنه الغفور الرحيم ! . .

للمؤلف

الطبعة الأولى ١٩٦٤	الإيمان والمعرفة
الطبعة الأولى ١٩٦٤	عثمان بن عفان
الطبعة الأولى ١٩٦٣	الشرق الجديد
الطبعة الثانية ١٩٦١	الإمبراطورية الإسلامية
الطبعة الرابعة ١٩٧٤	هكذا خلقت
» » ١٩٦٠	مذكرات في السياسة المصرية الجزء الأول
» » ١٩٥٥	» » » » الجزء الثاني
» » ١٩٥١	الفاروق عمر
الطبعة الخامسة ١٩٧٢	(جزءان)
الطبعة السادسة ١٩٧١	الصدوق أبو بكر
الطبعة الخامسة ١٩٧١	في منزل الوحي
الطبعة الثانية ١٩٧٤	حياة محمد
عشرة	
الطبعة الثالثة ١٩٦٦	ثورة الأدب
» » ١٩٦٦	ولدى
» » ١٩٥٤	تراجم مصرية وغربية
» » ١٩٤٩	عشرة أيام في السودان
الطبعة الثانية ١٩٦٨	في أوقات الفراغ
الطبعة الثانية ١٩٦٥	الجزء الثاني جان جاك روسو
الطبعة السابعة ١٩٧٤	زينب
» » ١٩١٢	دين مصر العام - بالفرنسية
الطبعة الأولى ١٩٧٢	قصص مصرية

١٩٨٩ / ٧٧٩٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٧٦٥-X	الترقيم الدولي

١ / ٨٩ / ١٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)